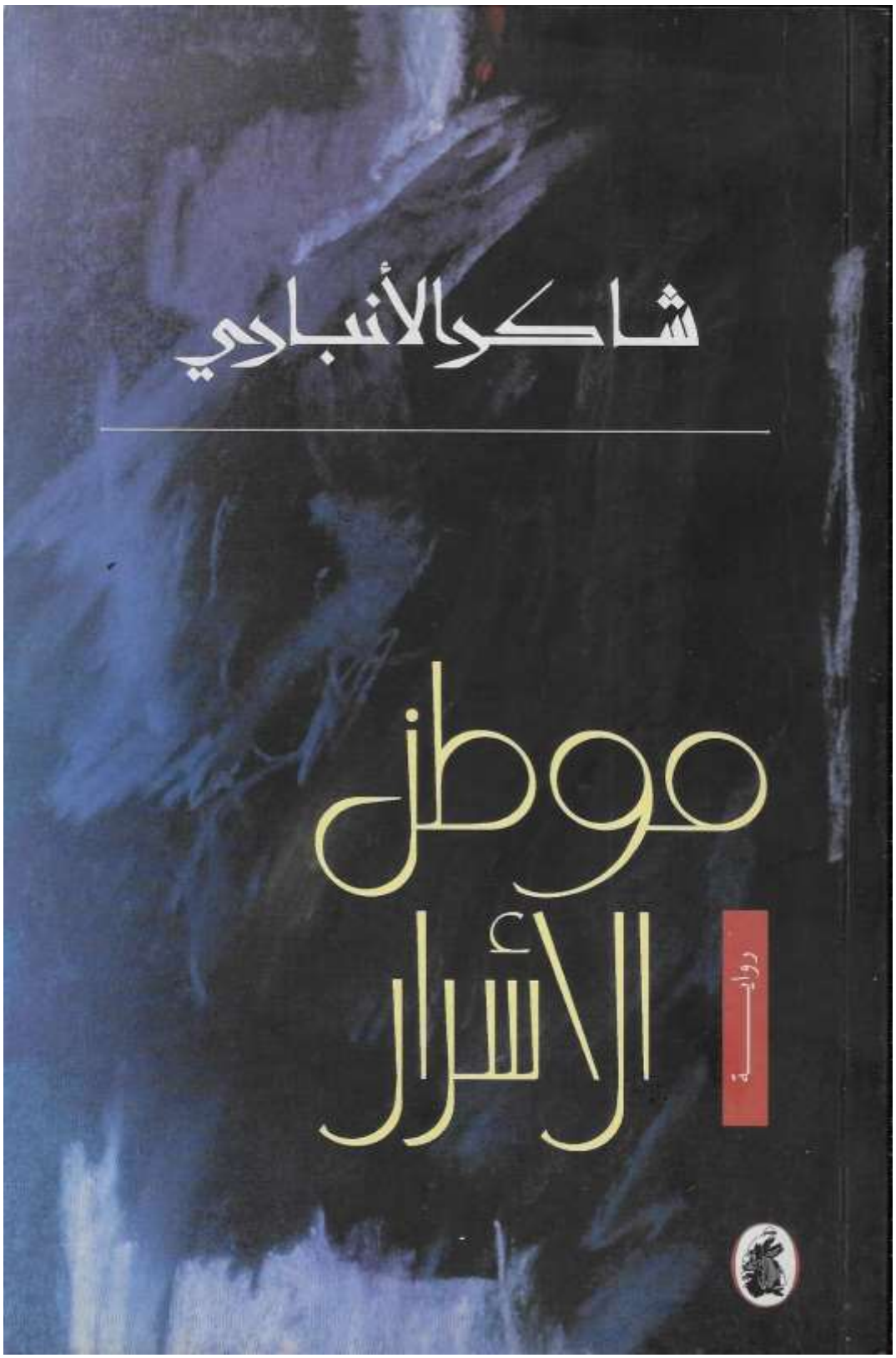

شاكر الأنباري
موطن الأسرار
رواية

موطن الأسرار / رواية عربيّة
شاكر الأنباري / مؤلّف من العراق
الطبعة العربيّة الأولى ، ١٩٩٩
حقوق الطبع محفوظة

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، ٥٤٦٠ ـ ١١ ، العنوان البرقي :موكيّالي ،
هاتفاكس : ٨٠٧٩٠٠ / ٨٠٧٩٠١
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص.ب : ٩١٥٧ ، هاتف ٥٦٠٥٤٣٢ ، هاتفاكس :٥٦٨٥٥٠١
E - mail : mkayyali@nets.com.jo
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :
لوحة الغلاف :
هادي ياسين / العراق
الصفّ الضوئي :
مطبعة الجامعة الأردنيّة ، عمّان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال ، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

شاكر الأنباري

موطن الأسرار

رواية

ولما شـــربناها ودب دبيـــبـــهـــا
الى موطن الأسرار قلت لها قفي

١

بعد ان اجتاز بوابة المطار ، في لحظة كان يتوقع مجيئها طوال تلك السنوات ، داعب وجهه هواء فيه رطوبة .وكان المذاق خليطا من نكهة الصحراء والبحر والاصقاع المجدبة . انه الشرق الذي حلم به طويلا ، حنّ الى شمسه وهوائه وصحرائه وناسه ولهجاته وصحاريه . الافق يشاهده ويتنشق غباره .الاصوات يسمعها : القبرة في جرزة الحلفاء ، المعزى على كتف الساقية ، الديك فوق سارية الزريبة .احمرار خفيف لفجر قادم على عربات من تين ، يتفتق عن دفقات ضوء وذؤابات اشجار بعيدة خلف شارع المطار والقرى النائمة . العطر من النساء والبخور في الشعور الطويلة . لا ضجة في المطار ،عمال الوجبة الصباحية والمسافرون القادمون توا .كان هناك عدد من الشرطة وسائقي تاكسيات لحوحين يعرضون خدماتهم . في الأبهاء نائمون ينتظرون طائراتهم او مستقبليهم . جلس يثرثر مع مسافر رافقه في الرحلة ، استرد معه قليلا من هدوئه . وصل الى شط مصيره ، سيمسك طيره هنا ، في هذا المكان .الم يطارده كل هذه السنين في المدن

والبلدان؟ من بحر الى بحر ومن غابة الى غابة ، والطير يهرب دائما .لديه حدس هائل انه سيمسك به في زقاق عتيق او حانة او على سفح جبل ، في البقعة الممتدة بين الجبل وغوطة التين .انه حمامة تسبح في فضاء بلا زمن .احيانا يحس ان عمره لحظة قصيرة فقط ، تشبه لحظة انبثاق الفجر الآن ، واحيانا يتخيل انه عاش قرونا لاتعد .

حقيبته تنتصب على البلاط فيروزة عملاقة ، وفي الفجر تطيب الشرثرة ، تلذ مراقبة البشر وهم في لجة النعاس والاحلام . كل ماحوله جديد ، ولدته تلك السنوات من رحم غير مرئي . .هاهي رحلته في نفق الشرق تبدأ ، والنفق لايعرف اين يقوده وكيف تنفتح نهايته . لابد ان يكون هناك اصدقاء جدد ونساء ومدن لم يزرها قبلئذ .طرق تتلوى بين الجبال وغابات من صنوبر وزيتون ، دموع وقبل وحكايات .الماء في حقل اللفت والغبار على اوراق الكباد والكحل يطلي الرموش . صاحبه هادئ الملامح ، غر ، قال انه غادر سورية قبل شهرين للدراسة في بلغاريا . لم يحتمل فراق اهله واصدقائه ، فكرّ راجعا . تبادلا الحديث اثناء جلوسهما في الصالة وأزجيا الوقت بالتحديق في الموظفات الجميلات والمسافرات الناعسات .اتفقا على اقتسام اجرة التاكسي الذي سيوصلهما الى قلب دمشق . . . قلبها المدعو: ساحة المرجة . اخبره بدوره انه غاب عشر سنوات ، رأى الثلج يتكوم على الاسطح واغصان التوت البري ، ضاجع وعشق وتزوج وسافر وبكى ، وظل يحلم في مكان يعتبره مكانه . فتح الشاب فمه دهشة وراح يداعب نظارته بعصبية . كيف يغيب الانسان كل هذه السنين عن بلده؟ وأوشك ان يغيب عن وعيه بعد ان عرف انه فارق بلده منذ خمس عشرة سنة . لم ير خلالها امه أواباه ولا اخوته الخمسة .

غيّر صاحبه الموضوع ، بدأ الحديث عن حياته في قرية من قرى حمص . واذا بهم في لجة من البط والحمير ورائحة الخبز في الصباحات ،

تحلق من فوهة التنور الى فوق ، وندى القمح والشعير في الواح الحقول وطقوس جمع الفطر والبقلة البرية . كل ذلك معجونا بشوق وحنين وحب مختلط بأنوار الفجر الهالة من ذؤابات اليوكالبتوس .لقد عاش ، هو ايضا ، تلك الاحاسيس من قبل لكنه نسيها الآن ، طواها الزمن ، لفها في اغطية سميكة ودفعها الى بئر الذاكرة .اشباح مارة وغابات زيتون واحراش معتمة تكر الى الخلف ، ثم زرازير تطير وغربان تحلق واحصنة تتراكض في الفسحات .

في قلبه سلام له نكهة الفجر وعذوبة الهواء ، و امرأة اسمها تاتا . امرأة له قصص معها لاتزول من الذاكرة ، وطفلتان لازال صوتهما وكركراتهما تملأ رأسه . رأى الشفق ، وتنشق الهواء الرطب ، ابصر الارض المعجونة بالحرارة وبقايا التاريخ ، فود لو كانت معه ، يريها جمال البلد الذي سيجد فيه نفسه .يراها منعكسة في بلور المرايا ، يواجهها دون خوف ، يحدق بأيامه الطويلة التي حملته في سفينتها المعبأة بالمدن والمقاهي والجبال والنيران والحروب .يريها خصوصية المكان ، الذي لم تسمع عنه الا في الخرافات والف ليلة وليلة وحكايات الكاتب السعودي ملبا طحان ، الذي هاجر ، كما اخبرته ، الى البرازيل ، بداية هذا القرن .

قالت تاتا سافر معنا الى سانباولو .مالك وسورية ، لاتعد الى بلد غادرته . تمتع بربيع البرازيل ، نحل ضيوفا على اختي ايليانا ، في حقل بنتيفي . تنصب المناقل والاسياخ والفحم ونقيم المشاوي . نشرب خمرة قصب السكر ونمرح . الاهل مشتاقون لرؤيتك ، مرت ثلاث سنين لم يروك فيها . ومن هناك ربما ، نرحل سوية الى ريوديجانيرو لترى كم هي ضاجة ومرعبة . المدينة الكونية القادمة الى الالف الثالث ، بخلاسييها وفلاحيها ومشرديها ولبنانييها الاغنياء وطلاب اللذة من الاوربيين والاميركان الكرينكو . سترى زرافات النحل والطيور المغردة في الحقل ، الجوافة والبباي والمنيوكا والموز القادم من باهيا ، والقهوة البرازيلية المحلاة

بالسكر ، الثقيلة لدرجة تكاد فيها ان لا تسكب من الفنجان . سنشرب عصير القصب المثلج ، والسنكرية والسرفيجا ذات الطعم الحاد المخمرة من شعير كابريوفا .

قالت : نأخذ سهير ومي الى الساحل حيث المحيط ، مثل المرة التي كنا فيها وحيدين . نجمع زهور البغدونيا ولسان الثور من حدائق البيوت ، نجعل الشهر شهر عسل جديد ، ونزيل فيه الالتباسات الحاصلة بيننا والمشادات الماضية التافهة التي لاينبغي ان تعكر صفو اسرة شابة مثل اسرتنا .حضورك معي يدعم معزتي في العائلة ، بلا شك . يضفي الاحترام المطلوب في المدينة ، فلا اريد ان تنطلق الاشاعات حولي ، وكأنني جئت وحيدة مع طفلتين ، انت تعرف نساء كابريوفا والسنتهن السليطة .

كانت تاتا تشك بقدرة صموده امام اغراءات النساء . ستغيب عنه بضعة اشهر ، تدرك جيدا شهوته الفائرة اليهن ، وكما قدرت سابقا بأكثر من موقف فهو لعوب . اذا سافر الى دمشق كما صرح لها فستكون الاخطار مضاعفة . الغواية تكمن في جوهر الوحدة .تاتا تشعر بالنقص وتخاف من نساء بلده .يتبخرن ويتعطرن ويضعن المساحيق على وجوههن ، يزلن شعر السيقان والابطين ، يكحلن عيونهن السود ، انهن مثل الجواري التي قرأت عنهن في حكايات شهرزاد . تظن انه يفضلهن على النساء الاوربيات . تقول له ذلك كلما زاروا عائلة عراقية ، حيث ترى الاهتمام الزائد في الفرش والاثاث والتحفيات والموكيت ، الشيء الذي كان لايهتم ابدا بتوفيره .فسرت ذلك بكونها لاتنتمي الى عرقه .

اقتراح السفر مع العائلة الى البرازيل ، رفضه بإصرار رغم انه مغر .ماعاد يطيق معاملته كغريب .اصبحت الجدران التي شادها حوله البشر لاتحتمل . استمتع كثيرا بسفرته السابقة ، رأى الريف البرازيلي وسبح في امواج المحيط واطربه غناء الطيور المدارية التي لم يسمعها في مكان آخر .في داخله حاجة اكبر من السباحة في المحيط او شرب القهوة

السكرية او التهام المشاوي . ثمة رغبة كبيرة لمراجعة النفس والعودة الى جذور جسده وروحه وافكاره . جذوره هناك ، في مكان ما خلف الابيض المتوسط .لايمكنه العودة الى البلد طبعا ، امر مستحيل على رجل مثله . الظروف غير طبيعية ، رغم انه قضى ساعات من الوقت في تخيل نفسه ماشيا في شارع من الشوارع او مدينة من المدن التي مر بها .تلك نشوة كان يرتفع فيها مسافات عن هذه الارض ، كأنه طائر بين النجوم . دمشق هي الاقرب الى القلب ، له فيها خبرة عيش لابأس بها .

قال لتاتا بلهجة قاطعة : سأسافر الى دمشق .

لم يصدق انه اوصل البنتين مع امهما الى المطار .بدأ فورا اجراء معاملات سفره .كان وقتا مليئا بالخيالات والافكار والهواجس .كمن هو قادم على مغامرة لايعرف كيف تنتهي .لم يكن الخوف من دمشق ، بل من التحولات الكبيرة التي طرأت عليه خلال السنين السابقة .اصبح وفيا الى دواخله اكثر من ذي قبل .لم يدرك كم من التحولات ستقبل هناك وكم منها مستهجنة .انتشر الخبر بين اصدقائه ، راحوا يصورون له اللذائذ القادم اليها . عرق الريّان والشلهوب والحمص واللبنة المثوّمة والكباب الدمشقي المسمّق ، نسمات الغوطة وجلسات آخر الليل في البارات عند اقدام الجبال او على ضفاف بردى او في باب توما .

الصبايا الدعجاوات العيون واللهجة الناعمة المغرية وجلسات المقهى عصراً حين تشف السماء عن اعاجيبها من سنونو وحمام وريش طائر واضواء .

شعره الطويل ، أخذ يلفت اليه الانظار منذ ان دخل ، بوجهه الحليق الشارب ، المتدرع بخبرة سنوات قضاها في اوربا ، عاش همومها وهواءها الثلجي واساليب تعاملها . .كم فكرقبلئذ ، بهذه اللحظة ، لحظة لقائه بانسان الشرق ، ومكانه ونسائه وروحه . من جانبه تجاوز كثيرا من القيم والعادات في حياته ، كان يؤمن بها بقوة .كان يفكر بايجاد بيت للسكن ، مفضلا ان يكون في مساكن برزة .لابد ان يزور بيت ام حسن وبائع

الكاسيتات رياض ومخزن العائلات الذي كان يتسوق منه العرق واللبنة والفستق الحلبي والسجائر ، في ليالي القصف والسكر . فكر بأبي حالوب ، بوليد لحام ، بسمير ، بأبي حنان ، كل الاشخاص الذين تأكد انهم لازالوا يعيشون في دمشق . لم يهاجروا الى اوربا او استراليا او اميركا كالآخرين ، سيساعدونه بلا شك على ايجاد البيت واعادة الذاكرة لرأسه .أعجبته هذه التسمية . كادت الدغارك ان تقضي على ذاكرته ، تقبل الامر وكأنه سنّة الحياة ، في مجتمع جديد عليك لابد ان تتقبل لغته واشكال بشره وطعوم فاكهته ولذة نسائه .الا ان الطعوم الاولى راحت تستيقظ لديه بالحاح .لم يخبر تاتا بهذه التفاصيل .ظن ان خلق اسرة ، وملء ثغرات الذاكرة بالحياة اليومية والاحداث سيعوضه عن كل ذلك الا انه لم يثق بالفلسفة تلك .كان واهما .

الحيوان الاول في داخله ، الذي تربى على الشموس والحلفاء والتمور والبطيخ ومشاوير آخر الليل في ضوء القمر ، ظل يمد رأسه بين حين وآخر صارخا في وجهه ، طالبا طعامه الذي اعتاده . الخس والفجل والخشب والاواني الزجاجية والاصابع البلاستيكية والمرايا التي يرى فيها هيئته المريعة . كان يرافقه كل تلك السنين .يظهر له في المنام على هيئة تنين صغير او ديناصور او عظاية ، بعينين مدورتين ، ولعاب سائل ، لم يعد يرعبه .لايريد ان يقر بهزيمته امامه ، قرر ان يؤاخيه بدلا من اتخاذه عدوا . الا يجوز انه هو الذي دفعه ، وبهذا الاصرار ، للمجيء الى دمشق؟ كان يهمس له مرارا قائلا : انك لن تستقر في مكان ، لن تجد راحتك الا في القبر . . . . . مثل ابنتك سمارة!!

اين هو باب توما وكيف الطريق الى الجامع الاموي؟ من اين تنطلق باصات ركن الدين بن النفيس وماهو الزقاق الذي يصعد الى قبر الشيخ محي الدين بن عربي الذي بات في فنائه ، وجلس تحت قبته يرقب تحولات البشر وحركتهم في السوق المسمى باسمه؟ سوق الجمعة ، ألا

يزال موجودا؟ اكداس الاحذية ، تلال البطيخ ، محابس النساء ، براميل الزيتون ، طشوت رب البندورة ، رائحة الفلافل والشوم والفلفل الاخضر ، زخارف الابواب الخشبية المشققة ، بعد ان لامستها اصابع المطر ملايين المرات . هذا ما سوف يعرفه ، ويتحسسه بيديه . ستخبره عن كل ذلك مصابيح كنيسة القديس بطرس وجذور البقدونس في عين الخضرة ودوامات الريح على سفوح جبل قاسيون الاجرد ، المزروع بالغجريات والصخور والقبّر .

لديه شهر واحد فقط ، ينبغي عليه ان يعود الى الدنمارك ليكمل دراسته للغة ويهيّىء البيت لعودة تاتا مع سهير ومي . سيدفع فواتير التلفون وايجار البيت ، ولابد ان يفتقده القط ايضا .تركه وحيدا في البيت .

قالت تاتا قبل ان ترحل بأسبوع : سافر معنا الى البرازيل ، ابق شهرا معنا .التق بايليانا وتيكا والعائلة ثم عد الى الدنمارك ، بعدها سافر الى سورية .رفض الاقتراح وأصر على السفر . كان يود الابتعاد قليلا عن تاتا ، شعر بالتعب في الفترة السابقة .تعب من روتين الحياة اليومية و تاتا التي تغيرت كثيرا بعد ان كبرت سهير ومي . اصبحت الضوضاء في البيت لاتطاق .اصبحوا اربعة اشخاص في بيت فالبي الصغير .قبل ذلك لم يكونوا سوى اثنين ، هو وتاتا .كلما رام الهدوء تشاغل بالصمت ، ثم كان يركد مثلما تركد قرادة ، فتصمت تاتا ، ويسقط البيت في دعة الفراغ والقناعة الروحية . بعد مجيء البنتين لم يعد الامر يعتمد على مزاجه .اضافة الى اعباء القط بيليه ، من وضع طعام له وملء انائه بالماء الجديد والبحث له عن دثار صوفي من الملابس العتيقة تقيه ثلوج القطب .طلب من تاتا اكثر من مرة ان يقضي على حياته بنقله الى طبيب البيطرة فرفضت .قالت : انا الذي انقذته من الموت حين ولد صغيرا في الحديقة الخلفية .لا ام ترعاه ، فأمه اصطيدت من قبل فرقة مكافحة القطط المتشردة .بقي وحيدا يصرخ من الجوع طوال الليل . جلبته الى

الداخل ومضت الى الخبّاز القائم في الزاوية واشترت له علبة من الحليب ، راحت تسقيه منها .

يود الابتعاد عن كل ذلك ولو شهرا واحدا ، ينام وحده في السرير ، يتقلب ، يأرق ، غير محكوم بايقاع شخص آخر يقاسمه الغطاء والمخدة ووقت النوم والاستيقاظ .يصنع وجبته بيده ، يخرج على هواه ، يغازل ، يتسكع ، يعود متى شاء الى البيت ، لاينتظره احد . يحب سهير ومي كثيرا ، غير انه في الفترة الاخيرة صار ينزعج من التصاقهما به .صارتا تطلبان منه تكريس كل لحظة من يومه لهما . يجلس في صالة الجلوس ، يقرأ كتابا ، تأتي سهير تستل الكتاب من بين يديه ، تطلب منه النظر اليها او مداعبتها او الحديث معها .حقيقة اذن ما قرأه عن طبيعة الحياة ، فالاجيال القديمة ينبغي لها ان تتنحى للاجيال الجديدة .تتنحى جسدا وروحاً وعقلا ، تكرس كل شيء لاستمرار الحياة ، هذا بالضبط ما كان يرعبه .لا يرغب ان يكون مثل عقرب يأكلها ابناؤها ، يود ان يعيش حياته بمتعة ورغبة ومغامرة واكتشاف مغزى وجوده ، لم هو هنا ولأي غرض جيء به الى هذا الوجود المصنوع من نجوم وأشجار ومياه واصوات واعضاء جنسية وخبز ودموع؟

لا يرغب بضياع حياته من اجل اي كان ، الحياة توهب للبشر مرة واحدة .حتى الحب الذي كان يشعر به تجاه تاتا تلاشى في زحمة الحياة اليومية . طهي الطعام ، شراء الحليب ، تجهيز الكاكاو والحليب قبل النوم ، تحميم الطفلتين كل ليلة . تنظيفهما . تأمين الملابس الدافئة والتحرك بهدوء لأجل ان لا تستيقظا .في الصباح يصعب نيل الكفاية من النوم لانهما تفيقان باكرا . تخلقان ضجة غير عادية في الصالة .تاتا لا تكترث كثيرا للضوضاء والعمل اليومي ، انها تستمتع بذلك . بدأ يراقبها خلسة . لاحظ انها تقوم بأعباء المنزل مثل من يصلي . تحول البيت الى مكان للقيام بطقوس لاتتغير . . . . .

٢

لا عصافير تغرد للفجر .لا يسمع شدو كنار او بلابل او عصافير ، كما تخيل .ربما تغرد لكنه لا يسمعها ، بسبب اغلاق البلور وسرعة السيارة المتجهة الى مدينة مرّت عليها اعوام من النسيان .

يوكالبتوس وأثل ، آس ودفلى ، كروم وتفاح .اشباح فلاحين استيقظوا من غبش نومهم وهاموا خارج البيوت لتفقد البقر والدجاج في اوكاره والماعز داخل اسيجة الخشب والقش .فضي هو الفجر ، في اول يوم له في دمشق ، يذكّر بفجر ولادة سهير قبل ثلاث سنين ، في مستشفى غذ أوه .

كانت الاشياء باسمة ، الاشجار ترتشف الحب الالهي المتقطر من سماء صافية لا يسبر غورها .لم يسمع وقتها اي شدو لعصفور او طير ، وهو ما استغربه حين نوّر الشباك .سهير نائمة على بطن امها ، كما اوصت المرضة .تاتا نائمة في السرير ، كان هو يقظا ، يتطلع في اول فجر عاشه كأب .فكر ان يزف الخبر الى اهله ، لكن كيف؟ واتته الفكرة وقتها ، بعد ذلك المساء الذي رأى فيه واحدا من اللبنانيين يتلقف التلفون بلهفة وشوق

ليزف البشرى الى اهله في بيروت .كان صوته راعشا ، خائفا ، حين اخبرهم انه صار ابا لصبي .لكن كيف يتصل بأهله وهم في مكان ناء ؟ الخطوط عاطلة والحرب لم تلم ذيولها والايام تكر ، بقلق وتوجّس والبشر يفرون الى دول الجوار .

حمرة الشروق تلوّن الشوارع البعيدة ، والبنايات بدأت تكشف نفسها والسيارات تتكاثر لحظة بعد اخرى .صاحبه السوري صمت منذ برهة ، لا بد انه نائم ، رأسه كان مائلاً الى الباب . غاب السائق في تأملاته .يشعر بالتعب ، لا يستطيع النوم .الاثارة اكبر من تعب جسده .لا يريد ان يترك منظرا او شجرة او شارعا .يرتشف دمشق حجرا حجرا وصوتا صوتا . شعاعا شعاعا وجبلا جبلا .من بعيد صار قاسيون يلوح لعينيه .احمر ، اجرد ، ناتئا فوق الابنية والمآذن والقباب ، يمتزج في سماء كأنها درة .

يود لو يلتهم الخيار والباذنجان والباميا ، الخشب والحديد والزجاج . يستمد منها القوة على التوحد في هذه الارض التي يحبها .يصير جزءا من دورة الموت والحياة فيها ، رغبة ملحة نمت معه منذ الطفولة وكان التراب مادة لاشباع حواسه ، اما الحجارة الصغيرة فكانت تشعره بانه جزء من صخرة هذا الكوكب الدائر منذ الازل .يتوحد بالمقود وصديقه السوري والسائق واعمدة الكهرباء والاعلانات المزروعة على جنبي الشارع ،والمدينة التي يكاد لا يتعرفها ثانيه . تغير شيء ما فيها . يتطلع فلا يستطيع معرفة ذلك .بنايات وشوارع وجبال ، لا يستطيع قراءة ملامح دمشق من جديد . من تغير هو ام هي؟ سؤال لم يستطع الاجابة عنه حتى وقوف السائق في ساحة المرجة .

تلك هي المرجة اذن؟

قال صاحبه انه سيمضي الى اقربائه لينام عندهم .عرض عليه مرافقته ، فشكره على العرض .قال له :سأجلس في المقهى الى ان تشرق

الشمس .ثم مضى الى اقرب مقهى .

امامه مطعم ومشرب الكرنك . اختار طاولة في الواجهة . جلس على الكرسي ثم وضع حقيبته الوحيدة قربه ولاحظ الجالسين يتطلعون فيه باستغراب . الدكاكين مغلقة ، اعلانات البضائع مضاءة وهواء الصباح يداعب وجهه ، هابا من بردى والحديقة المجاورة التي لاحظ خلوها من الناس .ثمة بشر يتمددون على العشب ، جنود او مشردون او مسافرون انقطعت بهم السبل .سيارات التاكسي تجول في الشوارع تترصد زبونا . هنالك عطر خفيف في الجو ، اعاد اليه ذكريات قديمة نسيها ، انه فصل الياسمين في دمشق . مياه بردى تتلاصف من بعيد ، اشبه بمرآة عملاقة ، ود لو يخلع ملابسه ويقفز في الماء ، مثلما كان يفعل ايام طفولته .تخيل البرودة ، والقطرات تحيط بجسده ، حيث يسافر الى تحت ، في عمق الارض مختلطا بالعيدان المقصوفة والاشن والطحلب المجلوب من الجبال والوديان واعماق الارز .يتخيل نفسه في ظلمة والظلمة ذات رطوبة رهفة ، تتزلق على جلده الجذور الرخوة والضفادع والديدان الخيطية والنفايات .

برج الاسمنت الاسود ينتصب كأنه مارد ، يحمل في رأسه بناية محطة او قصرا بطراز ليس قديما ، سيسأل عن سره في الايام القادمة .لا يتذكر انه كان موجودا قبل عشر سنوات .هل كان موجودا؟

البنايات العالية طوقت الساحة ، فندق وعمارة وبناية غير مكتملة ، فنادق ترصع واجهاتها اعلانات بلغات اجنبية وصور واسماء اطباء ومحامين .اصبح في الوسط ساحة مشجرة خضراء ، وفي المنتصف النصب الاسود القائم على عمود يطل على الساهرين والنساء والشوارع .في المقهى عدد من الرجال يرتدون كوفيات يتكلمون لهجة بدوية لم يسمعها منذ اعوام طويلة وود لو يمتد الوقت ، وقت جلوسهم وارتشافهم الشاي بصوت مسموع ، الى الازل . ذكره الجرس والكلمات والمصطلحات بأيام الطفولة ، الحياة البسيطة التي وجد نفسه فيها .جاسم العكران ، عناد ، سعيد

الوزان ، محمود الساعي ، جده ، اسماء تطل بملامح واضحة ، كوفيات ودشاديش وعقل واحذية حمر وسراويل طويلة من البوبلين ، لكن ذلك كان عالما مرت على اندثاره عشرات السنين .

انه اليوم في الثلاثينات من عمره .لكنه لايزال يعد روحه ذلك الشاب النزق المراهق الباحث عن المتعة .لايهم ان كانت هناك شعرات بيض في رأسه .قالت له تاتا انها رمز الوقار . قال لها اننا نقترب من الشيخوخة لكن لايهم .سأظل شابا حتى لو بلغت المئة .تاتا كثيرا ما قالت له انك محظوظ ، اسنانك جميلة وقوية ، جسدك عامر وخال من الامراض ، شعرك اسود فاحم يخلو من الشيب ، و تفسر ذلك بنشأته الطبيعية ، وابتعاده عن اللحوم والمآكل المعلبة .

في الجو الفة تشيعها حوارات الجالسين .اصوات اباريق الشاي والاقداح والملاعق .وجوه كلسية حادة ، صارمة ، عيون نفاذة تعري الانسان وتدخل دون اذن الى اغواره .يغض البصر حينا وحينا يواجه النظرات بأخرى مثلها . يخفق دائما .لايستطيع مجابهة عرنوس الذرة وفراسة الذئب وخشونة القمح وجريان المياه وبرودة التراب ، نظرات مصنوعة من كل ذلك .اخبروه في بداية وصوله الى الدغارك ان التحديق في العينين غير مرغوب ، فالاسكندنافي يمقت نظرة الغريب الثابتة ، وتلك عادة توارثوها منذ الفايكنغ .خاض اكثر من شجار بسبب ذلك .اذ بقدر ما يخشى النظر في العيون ينجذب اليها ايضا ، دون ارادة منه .ربما الفضول ، فالعينان نافذتان مشرعتان دون رتاج .

الاشعة الحمراء تتسلل الى اعلى المباني ، على برج فندق الشام ، والبيوت البعيدة اللاطية على سفح قاسيون . الحمامات بدأت طيرانها في الفضاء ، بعيدا عنه ، اجنحتها حلمية ، الوانها حمر وزرق وصفر وبيض ، انها شمس دائرة فوق هذه المدينة .في كوبنهاغن رأى الكثير من الحمام ، لكنه لايطير رفوفا في السماء .يتجمع في الساحات وعلى ضفاف

البحيرات وفوق سطوح البيوت .لايتذكر انه رآه يطير كما في دمشق .هل هو الدفء؟هل هو ايقاع روح المدينة ، ايقاع بشرها وحيواناتها وديدانها وهوائها وابنيتها وشوارعها وضيائها؟

شاي حلو ثقيل ، شرب منه ثلاثة اقداح ، احس لمذاقه طعما يلتصق في بصيلات اللسان .

الشمس في مكان ما ، خلف فندق عال لايراه . هلت من غوطة العنب والمشمش والدراق . ثمت غربان زرع داعبت اشعتها صعودا في الفضاء ، وسط فسحة الحقول الممتدة حتى الصحاري .يوكالبتوس ودراق ومشمش .السويداء ودرعا والسلمية والميادين ودير الزور والبوكمال . حديثة وعانة وهيت والرمادي نزولا مع الفرات الى الفلوجة ثم الى مقبرة الشيخ ضاري . بغداد لاتبعد سوى الفي كيلومتر من وسط ساحة المرجة التي يجلس فيها ، منتظرا طلوع هذه النجمة ، طلوعا كاملا وسفرها في الفضاء باتجاه قاسيون . في الروضة يجلس ابو حالوب ، منتظرا .انه ينتظر منذ عشرين سنة ، ينتظر شيئا يغير حياته ، شيئا لم يحدث لحد اللحظة .هل يفكر ابو حالوب به الآن؟ تخاطرمثلا ؟ . . . من يعلم !!

كثر البشر . ازدحمت الشوارع بالسيارات . موظفون وطلاب وكادحون ، والياسمين يدرج بأوراقه البيض في شارع المحافظة والعابد وركن الدين .عليه ان يمضي الى مقهى الروضة ، هناك يجلس ابو حالوب دائما . هذا ما اخبره به الاصدقاء الذين زاروا دمشق قبل اليوم .سيفاجأ عند رؤيته ، لايمكن ان يكون قد تغير الى الحد الذي لن يتعرف عليه .

يرغب ان يرى السوق الخلفي لساحة المرجة ، لقد تذكره جيدا . كان مجمعا للخضار وباعة اللحم المشوي .يسمع صراخ قطط قادم من هناك فيتذكر بيليه .اوصى نعيما ان يعطيه كل يوم علبة من الطعام اثناء غيابه عن كوبنهاغن .اشترى اكثر من عشرين علبة بمختلف الاحجام ، وضعها في المطبخ مع الفتاحة .القطط هنا برية لا احد يطعمها .ماذا لو كان القط

بيليه معه .سيفرجه على اقفاص الدجاج والارانب والطيور الملونة في شارع الطيور .يريه السلاحف المحشورة في الاقفاص والببغاوات والديوك الرومية ، ماذا ستكون ردة فعله ياترى .هل يحتمل مشهدا ضاجا مثل هذا؟ وسهير كيف تجد نفسها في الساحة؟ريش عائم في فضاءات الشوارع ورائحة زنخة تصدر من الازقة وعربات القمامة تكرج على الاسفلت .قال لنفسه : انت في ساحة المرجة ، فيها تجد تسليتك كلما احسست بالوحدة .

شعر انه آن الأوان للمضي الى مقهى الروضة . اشرقت الشمس وهدلت الحمائم في اعلى البرج ، واكتسى قاسيون بطلاء احمر راح يشف برهة بعد اخرى .ذهب في الاعالي ، عاصفة من حمام وياسمين على الارض .التعب في جسده والنعاس يطبق على العينين .وهج الضوء لم يعتد عليه ، والالوان تفقع اكثر مما يحتمله .

عليه ان يستأجر اليوم بيتا . ابو حالوب يعرف الاسعار . الطريق من المرجة الى شارع العابد معبأ بالنظرات والوجوه والاسئلة .

كان يمشي على مهل ، تلاحقه عشرات المزامير من سيارات فارغة ظنته زبونا .لايريد الركوب ، يريد التمتع بالمشي بعد ساعات من الجلوس في الطائرة .دمشق تلتمع بالصباح ، دمشق تحتضنه باذرع من جسور مشاة معلقة وآس وكناسين وباعة فول استيقظوا توا وشرطة انيقي الملابس يتمشون ثللا في الشوارع وحمام يطير في الفضاء المحصور بين قاسيون والمرجة .

راحت الحرارة تزداد باضطراد .شيء غير مألوف ، حرارة نسيها . انه يتمتع بها .يتمتع بهذا الفرن الجميل المصنوع من اسفلت وشمس .تاه في الشوارع ولم يقع على ضالته .اين الروضة ، اين ساحة الميسات ، اين الندوة التي كان يقضي العصاري فيها متأملا التكية السليمانية والقباب البيض والمآذن التي صممها سنان باشا؟ اسماء في ذاكرته لم يعد يستدل عليها .لايريد ان يسأل ، احس بالخجل من السؤال ، انه يفقد الذاكرة .عشر

سنوات فقط . حكى لتاتا بالتفصيل عن دمشق .كان يلذ لها ان تسأله وهما في السرير عن مغامراته النسائية ، ودمشق من بينها . يسهب بالحديث عن هذه المدينة التي علمته فنون الحب والقبل والشراب المعتق والغزل دون رقيب .وصف لها الشوارع والسهل والغوطة والمقاهي ، كيف يقضي وقته والاعمال التي مارسها .كانت تطرب لهذا الماضي المندلق امامها مثل سيل .

حكى لها عن علياء ومغامراته معها ، تسكن في باب توما ، وتشتغل معه مهندسة في شركة البناء .طويلة ضامرة عيناها سوداوان جيدها اتلع وشعرها سبط واسنانها طويلة منفرجة وجسدها رياضي لكنها ليست جميلة .جذابة لعينيه ، احب فيها عذوبتها ، هو يحب المرأة العذبة ، تاتا لم تكن عذبة بل رؤومة .

اين علياء هذه اللحظة ياترى؟ الازالت تسكن في باب توما ، هل تزوجت ، هل انجبت اطفالا؟هل يعرفها ان رآها الآن؟ هل تتذكره؟ حكى لها عن أمل وعلاقته التي استمرت ستة اشهر ، وكانت علاقة جنسية خالصة .تزوره في بيته ، يقبلها ، يضاجعها ، بعد ان يغلق الابواب ، كانت تصدر اصواتا وشخيرا ومواءات يخاف ان يسمعها جيرانه .كانت بكرا ، هي المرة الاولى التي يضاجع فيها فتاة بكرا .لم يغامر بفض بكارتها .ماذا عمل بها الدهر بعد هذه السنوات؟ وكانت تاتا لاترتوي من حكاياته مع النساء . . . .

٣

كان اول شيء لفت نظر تاتا لون بشرته الخمري ، رأته مرة في مدرسة اللغة يرتدي قميصا من القطن احمر ، واقفا بين مجموعة من الطلبة الاجانب متأهبا ، صدره مندفع الى الامام ، عيناه حادتان رغم صغرهما ، فقالت لنفسها هذا هو الرجل الذي ابحث عنه .دخلت معه في حديث طويل عن الشاي الذي تقدمه المدرسة لطلابها وكيف يعيش الاجانب في هذا الصقيع وحياتها الكئيبة . كانا يتخاطبان بالانكليزية ، وفي ثانية خاطفة رأت في رفعة كتفيه انتشاء غير طبيعي بالحياة ، يشبه انتشاء نمر متحفز سينقضُّ على طريدته .وتلك مواصفات تعجبها في الرجل وتستثير فضولها للخوض معه في حوار او لقاء ، اضافة الى الجبهة المرتفعة الدالة على شخصية متكبرة ، تحترم نفسها ، عزيزة الروح ، عنيدة تصل الى ماتريد مهما كانت العواقب .

كانت كثيرا ما نفرت من رجال التقتهم بسبب اكتافهم المتهدلة ، التي تجعلهم يشبهون الشمبانزي ، وكأن ما يعتمل في الروح سرعان ما يظهر

على اعضاء الجسد . رجال بهذه الهيئة عادة مايكونون خائفين من الحياة .انها تحب تشبيه البشر بالحيوانات ، واكثر ما احبت الفصيلة القطية ، لانها تقفز الى هدفها دون تفكير ، وكان هو كذلك .

التقته ثانية في مقهى الحذاء الصيفي وسط كوبنهاغن ، بعد يومين فقط من رؤيته في مطبخ المدرسة . كان لقاء عاصفا خاطفا ، لازالت القبلة الفراشة التي اختطفها منها عالقة على خدها حتى لحظة سفرها الى البرازيل .كثيرا ما احست بها ترف فوق الخد ملونة راقصة .احبت فيه وضوحه ، خاصة في مجال العواطف . انه يعبر عن احاسيسه بفعل يرج ذهن المرأة ، يطوقها بكلمات تستهدف القلب ، تستقر فيه مثل بذرة حية تتفتح لقاء بعد لقاء .زمّة شفتيه اكثر ما لفت نظرها في وجهه .

كانا يقفان على ساحل بحر الشمال ، قرب بيته ، والجو عاصف والامواج تتدافع حول الصخور ثم ترش الفضاء برذاذ ناعم ، يصل احيانا الى وجهيهما .ثم ذلك بعد اسابيع من تعارفهما .رأت فمه شهيا ، مثيرا ، نهما للقبل حازما في الكلام ، يترك المبادرة لها في اتخاذ القرار الذي يريد ، واكثر ما استوقفها فيه تلك الصفات الرجولية السائرة نحو الاندثار .ربما هي سبب الغنائية العالية في التعامل مع الجسد ، واكتشافه لزواياه ، حين يضيؤها بعينيه ، يتحسسها مثل التحف النادرة . مفسحا وقتا لأجزائه كافة ، يلم بشفتيه اصابع القدم واحدا واحدا ، ينثر القبل على زغب الظهر ويودع بعضها في ثنايا الساقين وعلى سفح الوجه . يرقص على البشرة رقصا صوفيا يحمل الجسد المنتفض بين ذراعيه الى سماوات الحلم . يطير دون جناح ، ويتوهج دون نار .تغريه التفاصيل كثيرا ، وذلك يبعث الجنون في جسدها ، جنون النشوة المطلقة التي لم تبلغها مع اي رجل قبله . . . .

كان يغازل باللمس والضم ، يبتعد عن الكلمات التي لاتعني لها شيئا . قاموسه مبني على لغة الجسد بين الضغط والرص والضم والتقبيل

والشم والعض والدعك . لسانه الاصابع والبطن والفم والساعدان والعينان والانفاس .يشعرها ان جسدها معبد مقدس ، يدخله بخشوع ورهبة ، كل مافيه الهي وشائق .لم يكن مهتما بأهوائها الآنية ، ولم يكترث لخطابها الملغز ، بالغزل الذكي ،كالكلام والملاسنة والغزل . كان يدير ظهره لذلك كي يغور الى اعماق الروح ، نابشا عن حاجاتها . لم يعد يمثل عندها الذكر الذي تعرفه النساء ، بل الرجل بكل ابعاده .جعلها تحب جسدها ، تحترم تفاصيله ، اشعرها بأهمية كل زاوية من زواياه . كان جسده هو الجسد الذكوري الاول الذي اكتشفته بحب شديد ، لامسته باصابعها ، بعد ان عاشت عمرها غريبة عنه ، تخشاه ، وتخشى عريه .

تقعر الوركين عند المضاجعة ذكرها بالتماثيل اليونانية التي رأتها في متحف سانباولو قبل عشر سنوات . صلابة على سمرة واستدارة لطيفة تملأ الكف ، الجسد الحبيب المتأجج بحرارة البركان داخله ، حرارة الروح التائقة الى الجميل والمثير والحي .

لا تذكر يوما انه تركها دون انتشاء كامل ، لم ينصرف ذهنه عن جسدها اثناء الممارسة ولا مرة واحدة . متعته في ان يراها طائرة محلقة في ضياء الرقص بين جسدين متعانقين ، تشدهما الى لحظة الغياب اواصر غير حركات الجسد .تتحول بين يديه الى كائن ضوئي ، شفيف ، يروم العودة الى اصله الالهي المتحدر من الآفاق التي لاتنتمي الى الارض .

كان يستغرق بتقبيلها ، يراقبها ، تشعر بذلك ، تنسيها تحليقاتها في عالم الخيال نظراته ، المنغلة في وجنتيها وعينيها ، في حاجبيها الكثين وجبهتها الواسعة القمرية التي تعبر فيها غيوم الخيال والرغبة ورفيف الروح المحلقة خارج الغرفة .كان ذلك في البدء ، تسائل روحها لماذا يحدق فيها هكذا ، لماذا لا ينصرف الى نفسه ويتركها ، هل يجد لذة في مراقبتها؟ الى ان صارت حاضرة معه ، كفت عن الهروب الى عالم الخيال ، ارجعها ، بحضوره الكثيف ، الى وجود اللحظة ، فأصبحت موجودة هي الاخرى ،

اصبحت النشوة اكثر عنفا .

يهتز جسدها ، يتوتر ، يتقلص وينقبض ، تتفجر دواخلها بالالم واللذة .تنتفض مثل طير ، ترفرف في برزخ بين جنة ونار ، تود لو ترشق تلك اللحظة بماء الخلود .اي قيعان بعيدة كانت تهوي اليها في دواخلها ، وأي مغاور وكهوف وانحدارات وحيوات تجدها لحظة الانفجار .بحار من مياه وأسن واسماك ، صخور ملونة تعشقها ، حبات رمال ملونة وطبعات اقدام وسفن عابرة الى جهات لا ارضية ، وأطياف ترف على وجه الماء وعنفوان اضواء وانعكاسات غير مفهومة ، هو السحر بعينه .كانت تخاف ان تفقده ، بعد ان وجدته ، وجدت الجوهرة التي قضت عمرها في البحث عنها ، وكانت تقول له بعد كل مشكلة تحصل بينهما انها لن تلقيها من يديها ، ليست على هذه الدرجة من السذاجة ، كي تستبدل جوهرتها بالذهب .لم تعتقد يوما ان ثمة بركانا عنيفا يختفي في جسدها ، وانه سيثور في كل خلية من خلاياها .

معه تخلصت من كثير من الاوهام ، جعلها اكثر واقعية في التعامل مع الاشياء والحياة . اصبحت تجد في احضانه امانا مطلقا ، تحس ما ان تكون بين ذراعيه انها كمن يصلي ، حبه صارعبادة لديها ، ايقونة ملونة لاتمل النظر فيها ، الى ان اتخذت قرارها في ان تجعله ابا لأطفالها القادمين .

وهكذا كان ، حيث نمت سمارة في الرحم ، بعد سنة من الزواج ، هيأت لنا الملابس ، السرير ، والاسم ايضا ، وكانت شهور الحمل مكتظة بالاحداث ، والاحلام . . . . . والالم .

٤

يتذكر كيف جاءت السيارة من باب المقبرة ، وامسك يد تاتا يشجعها على احتمال المشهد .كانت تسير ببطء ، وكأنها تقدم آية الطاعة للموت .الموت له جلال .اخرج رجلان اشقران التابوت الصغير من مؤخرة السيارة ووضعاه على الارض . لم يكن يتصور انه سيدفن يوما ابنته البكر في هذه المقبرة . المقبرة نفسها التي طالما زارها في الشتاء وكانت شوارعها تختفي في الضباب واغصان اشجارها اشبه باصابع عملاقة يطوقها الصقيع . كانت تاتا تكره المرور عبرها ، تقول له انك تعشق الموت اكثر من الحياة .

التجول في هذه المقبرة وقراءة اسماء الاموات واعمارهم ومن اي بلد هم ، كانت واحدة من هواياته . كان يعتبرها حدائق تمتع النظر ، ويلتقي فيها وجها الحياة : الموت والولادة . هنا ايضا دفن الكاتب هانس كرستيان اندرسن والفيلسوف الوجودي سورن كيركغورد .هل هي الصدفة؟ كثيرا ما وقف امام قبريهما متأملا الشاهدتين ساخرا من هذه الحياة

الغريبة . راوده حلم الوقوف على قبر كيركغورد حين كان في بغداد . اما قبر اندرسون فيتخيله حاشدا بالفتيات الصغيرات والاسماك المتكلمة والبط البري والاباطرة العراة ، ولم يتخيل ، وقتها ، انه سينتمي الى عالم الدنمارك ذات يوم . اسم ابنته مدون على الشاهدة واسم عائلته ايضا .سيأتي ، بعد يوم ، بعد سنة ، بعد عقد من السنين ، بعد قرن ، شخص من اصقاع الارض ليتفرج على هذه الاعجوبة . مسلمون في ارض الجليد ، ينامون على انغام الروك ، وطبول الفرقة العسكرية التي تجول الشوارع مع ابواقها وصناجاتها ونایاتها!!

قال واحد من العاملين ، وهو يحدق فيهما بتردد ، بعد ان رأى الشلل المستولي عليهما في حضرة التابوت :

- نحن لانعرف الطقوس ، لكن هل تصليان عليها؟

- لايهم ، صلينا قبل ان تصلا .

انبعثت في ذهنه ايام القلق ، البكاء ، الليالي التي قضاها في البيت وحيدا اثناء وجود تاتا في المستشفى . اوشك ان يخبر الرجل انه صلى دموعا على ابنته البكر لكنه احجم وسكت ، عابس التقاسيم .

- لا استطيع رؤيتها اليس كذلك؟سألت تاتا .

- كلا ، التابوت مغلق ، سيدتي .

- ضعاها في القبر اذن .

نزل الرجل الى الحفرة واحتضن التابوت الصغير بين ذراعيه وركنه بتؤدة في القعر . عدل من موقعه ووسده على ارضية ممهدة من الطين الاحمر ، كأنه ينجز عملا يتطلب مهارة وذكاء ثم خرج بحذاءين موحلين .ستختلط في تلك الحفرة الصغيرة عناصر خرجت من صلبه مع مخلوقات الارض السادرة في ظلمتها .سينام في مكان شبيه ذات يوم ، لايعلم اين يكون ، لكنه يود الا يكون هنا .الارض باردة والهواء جارح والجهات غريبة .لكن ، رغم كل ذلك ، فالارض هي الارض ، عليه ان يتفهم هذه الحقيقة

جيدا .عليه ان يكون هو نفسه اينما حملته الريح ، ذرة من هذا الكون ، وصفحة مكتظة بالأسئلة والمتع والأفكار .

كانا يقفان وحيدين متلاصقين تحت شجرة عملاقة مزروعة قبل عشرات السنين ، رأت بعيونها المليونية بني البشر يوسدون التراب ويبكي بعضهم على بعض ، يقدمون الزهور ويسقون تراب القبورالمعشبة . طلب العامل منهما ان يرشا القبر بتراب ويمضيا . من التراب جئنا والى التراب نعود ، بعد ذلك سينجزان عملهما على مهل . قالت تاتا اقرأ الفاتحة بصوت عال . تاتا لا تتكلم العربية .قرأ الفاتحة وتناول قبضة من التراب اسقطها على الخشب المدهون بالورنيش الذي احال لونه الى القهوائي . راحت تصلي وهي تحدق بالتابوت ، صلاة خافتة ، مزيجا من الأدعية المسيحية البروتستانتية والبوذية . شفتاها ترتجفان ، الدموع تتساقط من رموشها السود على وجهها الصغير .

غربته المتلامعة قطرة ندى على غصن جوز في هذه المدينة المعبأة بالجمعة ، المحشوة بالسجق . هاهو يخلف جزءا منه في التربة الصقيعية الباردة .منذ اللحظة عليه ان يفكر بهذه المقبرة حتى آخر يوم من حياته .يحملها في صدره بسروها وجوزها ، صفصافها وياسمينها وثيلها ، صلبانها واهلتها ، رفاتها واصصها .سرب من النوارس البيض كان يعبر فضاء المقبرة متجها الى كرستيانيا ، نحو البحيرات المكتظة بالاسماك الصغيرة والاشن وفتات الخبز المتساقطة من صيادي السمك والبط .

– لا اريد ان ادفن في الارض .اذا مت عليك ان تأخذني الى المحرقة .قالت تاتا .

– انني احترم وصيتك ، لكن اذا عشنا في بلد اسلامي فمن الصعب تحقيق رغبتك .

تلك صورة بعيدة ، غير انها حاضرة في الرأس . يعود اليها كلما دخل في ازمة تلامس جوهر وجوده الشخصي .كأنها لحظة من لحظات حياته

الهمة التي غيرت روحه كلية . نقطة تحول وعلام تأتيه مثل مصباح في ليل دامس ، مشعشعة هادية بعيدة .

بعد سمارة جاءت سهير ، جاءت انتقاما من الموت ، ثم بعد فترة قياسية ولدت مي .لم تراوده فكرة الحصول على صبي ، فهو يفضل البنات على الصبيان .الم يربِّ كثيرا من الاخوات والاخوة قبل مغادرته البلد؟ ماحاجته للاطفال ، الم يوافق على الاحتفاظ بالحمل اكراما لتاتا؟ كانت توشك على الدخول في السنوات الحرجة للحمل .

مايراه الآن مختلف تماما ، ثمة حياة في الهواء ، في سحنات البشر ، في ضوء الشمس المنعكس على ذرى الاشجار وواجهات الابنية .الارض ساخنة ، فيها يصبح الموت ، كما فكر ، متعة هائلة .لو كانت تاتا هنا لفضلت الدفن هنا على الحرق .انها تعشق الدفء مثله .

٥

صبايا يمرقن امامه ، ورجال متأنقون .العطور الشرقية تسبح في الجو ، تنغل في خياشيمه ، والعيون السود تنفذ في قلبه ، والشعر الاسود يتطاير مع نسيم خفيف كان الصباح يرشقه في وجوه السابلة .كيف يعيش كل ذلك بعد هذه الفترة الطويلة؟ كان يحس بجاذبية غير طبيعية الى امرأة ، تتكلم لغته وتحمل دمه .لم يعد يتذكر مذاقها ولا حرارتها ولا دفئها . اصبح ذلك ذكرى بعيدة ، ذكرى كثيرا ما كانت ترد اليه حين يضاجع تاتا .يتخيل امرأة غيرها ، امرأة تنطق بلغته الداعرة ، المتحسرة ، المتأوهة .

لاشقرة هنا ولا احد يلتفت الى شكله الا عرضا . انه سمكة بين ملايين الاسماك ، في قاع بحر من اشن وزمرد ومرجان . واحد من كل ، شعر اسود ولون اسمر وعينان سوداوان .ثمة القليل ممن يلمح في وجهه تعابير المغترب الذي عاش في بيئات أخرى ، يرمقونه ويمضون ، لايلتفتون له .على الارصفة آس ، وفي وسط الشارع اشجار نضرة تنتصب وسط الجزرة المعشبة .

يمشي دون عجلة . ضايقه الحاح سائقي التاكسي ، لايومئ لهم لكنهم يقتربون منه اكثر من اللازم .صار يلعب معهم .يظل يتطلع في السيارات حين تقدم .يظن السائق انه يرغب باستئجار سيارة .يبحلق بالسائق ويقف بعضهم ثم يقول لهم انه لايرغب بالصعود .يلمح الخيبة في الوجوه .تسلى بذلك كثيرا قبل ان ييأس من العثور على مقهى الروضة . الشوارع لايعرف تقاطعاتها ولا اسماءها ، يحفظ شارعا اسمه العابد فقط .لكن اين هو؟ نسي التفاصيل .اصبحت الاشجار اكثف في المدينة والاسفلت اكثر نظافة والبشر رقيقين .نفحة رطوبة تشيع في الجو ، هناك سيارة رش في شارع مواز . كاد ان يضحك ، فهي المرة الاولى التي يرى فيها رش شارع منذ ان غادر سورية .لا احد يرش الشوارع في اوربا ولا في البرازيل .المطر في كل مكان .المطر في الصيف والشتاء ، في الخريف والربيع .

الشوارع ما عاد يتذكرها جيدا ، لا الطريق الى مقهى الروضة التي يجلس فيها ابو حالوب ولا شارع العابد . اخذ يسأل مارّة الصباح عن المقهى فقال له احدهم انها في الشارع المليء بالاشجار ، واشار الى شارع بعيد امامه ، لكنه حين وصل الى الشارع لم يهتد الى المكان .امن المعقول ان المدينة تتغير بهذا الشكل في غضون اعوام؟ دأب على الجلوس في الندوة ، عصرا على طاولة ، وحيداً او مع ابي حالوب ، يلعبان الشطرنج وحين يكون وحده يقضي الوقت محدقا في القباب الواقعة تحته .التكية السليمانية بمآذنها الرفيعة المشوقة وقبابها البيضوية التي تشبه لعبة اطفال تختبيء هناك تحت اشجار اليوكالبتوس والصفصاف . التكية تمتلئ بالحمام ، في العصر ، وحين تخف حرارة الجو ينسرح من الاغصان نحو فضاء دمشق ، يبصره يحلق بعيدا باتجاه المطار ثم يعود نحو قاسيون وبعدها الى الغوطة ، باشكاله الملونة الساحرة .كثيرا ما رغب ان يكون حمامة ، يطير الى البلدان القصية باحثا عن حياة اخرى اقل عناء ، يتخيل نفسه في جزيرة دائما .لايعرف لغة سكانها ، لايعرفه احد ولا تربطه علاقة قرابة

او صداقة بأحد .والغريب ان ذلك حصل له بعد اقل من سنة فقد هاجر الى الدنمارك ذات العدد الهائل من الجزر ، الكبرى منها ثلاث تقع كوبنهاغن العاصمة في احداها .في دمشق اشتغل في قطاف التفاح والمشمش والفواكه ، في المزارع المحيطة بالمدينة . يفيق باكرا مع آخرين ، يركبون حافلة صغيرة في قسمها الخلفي المكشوف ، يذهبون بعدها في الشوارع الفارغة ، ثم تشرق عليهم الشمس في المزارع .حين يفكر بذلك الآن يجده شاعريا وجميلا لكنه كان في ذلك الحين باعثا على الضجر والتعب .

لابد انه تجاوز الندوة ، دون التعرف عليها . يتغير المكان بسرعة ، خاصة لمن يبتعد عنه .فكر ان المعلم الوحيد الذي لم يتغير هو فندق الشام فوضع برجه نقطة علام لتوهانه الصباحي في قلب دمشق . تلك واحدة من متعه ، ان يتوه في المدن ، مارس ذلك في سانباولو وبغداد ودمشق ولندن وهامبورغ ، لذة عظمى يجدها في ضياعه الخدر بين بشر لايعرفونه وبنايات مغلقة وشوارع لايعرف اسماءها وعربات تمضي الى المجهول وحوارات لاتقصده ، ولا يفهمها احيانا .

انعطف من رصيف نادي الضباط الى اليمين . سأل شخصا يحمل حقيبة انيقة ، له ملامح جادة ، عن المقهى .أجابه اليس هو الذي يجلس فيه اهل الجزيرة؟ قال من هم اهل الجزيرة؟قال ابناء الدير والبوكمال والحسكة ، الذين يتحدثون مثل البدو .قال له نعم والعراقيون كذلك .قال له انها هناك اذن .

اشار الى الواجهة الزجاجية ، في الجانب الثاني من الشارع .تلك هي مقهى الروضة اذن .احس بفرح غامر ، كمن وقع على كنز .للمرة الاولى تصبح الحقائب بلا وزن ، الاشجار تزدهر بالاوراق والصباح يحلق عاليا مثل رف من العصافير .

كم حكاية يثير في ذهنه هذا المقهى وكم قصة؟انها قصة المقهى التي

كانت يوما محطة لكل الذين مروا بدمشق .جاءوا من كردستان ، بعد تجربة طويلة من العيش في الجبال . من الاردن بعد هروبهم عبر الحدود .من هنغاريا وبلغاريا والمانيا الديمقراطية والاتحاد السوفيتي . المقهى نقطة تجمّعهم اليومية ، فيها ينظمون شؤون رحيلهم الى محطات اخرى وفيها يستدينون خبز يومهم او يبحثون عن عمل او عن مزوّر مكين يضبط لهم جواز سفر للنفاذ عبر المطار الى دولة تمنحهم حق الاقامة .وجوه لاتزال ملامحها في ذاكرته .هي اليوم في اماكن لاتخطر على الذهن .سالم في هولنده ، سعيد في استراليا ، نوري في كوبنهاغن ، هاشم في لندن ، تيسير في البرازيل ، ودّ لو يلتقيه هناك حين سافر لكنه ، وكما علم من شخص يراسله ، يقيم في برازيليا وهي تبعد كثيرا عن سانباولو التي زارها مع تاتا .

المقهى تغيرت كثيرا .حالها حال دمشق ، فالبحرة جديدة وتلك السقوف المتحركة الحاجبة للشمس لم تكن هناك قبل اليوم .القسم الخلفي هو الآخر لم يكن موجودا قبل عشر سنوات ، مظلل بشجرة عنب يبدو انها زرعت قبل سنين ووضع للاغصان المزدهية بالورق الطازج الخضرة ، الخالي من اليساريع سقف من العوارض الخشبية لتستقر عليه وتشكل سقفا شجريا مريحا .هناك ايضا كبّادات غامقة الخضرة ، لايزال ثمرها اخضر القشر ، فيها تقطن جيوش من العصافير ، اصواتها طاغية على جو المقهى .

لايوجد كثير من الرواد في هذه الساعة من الصباح . ندل المقهى معتادون على الزوار من امثاله ، لم يعره احد اهتماما يذكر ، رغم مظهره الدال بوضوح على انه قادم من بلد بعيد . بارد ، وخال من الشمس ، هادئ كمقبرة ، اخضر كورقة فجل ، لناسه شقرة مثل شقرة التمور المشوية بالشمس التموزية .في غور السماء سنونو يفتل بسرعة ، على بلاطات الارض بقع الضوء المرقشة بالظلال .كي يزيل الضجر والترقب ترك حقيبته تحت نظر النادل ثم مضى لشراء صحف الصباح .

قهوة حلوة ذات رائحة ثقيلة ودخان وصحف .

عينه تنتقل كل ثانية الى الباب ، حيث مدخل المقهى ، الرواد يتواردون الى الداخل ، هذا يوصي على قهوة وذاك على شاي وقسم يطلبون اركيلة .لا احد يتطلع فيه .احس بالغرابة ، وكأن ضغطا زال فجأة عن جسده لكنه ظل يحتفظ بتأثيره . لم يكن في الدغارك انما في دمشق ، وهو هنا واحد من الجالسين ، يختلف عنهم ربما بطول الشعر وقسماته الهادئة بعض الشيء ونظرته المتريثة التي تعلم اثناء دراسته للعلوم الروحية ان يحتفظ بها مطمئنة مسالمة محبة للاشياء والناس والكون .لن يتذكره ابو حالوب بلا شك .سمن اكثر من ذي قبل واصبحت عيناه ارق وبانت آثار الاستقرار على وجهه . ثلج الدغارك وخضرته وهواؤه تركت أثراً ليس هيّناً على تعابيره وقسماته .لكن هل تغير هو؟ حدثه كثير من الاصحاب ان ابا حالوب صار يداوم في المقهى كأي موظف . يستقبل القادمين الى دمشق ، او يودعهم ، ينجزلهم معاملاتهم ، يرشدهم الى المناطق والحارات التي يقطنها الاصدقاء ، يوفر لهم عناوين معارفهم في كل بقاع العالم .

ابو حالوب هو الذي تعرف عليه .احتضنه بشوق وجلسا متلاصقين .لمح شعرات رمادية في شعره ، وغضون تعب ووحدة تحت عينيه . اخبره ان عادته كل يوم ما ان يدخل المقهى التطلع في الجالسين أجمع ، الجالسين في الداخل والخارج والباحة الخلفية ، عله يعثر على وجه اليف .قال انه علم بمجيئه عبر رسالة من شخص يدعى نداء .قال انه يعرفه جيدا ، ويلتقيه في محطة كوبنهاغن بين الحين والآخر .ابو حالوب لايزال كما فارقه : الوجه النحيف والشارب الطويل والنظارات المعتمة والكلام الذي يخرج من انفه ، الكلام غير الشخصي المتولد خلال سنين من كلايش الحوار واللاشخصانية في التخاطب والتعابير الجاهزة .استغرب كثيرا حين راح يسأله عن اشخاص يعيشون في كوبنهاغن او المدن الدغاركية الاخرى ، بل والحارات التي يقطنونها .كان ابو حالوب يحتفظ بدفتر

سميك يضم اسماء كل العراقيين الذين سافروا خارج سورية ، اسماءهم وعناوينهم ورسائلهم ، حتى صار البعض يسميه بالارشيف المتنقل .

- اين تود السكن؟ سأله ابوحالوب .

- هل يحتاج ذلك الى سؤال؟

- مساكن برزة اليس كذلك؟

- اجل ، كيف احوال العراقيين؟

- لم يبق منهم الا أنفار قلائل .كلهم هاجروا ، خاصة المحاربون القدماء الذين نعرفهم ، رواد الندوة والروضة ومقهى الحجاز .

- سمير وابو حنان لازالا هنا .

- انهما يبحثان عن وسيلة للخروج ايضا .

كان ذلك اليوم يومه فقط ، وظّفه ابو حالوب لايجاد بيت له في مساكن برزة . تركا الحقائب في المقهى ومضيا .ايجاد بيت هو واحد من الكوابيس التي طالما عاشها هنا . سكن في خمسة بيوت على الأقل ، يتذكرها جيداً ، الزاهرة ومساكن برزة وركن الدين ، غرفا وشقق ، وحيدا او مع آخرين .الدلالون يتقاذفون المرء فيما بينهم دون رحمة ، وكأنهم مكتب واحد لا عشرات المكاتب .في تلك الفترة كانت الغرفة التي اجرها في بيت ام حسن من اجمل الفترات . ام حسن لم تكن تسمح له بجلب فتيات الى البيت ، عندها فتيات ايضا لا تريدهن ان يفسدن . علياء تدخل البيت خلسة ، دون ان يشعر بها احد .فكر وهو يجول في مساكن برزة مع ابي حالوب ان يزور ام حسن ويسلّم عليها .يرى احوال الغرفة والحديقة الصغيرة المزروعة بالورود والنباتات والاشجار .لاتزال في خياله وكثيرا ما تذكرها اثناء حديثه لتاتا عن محطات حياته المهمة .وغرفة ام حسن ، طبعا ، كانت واحدة من تلك المحطات .يعرف جيدا لماذا ، الا انه لم يبح به لتاتا .هناك كثير من الامور التي لم يبح بها ، لها او لأي شخص آخر ، يردد دائما الحكمة القائلة : ان الانسان كومة بائسة من الاسرار .

بوجود البيت صار لديه القدرة على اكتشاف دمشق مرة ثانية . انه قاعدة للانطلاق .في البيت حمام صغير ، ومطبخ وغرفتان ، يمتد بينهما ممر طويل ، والبيت كائن في الطابق الارضي ، شبابيكه تطل على فضاء الشارع . سيكون ملائما للسكن لو جلب تاتا مع البنتين ، كانا سيقضيان شهرا ممتعا . يريها الجامع الاموي وكنائس باب توما وشوارع المدينة ، وربما يسافرون الى اللاذقية حيث البحر والمحار والتلال المغطاة بالسرو .لكنه كل مرة يبعد الفكرة عن ذهنه .يريد ان يستمتع بدمشق لوحده ، حرا من القيود ، يتواصل معها بطرق جديدة ، وروح جديدة اكتسبها في السنوات الاخيرة من اغترابه .

أكل وجبات كثيرة من الفلافل وجرب طبخ الباميا بلحم الخروف ، والرز ، وكانت ثلاجته مليئة بفاكهة الشام التي حرم منها قبلئذ : التين الابيض ، الصبار ، البطيخ الاحمر ، البقلة الطازجة وقد ذكرته بالايام البعيدة من طفولته حين كانت امه تجعل منها وجبة مع الخبز والملح .شاهد فلمين سوريين وجلس في مقهى الحجاز يرقب حركة البشر وبضاعتهم المنسقة على الارصفة .لماذا لايعيش هنا ، يقضي بقية حياته مع سهير ومي وتاتا ، لكن ماذا يشتغل؟لايمكن ان يعود اجيرا في القطاف او عاملا في مصنع بلاستك او صبي مطعم .

يمضي الى ساحة المرجة للفرجة ، يمر بسوق الخضر ، يتأمل كل شيء ، يقرأ اسماء النباتات والثمار والاعشاب . يقرأ الوجوه في السوق تبيع وتشتري ، او تساوم للحصول على عرض أرخص .يجلس في المقاهي الصغيرة الضيقة ، يحتسي شايا ثقيلا مع السيجارة ، يتسمع الحوارات بين الجالسين ، كم مضى عليه من زمن لم يسمع حوارات طليقة على سجيتها هكذا ، حوارات وتعليقات عن النساء والبضائع والسوق والحروب والساعات والاحذية والمسابح والاسماك . ثمة مسمكة جوار المقهى يتأمل فيها ، مثل الآخرين ، تلك الكائنات الصغيرة الملونة التي لا تدري لِمَ

حشرت في هذه الاوعية الزجاجية في السوق المكتظ بالروائح والاصوات والقطط .

غامت صورة تاتا ومي وسهير ، اراد ان يرتاح حتى من التفكير بهن . لم يستطع النوم ، كان يستعصي عليه دائما ، الضجيج اكثر مما تحتمله اذناه .راودته مشاعر خليطة من البهجة والتذكر والرعشة حين سماع صوت مؤذن جامع ابراهيم الخليل عند الفجر .عادت اليه انواع الأذان التي مرت على اسماعه ، في جوامع بغداد والسليمانية والبصرة وارومية وقرى كردستان وبندر عباس وطهران وحمص ودمشق .

قال له ابو حالوب : ان احتجت الى مساعدة او سؤال فأنا اجلس في الروضة ، من الساعة التاسعة صباحا حتى الثالثة ، ومن السادسة حتى التاسعة .ماعليك الا المجيء اليّ . لم يشأ الاعتماد على ابي حالوب في مدينة عاش فيها سابقا سنتين ، وكان جزءا من روحها الضاجة . ثمة اشياء لايمكن الا السؤال عنها .فهي تعتمد على ايقاع البلد وحياته الجديدة .بعد اسبوع واحد فقط راح يفكر بالنساء .تفكيره بالمرأة حاجة روحية ، صار يجهلها جهلا كاملا ، كانت المسافة بينه وبين تاتا هي اللغة والعادات المختلفة .

يسير في الصالحية ، عيناه شاردتان في الوجوه ، انفه يتشمم عطور الصبايا ، يستمع بشغف الى تلطيشات الشباب وردود النساء . لم تكن لديه عادة التحرش ، يفضل الكلام العادي الذي يقود الى شيء آخر .يمضي الى المرجة في المساء احيانا ، يراها غيرها في الصباح . ينظر الحركة السرية الجارية بين الباعة والمشترين ، الطالبين وموفري البضاعة . دأب على الجلوس عند القوس المنصوب على بردى ، في النقطة التي يغور فيها تحت الارض ، حوله الجنود والمسافرون والمياومون والباحثون عن لحظة مناسبة لعقد صفقة او سرقة جزدان ، والفلاحون القادمون من الجزيرة بأبستهم الداخلية الطويلة التي يرتدونها رغم الحر .

يرتشف تلك الحياة الجديدة مثل عطش ، يمتص كل ما افتقده في كوبنهاغن .الفوضى ، الغبار ، الجدران المشققة ، الابواب العتيقة ، حوارات النساء في الباصات ومحلات الخضار ، انواع الواجهات ، اشكال الجوامع ، حواجب النساء وكيفية خطها وطرقها ، القصيرة والطويلة والمعقوفة والمتباعدة ، الخشنة والناعمة والمنتوفة ، السوداء والشقراء والبنية .يمتص الياسمين والدلايات في فضاءات الشوارع ورازونات البيوت وعطفات الشوارع من باب توما الى مدحت باشا ، من ركن الدين الى مساكن برزة .غوطة دمشق والمزة ودمر والبرامكة التي كانت تذكره كلما جاءت الى سمعه بجعفر ويحيى وخالد البرمكي وهارون الرشيد .اسم يجر اسما ورائحة تجر اخرى ، ثم يفتح مساماته كلها ، لتلك الحياة التي كتب عليه ان يبتعد عنها ولكنها ابت ان تموت .

يعود مساء الى البيت منهك القوى من التجوال ، يشرب عددا من قناني البيرة الباردة ، ينام مطمئنا ، يحلم بهن ، سهير ومي وتاتا ، بالعودة ثانية الى روتين كوبنهاغن .التقى بعض القادمين من الداخل ، لاحظ باستغراب ان لهم سحنا خشنة ، تنطق بالالم والمعاناة ، وراح يستمع الى قصص وحكايات لايصدقها عقله . وشيئا فشيئا بدأت الخيوط بينه وبين الماضي تتواصل وتتواشج ، الذاكرة تصل ما انقطع من خيوط ، تملأ ما نضب .رأسه يتغذى بالحوارات ، يسجلها اثناء جلوسه في مقهى الحجاز والروضة والنوفرة ، أو في بار قصر البلور والجرة الذهبية والقنديل المضيء والريس . . .وكان يقف على السفح مشرفا على واد لايعرف دروبه ، عليه ان يتوغل فيه ، عليه ان يبدأ من جديد مثل كل مرة . . . .حلفاء ونخيل وانهار وطائرات ، محطات قطارات واشخاص راحلون ، اطعمة وجوامع وحقول تنعقد فيها دبكات على انغام عود ودف وبزق ، كل ذلك بين يديه الآن .كان يعيش ولادة من نمط آخر ، جسده يتسع وروحه تخف .

٦

جلبوا الكبة المصنوعة بالطريقة العراقية ، الخيار والطماطم والدجاج المشوي والبزر ، الرز ، الكباب والبقدونس ، مع سجادات للجلوس تحت ظلال التفاح والمشمش . صناجات تخش في الايدي ، وعيون نساء وفوح الحقول يتعانق مع رائحة الاطعمة . شاب مع دربكته ، محمد أتى مع عوده ، كان محور الجماعة ، يضرب على الاوتار فتهتز وريقات الدراق ، تطير الفاختات محومة حولهم ، ترقص نحلات الغوطة بدقة والاجنحة تهز الهواء راجة نسيمات لامرئية على الوجوه العرقة .

غنوا ، رقصوا ، شربوا ، أكلوا .نكات لماحة وكلمات موحية . حكايات كثيرة تدور عن اشخاص غائبين ، الا انهم يحملون اسماء معروفة . كانت حكاياتهم تحمل اخبار الكرة الارضية كلها . في طهران باعة سجائر مفرق وقاطنو احياء شعبية ورجال دين ومهربون ومقاتلون .في سدني عمال نظافة وطلاب لغة ومفكرون . في لندن سياسيون وشعراء وتجار وسائقو اجرة وندل مطاعم ومصححو جرائد . في السيدة زينب تجار جملة

واصحاب مطاعم وخدام حسينيات وباعة ملابس ومزورو هويات وشهادات جامعية .

ابو حالوب يسأله عن اسباب العنصرية في الدنمارك وهو يجيب ، بالتفصيلات والاسماء ، اي المدن تكره الاجانب اكثر من غيرها ، ومَن مِن طبقات المجتمع يبدي لهم العطف والدعم في البرلمان . كان مثل فيلسوف حاذق يحلل الظواهر ويجلب حجج الساسة والباحثين الاجتماعيين والنفسانيين ليرسم لوحة واضحة للشلة وعيونها المنصبة عليه .عيون النساء الحاضرات كلها جميلة ، يطرب لسماع اللهجة العراقية القادمة توا من الناصرية وبغداد والموصل والبصرة ، بخشونتها ومفرداتها المحلية وتقعراتها ولحنها .

اشعلو نارا ، شووا فستقا من حلب واحتسوا الخمرة ورقصوا رقصة الهيوة على ايقاع الدربكة التي تلامس خلايا الاجساد . تبللت الملابس الخفيفة بعرق الصيف ، تندت العيون بالنظرات الحالمة والاشواق العميقة للارواح البشرية المتغربة .تحيط بهم اشجار المشمش والتفاح والدراق ، بيوت القرويين لاتبعد كثيرا عن مجلسهم ، وهم يحدقون الى نارهم بفضول .في الفضاء دخان ازرق ، يختلط بالغبار الخفيف واجنحة الطيور .بقرة تخور على كتف الساقية وطفل يبكي تحت شجرة تين .لايمكن له ان يمضي يوما مثل هذا في الدنمارك . في البرازيل كان غريبا بين عائلة تاتا ، شرب البنكا ، اكل المشاوي ، سمع السامبا وراقص تاتا بارتباك .اليوم روحه طلقة ، هذه الحياة هي التي يتوق اليها .

طريق الرجوع في الباص شعر بها رحلة الى الفردوس . المصابيح الملونة في الشوارع ، اراجيح الاطفال تدور ، يدور معها سارح الافكار ، محمولا على ريح امكنة كانت تتغير دائما تحت باصريه .محمد يعزف الالحان والاكف تصفق والحناجر تنطلق بالاغاني ، والكل يحاول ان ينسى اللحظة الثقيلة ، لحظة الغوص في ماض قاس ظل يدور بهم مثل مروحة هائجة .

كل واحد عليه ان يحس نفسه فردا من مجموع ، يشاركهم الفرح والحزن ، التعب والراحة ، بين دهشة المارة وسائقي السيارات وشبابيك البيوت المفتوحة على الاسرار . عدّها بعد رجوعه منهكا ، اجمل السفرات التي قام بها ، دون ان يقدر انها بداية المغامرة وليست نهايتها . منها بالتحديد عرف بيت القابون .

قال سلمان : غدا عند مفترق القابون؟

اجابه وهو يطبق باب الباص خلفه بكلمة واحدة :اجل .

نظرات تضال عالقة بكتفيه ، أحس بها متشبثة بخطواته وهو يعبر الجزرة القائمة بين الشارع الرئيسي والمحلة الصغيرة التي يقع فيها بيته .

على مسطحات الثيل كانت النساء والرجال يجلسون على الارض ، يحدقون بالرائحين والغادين ، وبالسيارات المارقة في الطريق الصاعد الى عين منين وعين الصاحب والجبال المتوغلة نحو لبنان .

مضت الليلة رخية في البيت ، اعد قائمة بالاشياء التي سيشتريها : البسة للبنتين ، منامات لتاتا ، تحف شرقية خفيفة ليدهشها بها والبنتين حين يزين بها صالة الجلوس . دنان عرق للشلة الصديقة ، حلويات دمشقية . كل ذلك كتبه ورتبه في ورقة بعد ان استمتع بحمام معطر بصابون الغار وشرب القهوة العربية المهيلة .وضع علبة الدخان البرنس الدغاركي الذي اشتراه من السوق الحرة ، وقداحة الغاز على الطاولة الصغيرة جنب السرير . شاشة التلفزيون تبث فلما مصريا بالابيض والاسود .نسيمات الليل تنشال عليه من الشباك ، يحسها مثل مخدر ، تحمل معها ضجة الاطفال ونداءات الباعة ، وكلام النساء اللواتي كن يجلسن عند الابواب المجاورة له .

كلما انطبقت اجفانه ترتسم له عينان عميقتان في افق ما مجهول ، يحاول الهروب منهما .يتسلق شجرة يوكالبتوس ضخمة ، يقف في اعلى الغصن ، لايرى فوقه الا السماء ، ولا شيء تحته . تلكما العينان السوداوان

العميقتان تختلط فيهما البراءة والاشتهاء .يغوص في مياه بردى عند منبعه ، يرى الحصاة الملونة في القاع ، والسمكة المتسللة بين عروق الصفصاف ، والسرطان المختبئ في جحره المتصيد بخفة ديدان الحقول الساقطة بين فكيه .لايستطيع الخلاص ، الرموش السود تسبح بين يديه كأي كائن حي ، قال لنفسه هذا هو طائري .لكنه لايريد ان يقر بذلك .المرأة متزوجة ، عندها طفلة اسمها رغد .هذا بلا شك امر عارض ، وهو يمتلك بيتا لايريد ان يفقده .لكنه يحس بالجاذبية .شيء ما في هذه الكائنات تتمسك به ، تسحره ، تخترق توازنه وكيانه واسواره .فكر انها عقدة امه ، التي يراها في كل امرأة يلتقيها .

٧

القابون التي يقطن فيها سلمان قريبة من برزة . بيت القابون من البيوت العديدة التى تنقل بينها سلمان ونضال ، كالعادة ، اما بحثا عن سعر رخص أو هرباً من جار سيّىء أو لتغير محل العمل ، ونادراً ما كان تغيير البيت لتحسن الشروط المعيشية . اخبره ابو حالوب ان سلمان ينوي الرحيل الى هولندة وهو يشتغل بالمعاملة مع الامم المتحدة في سبيل ذلك . لا يعرف السبب الذي جعله يميل الى سلمان .منذ التقاه جنب البحرة ، وسط مقهى الروضة عصرا مع ابي حالوب ، ولقاءاتهما مستمرة .

يدخل عمق القابون ، اسمها اكبر بكثير من حضورها لدى الداخل في وقتها ، الازقة لايعرفها سوى سلمان .يصبح الولوج الى المتاهة تلك سهلا معه ، هو القادم من بابل . زقورات وابراج ونخيل يبسق عند بوابات الهندية واسماك تمتلك شوارب مفزعة وحلفاء .تعجب من ان بشرا يعيشون مثل هذه البيوت الواطئة والصغيرة . باب حزين ، موارب عن يمين ، وباب مغلق مهجور ، بنت عليه العنكبوت شبكة من غبار ، وباب مطلي بالفرح

تتراكض من شقوقه الضحكات والقهقهات وشهقات القلب ، وباب كامد لاشخصية له .انه هناك فقط ، في هذا الركن المنزوي من محلة القابون ، في كرة ارضية سابحة في محيط من الاشعة والنيازك .

تمتد الاسلاك عشوائيا على الجدران ، تتدلى على النوافذ والابواب . الاطفال يلهون بضجة غير معقولة . سلمان عاد توا من عمله ،لاقاه عند تقاطع مساكن برزة ، ثم قاده في تلك الازقة حتى جاءا الى باب صغير واطئ ، كان مواربا .دخل قبله . تريث هو عند الباب . سيدخل الى صدفة مجهولة ، يرى بشرا لم يلتقهم قبلئذ ، يشم روائح اجساد وغرف وملابس ، يسمع حكايات تنتمي الى اولئك البشر فقط .

ناداه سلمان طالبا منه الدخول . ممر معتم ، قاده الى حوش صغير مفتوح على السماء ،تطل عليه ابواب لغرف وحمامات وفتحات ادراج تقود الى مكانات عليا غير معروفة .في واحدة من تلك الغرف طالعه وجه ناحل قال سلمان مازحا :

- زوجتي نضال .

- تشرفنا .

رغد الممصوصة الضئيلة الحجم كفأرة ، لاتتناسب مع وجودها في المكان ابدا ، محمولة بين يديها ، وجهها طافح بالسعادة كما كان في سفرة الغوطة .نظراتها متجهة اليه بعمق .انها بيت القابون ، البيت الذي يرقص دائما في ذهنه ، هو شفرة مست قلبه ، دخل في العتمة ولم يخرج .

يمامة تأكل ورق الفلفل البري ، عينان تنظران من النافذة ، شمس مشرقة على هذا التخم من الارض ، المسماة بالقابون .دخل مترددا ، تبيّن بساطين ممدودين على الارض ، بعض القدور مركومة في الزاوية .الاحذية عند الباب ، الملابس معلقة على مسامير مدقوقة في الجدران ، رائحة الطبخ تفوح في البيت كله . بيت القابون كان حلم ابو حالوب ، ليس بسبب كونه واسعا ممتعا ، او تشرق على غرفه الشمس شتاء ، لكن لان اغلب

القاطنين نساء ارامل او مقطوعات ، يمكن ان يتدبر اموره معهن دون عناء . يزيل فيه بيداء الجفاف التي وجد نفسه فيها .

قال سلمان بعد ان جلسا :

- هذا بيتي . ثلاثة امتار طولا واربعة عرضا ، لامروحة في الغرفة ولا شباك ، احيانا نستضيف آخرين للنوم عندنا ، ممن يأتون فجأة الى المدينة .الفقراء كرماء دائما ، لايفكرون بالثراء ، كل الساكنين هنا فقراء .

مدت نضال الجرائد ، وضعت الصحون والخبز ، يلمح قليلا من الحرج في نظراتها ، الا انه كان يشعرها وكأنه يجلس في قصر من قصور كسرى ، رافعا الحواجز بقدرته الروحية التي تعلمها .يضحك لأي مفارقة ، يبتسم لرغد ونضال ، يقص لهم عن مشاهداته في دمشق .لايريد للكلام ان يتوقف .انه بؤرة البيت ، عليه ان يلم نحوه الانظار والعواطف والافكار ، او على الاقل هذا ما يأملونه .

راحا يأكلان الرز والباميا ، طبختهما نضال بحب ، يتذوقه مع كل لقمة ، وكانت رغد تتربع جنبه ، امامها صحن صغير خصص لها .

البيت بطابقيه يحتوي على عشر عوائل ، قال سلمان .جارتنا ارملة تشتغل موظفة في الزراعة ، وتعيش وحيدة الا من صديق عسكري يزورها بين حين وآخر ، تقول انه قريبها ، ابن خالتها اوشيء من هذا القبيل .الغرفة المقابلة يقطنها رجل فلسطيني مع زوجته ، يشتغل في البناء مثله عند متعهد ، اما زوجته فتشتغل خياطة . تتصاعد أصوات لاطفال رضّع وصبيان يلعبون لعبة ما . سلمان يتكلم طوال الوقت ، يخاف الصمت مثله ، يحاول جعله صديقا شخصيا . اهتم به اكثر من المعتاد ، رفع الكلفة بينهما ، راح يحدثه عن الحياة في العراق ومحافظة بابل بالذات ، كأنه هجس توقه لتلك الاحاديث ، بعد ان متّنت رحلة الغوطة العلاقة بينهما ، طلب منه الجلوس على سفرة طعامهم ثم شاركه كأس ريان ، فأصبح بذلك صديق العائلة .لم يستطع ان يكون يوما صديق عائلة ،

حتى بعد ان تزوج تاتا .كان يجد مشقة في الحفاظ على المسافة الفاصلة .

كان هاربا طوال فترة الحرب . قضى سبع سنوات في القرى المحيطة ببابل ، لايخرج الا في الليل ، حاملا مسدسه الشخصي دائما . فكر سلمان بتسليم نفسه عدة مرات الا ان كرامته لم تسمح له .حفظ طرق البساتين طريقا طريقا ، وانواع الاشجار واصوات الطيور والسواقي واعراضها . حفظ انواء الربيع وسكرات الصيف وبطر الخريف بلياليه الندية وعنفوان الشتاء بسحبه وعواصفه وامطاره .

عبر الفرات على كلك ودولاب جرار زراعي منفوخ وسباحة ، محملا بالمونة والاسلحة والملابس والكتب ، وحيدا او مرفوقا بصحاب هاربين مثله .اخبار الحروب كان يسمعها من المذياع ، وكثيرا ما اعتقد ان مايدور في هذه الدنيا لايعدو ان يكون حلما . لم يكن حلما كما قال ، وكان محدقا في عينيه بقوة ، كانت نظراته تقص كوارث ايامه ورعبه وجنون لياليه التي ماتت وخلفت شيبها :

– عرفنا ان هناك عشرات الآلاف من الجثث وعشرات الآلاف من الاسرى والمعوقين . مدن تهدمت ومدن ابيدت . انهار سممت او جففت وأرامل لم يعدن ينمن الليالي .كل ذلك عرفناه نحن الهاربين ودوناه في قلوبنا .عرفته ضباع البر وبنات آوى وسعف النخيل والاذرع المشمورة في الخنادق وذرات القصب الطافية على امواه الخليج ومستنقعات العمارة ومآذن ميسان وبقر وجاموس المعدان وجزر البردي وسداد الانهر الضيقة التي لم تعد تسقي الا حقولا من الجثث .دونا اسماء القتلة ايضا على اغطية الاطفال وصفائح الخزائن التي من خشب وقضبان الجريد المثبت في الاكواخ وبطون نسائنا .

شخص يلذ له الحديث عن نفسه . عن مغامراته والقصص التي جرت له خلال مطارداته مع الشرطة ، في فترة كان الهروب يقود الى المشنقة .نضال لايهمها ما تسمع . تحاول ان تسأل عن الحياة في الدنمارك ،

وحياته الشخصية وكيف يقضون وقتهم هناك . عن المرأة الدغاركية وشكلها وكيف تعيش والاسرة والجو ودور الحضانة . لم يكن يجيد الحديث عن نفسه ، لكن كان عليه ان يحكي ، وكان حكيه يثير الاعجاب ، في نضال خاصة ، لانه لم يضيّع وقتا من السنوات التي عاشها هناك .نضال تطمح للسفر الى اوربا ودراسة الكومبيوتر ، ولا يدري لماذا الكومبيوتر بالذات؟ شعر في نضال براءة غير معهودة ، اكثر ما تجسدت في عينيها الودودتين ، غير الواثقتين من نظراتهما .أحس كما لو كانت اختا صغيرة له . ترتشف كل كلمة يقولها وكأنه ملاك هبط من السماء .هل هو مهم لهذه الدرجة؟ سأل نفسه وهو يستمع الى حكايات سلمان عن ماضيه ، وأسئلته عن السياسة الاوربية تجاه الاجانب وقضية الحصار .

قال سلمان :

- اختبأت في بستان ، سنتين . كيف يختبئ شخص في مكان واحد دون ان يستدل عليه احد؟هذا ما ابتكرت له حلا غريبا ذلك الوقت . حفرت عند تلة صغيرة تكللها نباتات الحلفاء ، حفرة كبيرة اشبه بقبة ثم سقفتها بالحور والحلفاء وسعف النخيل . صارت اشبه بغرفة . بابها غار ضيق تحت جذر حلفاية ضخمة ، لايراه المار الا اذا وقف تحت الحلفاية وراح يحدق الى الاسفل . اقضي النهار في ذلك القبو ، اخرج في الليل لأتصل باصدقاء آخرين لهم وضع مشابه لوضعي ، يختفي قسم منهم في بيت صاحب او قريب او يهيمون على وجوههم منتحلين صفة التجار او الفلاحين او قاصدي العتبات المقدسة .

الحرارة في الغرفة خانقة . طاسة الماء تدوربين الافواه العطشى والعرق يتسرب على الاجساد . رائحة جوارب خفيفة تأتي من الاحذية المكومة امام الباب . رغد شعرت بالتعب والتخمة فنامت في حضن امها . عينا نضال لاتفارقان وجهه ، وهو صامت كله آذان . الحكاية لامست روحه ، شعر سلمان الاشيب قصص لاتصدق ، شَعر كلمات ، لسانه مخاوف ،

يداه تحوشان الماضي كعنقود عنب ضخم .وهو دائما مايسحره الاشخاص الذين يمتلكون قدرة على الحكي ، عدّ ذلك موهبة لايمتلكها الا القلائل .

– القبو تعرفه امي فقط . كانت تجلب لي المونة كل اسبوع . الرز والطحين والبصل والشاي والسكر ، والكتب ، وهي اهم مونة في تلك الفترة ، اضافة الى علب التبغ واوراقه التي ابقيها عند الضرورة اذا انتهت سجائري .الكتب والسجائر ، والشاي الذي كنت اعمله على نار الشوك الخفيفة ، اصدقاء خلّص ساعدوني على تجاوز الوقت . منحتني الاصرار على البقاء في ذلك السرداب الارضي ، مترقبا موتي بين ليلة وأخرى .اما الصديق الآخر الذي اتذكره دائما ولحد الآن ، وشغل عليّ تفكيري وبدأت احبه حقيقة واعيش معه الساعات بلهو وفرح واكتشاف ، فذلك جاري في السقيفة ، يونس ، خِلّي وانيسي .

نسج يونس ارجوحته الخيطية في واحدة من الزوايا ، كَمَنَ هو في الطرف القصي من الشبكة ، خلف عرق ضخم من عروق النخيل النابتة فوقنا .في البدء لم أُعره اية اهمية ، لكن بمرور الوقت ، وثقل الضجر الذي كنت احسه ، بدأت التفت الى اشيائي في الغرفة ، الحية منها خاصة ، كجذور النباتات والاعشاب والديدان والعناكب والذباب . اصبحت ما ان اتعب من القراءة والنوم وسماع المذياع والتأمل بحياتي الكئيبة ومغامراتي الليلية وشوقي الى الامان ، حتى اجلس في وسط الغرفة لمراقبة هذا الفضاء تحت الارضي بما يملكه من حيوات .

لم تكن نضال تصغي كثيرا لماكان سلمان يحكيه .لابد انها سمعته عشرات المرات ، رواه دون شك ، في كل الامكنة والمحطات التي مر بها بعد خروجه من العراق .بغداد وكركوك والسليمانية واربيل ثم زاخو والقامشلي واخيرا دمشق وقابونها الكئيب .على ضوء نار البلوط تحت سماء الجبل المرصعة بالنجوم .

يستمع بشغف الى حكايته مع يونس ، يرتشف الشاي ويمص سيجارته

ويمسح العرق المتصبب من جبهته وصدره وصدغيه ، ثم يرمق نضال الجالسة بصمت في المساحة الضيقة قرب الباب .

قال سلمان : القي فتات الخبز الصغيرة الى شبكته ، ارقبه يقفز اليها بأسرع من لمح البصر . يتشممها ولا يستسيغها .يتركها . يرجع الى مكمنه ، منتظرا طعاما اكثر لذة . عجبت كيف يتغذى هذا الكائن ، ماهي ضحاياه ، وكم مرة يأكل في اليوم ، الى ان رأيت ، اثناء مراقبتي له ساعة كاملة ، كيف سقطت ذبابة صدفة في الشبك ، نط عليها بأسرع من لمح البصر وراح يلتهمها ، ببطء ولذة . ادركت ان جاري يهوى تصيد الذباب والحشرات الصغيرة ، وهذا ما خلق لي تسلية اضافية ، اذ بدأت اصطاد له الذباب .كان الصيد يتطلب جهدا آخر ، الا انه يزجي الوقت اكثر .

افيق صباحاً ، القي نظره عليه ، اداعبه باصبعي ، انظر اليه بود ، اقهقه احياناً عله يسمعني .

الكتب التي تجلبها امي تتكدس في الزوايا ، تتزايد اياما واشهرا ، خفت ان تخنقني بوجودها .القبو صغير والايام عصيبة والحياة تجري على حد سكين .هل يمكن للكتب ان تكون مصدرا للرعب؟ نعم ، وهذا ماجرى لي في بابل . افقت ذات نهار على اصوات غريبة تصدر من الارض ، اشبه بتشقق ورق او تمزق اغصان ناعمة ، كأن الصوت يأتي من المخدة الصوف التي انام عليها .رفعت رأسي ، مستطلعا خائفا قلت ربما يكون جرذا او فأرة .ويحدث ان تمر قطعان مواش او بقر فوقي ، او اقدام انسان جاء يتسكع في الحقول فأمسك انفاسي ، أطفئ ناري وألبد محاكيا يونس في شبكته . فتشت الزوايا والملابس المكومة واكياس الرز والسكر والشاي ، ولم اجد شيئا . قلت ربما السقف ، تطلعت فيه فلم اقع على مايريب . حانت مني التفاتة الى الكتب فراعني ما وجدت .منظر عجيب .عروق الحلفاء اخترقت ورق الكتب كأنصال خشبية ، اصبحت لها الكلمات جزءا من الارض .الجذور تخترق الورق اذن!!! تصبح القصص والروايات وبرامج

الاحزاب والدراسات جزءا من هذا القبو الرطب .كانت الجذور اشبه بالاصابع المعقوفة اليابسة ، ذات عقد وحلقات واغلفة ، تحدرت قبل اليوم من الطبقات العليا للتربة ويبدو انها فتشت عن مادة تمد اليها نفسها فلم تجد سوى هذه السطوح الرقيقة الرطبة .داعبتها لأيام ، رطّبت اسطحها ليلا بعد ليل ، رطوبة بعد رطوبة ، اسبوعا بعد اسبوع ، لتمد مجساتها الرفيعة اولا ، ثم تتبعها بالغليظة ثانية ، في ميل واصرار لالتهام تلك الكائنات .

انظر مندهشا ، راعني المشهد فلم امد يدي لأزيل اي شيء . تركت اكداس الكتب تتحول الى مادة مغذية للحلفاء والنخيل القريب والسيسبان . تتصاعد الحروف والكلمات مع المياه ، تسري في الثمار . ستأكل الاجيال القادمة تمورا معبأة بكلمات وخوخا تكتظ ثماره بالحروف .سيأكل اولادنا اللغة في ظروفنا الشاذة هذه .

وكان هو فاغرا فمه دهشة من الطريقة التي يصور فيها سلمان قبوه وما مر به من غرائب . قرر ان يتخذه صديقا ، طوال اقامته القصيرة في الشام . يحس انه يعود الى شاطئ النهر يلعب على الرمال جامعا القواقع ، راكضا في ازقة البصرة القديمة محدقا في السفن ، هائما في صحراء الجزيرة يفتش عن الكمأة والفطر بعد امطار ربيع بعيد ظل غافيا في ذاكرته بعد عشرات السنين . عود بطيء ، يندمج مع سلمان ونضال وابنتهما رغد ، تتشكل متعة اضافية من متعه ، يصغي بلذة الى الكلمات في تساقطها من الفم ، حيث تتجسد اغصانا وخبزا وهواء ومخاوف ، شوارع مدن جبلية ودروب ثلوج طرقتها ارجل الثعالب في الافجار .

يراهم يوميا تقريبا . يزورهم في البيت بعد عودة سلمان من العمل . تتواصل الحكايات وتتشابك النظرات . ألف رائحة بيت القابون ، اصوات قاطنيه ، يجدهم احيانا جالسين في الجزرة المحصورة بين القابون ومساكن برزة ، كما لو كانوا ينتظرون مجيئه كل ليلة .يجلبون زجاجتي بيرة من

محل ابي سليم ، مع الفستق . الى اليمين عوائل تتطلع الى الجبل ، الى الشمال شباب وشابات يتبادلون الغزل . برودة الشيل في الليل ، لهاث النجوم في السماء ، واضواء السيارات مثل شموع ذائبة .

يمضون الى الجبل ، الى سفح قاسيون يجلسون على الرصيف ، يتطلعون الى دمشق تحتهم باضوائها وشوارعها وبناياتها .الهواء كان ابرد من هواء برزة . يأكلون عرانيس الذرة ، يشربون المرطبات من الباعة الجوالين بوكساتهم المتوهجة ، وسلمان لايملك الا حكاياته عن حياته السابقة وكيف تزوج نضال وهي تصغره بأكثر من عشرين سنة . كيف افلت من سرية انضباط كمنت للهاربين مابين الديوانية والحلة . من يرى الشيب في رأسه ويقارنه بصبا نضال وتوهج عينيها المراهقتين يظن انها ابنته لا زوجته .

نضال تتقرب اليه بالنظرات ، بالاصابع حين تتلامس عفوا اثناء تناول المرطبات او المشي تحت جنح الاضواء النجمية الساقطة من فوق ، بالابتسامات . تستغل اي فاصلة من توقف سلمان عن الحديث لتفتح حوارا معه .كان يقدم وينأى ، يقترب ويبتعد ، ينغل في العمق ويسيح على السطح بحذر الرجل الحكيم .لن يخون احدا ، المدينة ملأى بالنساء ، بيته واسع وجيبه عامر .لكن حين يطويه الليل تجتمع الخيالات ، تتواثب في رأسه مثل احصنة هائجة ، يكتظ الرأس بالارداف والسيقان والعيون والشعر والزوايا الدافئة .يحس بالحاجة الى جسد يحتويه ، يطويه بين جوانحه ، يدغدغ فيه رجولته النائمة .

ذات ليلة رجع باكراً الى البيت ، بعد ان جال في ازقة الشيخ محيي الدين ، وتملى في معروضات السوق ، وعد شبابيك البيوت القديمة واحدا واحدا ، دهشا من صبر مزخرفيها . اخذ حماما باردا ثم شرب القهوة المهيِّلة ودخن . قرأ الجرائد وفكر بالقط بيليه ، وبنساء المدينة وجاذبية عيونهن السود . في القلب شوق الى صبية تسلّيه .لايدري لماذا تخيل نفسه في

محطة كوبنهاغن بسقفها المزخرف .كان يجلس في المقهى البلوري محدقا الى ارداف النساء المارات في الاسفل .قبل ان ينام بساعة تقريبا طرق سلمان عليه الباب ، ظن ان وراءه شيئا مهما ، يسهر معه او يأخذه الى بيت في الجوار .قال له لا اريد ان اجلس ، جئت لاخبرك اننا غدا سنرحل الى عين الفيجة ، وهي واحدة من منابع بردى فمارأيك؟

فكر وهما واقفان عند الباب ان رفقة نضال ورغد وسلمان ستكون ممتعة ، اضافة الى انه سيرى مكانا جديدا .انها سفرة جماعية ، سيأتي اليها خليط من الناس ، ستكون اجمل من رحلة الغوطة .

– وماذا عن الطعام والشراب؟ سأله .

قال سلمان بابتسامة عريضة : هذه الاشياء لاتفكر بها .ستكون ضيفنا انا ونضال .سأجلب معي بيرة وعرق ريان اما اذا فضلت شيئا آخر فاجلبه بنفسك .

– اين التجمع ؟ سأل .

– لايبعد كثيرا من هنا ، عند جامع ابراهيم الخليل .تذكر ، التجمع في التاسعة صباحا .

تركه سلمان ومضى ، وقبل ان يغلق الباب حملت اليه نسيمات الليل رائحة بزر محمص واصوات صبيان يلعبون الكرة في الزقاق المجاور وتأوهات امرأة تستحم في البيت المقابل ، وكان جسده ضاجا بالرغبات .انه بحاجة الى النوم .

٨

البيت مسور بأشجار الجوز البري والكرز والازهار . القط بيليه يتسكع بين ازهار التيولب باحثا عن طابة ضائعة او حشرة او قوقعة سقطت من حنايا الغصون . القط بيليه يعرج . تمشى قليلا في الحديقة ثم رآه بعد دقائق راقدا تحت شجرة الكرز . كان عازما حقا على قتله .اليس هو من تسبب بموت سمارة ، دون سواه ، رش جسدها الساكن في رحم امها برقائق شعره وبكترياه وفايروساته ولعابه ؟ ثم انه حيوان لاقيمة له على هذه الارض . غير منتج ، يخلف قذارته في الحديقة ويترك شعره على الثيل . عليه ان يموت ، قربانا لتلك الراقدة في مقبرة فالبي ، البنت المدعوة سمارة .الجوز البري مزهر في الحديقة الخلفية ، وحارس البنايات يلم مايتساقط من زهور بيض على الارض بمقشة طويلة المقبض . جسده ضئيل ، ظهره احدب ، عيناه فأريتان . صوت مقشته يفتض هدوء الصباح .طائر يشدو في شجرة الكرز ، اشعة شمس تقع على وجهه ، والسماء زرقاء مليئة ببالونات ملونة . ثمة طائرة تمرق كأنها اصبع كوني يمر

صدفة على الارض .هذا المخلوق لايحبه ، يخاف احيانا من التحديق في عينيه الخضراوين .

مضى الى الداخل . جلب القفص المصنوع من البوص ، القفص ذا الباب الصغير .اتصل بطبيب بيطري كان يشرف عليه واتفق معه على التخلص منه حسب القوانين السارية في البلد .هتف الى مكتب التاكسيات ، واعطى موظف شركة النقل العنوان .ليس هناك احد من الجيران يشاهد مايقوم به .بلور الشبابيك يعكس لون الطابوق الاحمر واشجار الحدائق والسيارات الواقفة في الشارع . هجم على بيليه الراقد تحت شجرة الكرز بحجة انه سيداعبه .قبض عليه ووضعه في القفص واغلق الباب باحكام بواسطة حبل .كان القط الاسود اللامع الشعر ، الازرق العينين يصرخ ، يخرمش العيدان البوصية محاولا الخروج كأنه حزر مصيره ، مصير قط عجوز سيزرق بأبرة حاوية لترياق نوم ابدي .عيناه على الشارع ، صوت المقشة يتعالى تحت اشجار الجوز .الزهور البيض تتكوم تلة خلف البيوت ، نحلات التيولب تثز في الهواء ، وفجأة سمع مزمور التاكسي .قبض على القفص ، اقفل الباب واتجه الى السيارة .كان بيليه يحدس مايجري ، يقرأ افكاره المؤلفة من كلمات لم تصب بلغة معينة ، انما استرسلت في الهواء ذبذبات وسيلانات لاتحس .

لم يصل به السيارة . لا يعرف كيف احدث فتحة في القفص وقفزالى الخارج .صار للموت اربع ارجل ، وصارت الاشجار والزهور والنحل والسياجات الواطئة برية شاسعة .

السائق يتفرج ويبتسم .اراد ان يوضح له بالكلام انتفاء الحاجة للسيارة ففهم السائق مراده .اشار له محييا ثم همز سيارته ومضى .ظل واقفا في الشارع بقفصه الفارغ ، محدقا بشجرة الكرز وشباك صالة الجلوس والطابوق الاحمر .

تنزل تاتا من الباص رقم ستة . ترتدي جاكيتها الاسود الطويل ،

تحمل اكياسا مليئة بالبضائع .كانت تمشي في الشارع مطرقة الى الاسفل ، ضئيلة الحجم ، وجهها صغير مهموم ، شعرها قصير اشيب ، نظراتها في مكان بعيد . تقترب من الحديقة التي يقف فيها ممسكا بالقفص ، تتجاوزه دون ان تراه .يناديها بصوت عال ، تلتفت اليه لكنها لا تعيره اهتماما .يناديها بصوت اعلى فلم يسمع صوته ، وهي تمشي وتمشي دون ان تصل .الى ان غابت فجأة في الهواء ، مثل طيف .تساءل مع نفسه :اين اختفت تاتا؟

وقف على كتف جبل اجرد وكانت هناك قرية تحته ، بيوتها من طين ، مداخنها تطلق دخانا ازرق ، لا بشر فيها ، يجري وسطها نهر نحيل ماؤه ازرق . بيوران ، بيوران ، ينطلق صوت من اشجار الحور السامقة في فضاء القرية .اسراب قبج تحوم على صفحة الماء ، ثم لمح خنزيرا بريا ينحدر من غيضة عند السفح ، اتجه نحوه . ركض ، ضمه طريق ثلجي غار به في الجبال .كان يمشي دون ان يصل ، ضباب كثيف يفترش الجهات ، لا يسمع سوى قدميه تسحقان الثلج .جاء من مدن خربة وتاه في جبال ثلجية مليئة بالكهوف والمغاور .وقف دون حراك ، كر الليل عليه في تلك الوقفة الصنمية الى ان افاق بفم ناشف .حين فتح عينيه لم يدرك اين ينام ، حسب نفسه في قرية جبلية ذات بيوت من طين .ثم ظن انه ينام في بيتهم الواقع على ضفة النهر ، الا ان السقف يشبه سقف بيته في فالبي لكن الستائر تختلف .الستائر هناك بيضاء ، اما هذه فرمادية خفيفة .

قام من السرير ، نظر من الشباك ثم مضى الى الثلاجة في المطبخ . شرب ماء باردا ، بال ، ثم رجع الى الفراش دون ان ينظر الى الساعة .كان يتمنى ان لا يبدأ مقرئ الجامع انشاده . يريد ان يواصل حياته الاخرى ، الغائبة خلف الرموز والمعالم غير الواضحة . يختفي الزمان ويندمج المكان ، يريد ان ينام بعمق ، ثم يفيق بمزاج مرح ووجه لا تلوح عليه المعاناة .رغم ذلك ظلت الوجوه تترى على ذهنه .اصدقاء ، اعداء ، نساء ، مشاهد

بعيدة ، يقفز من مشهد الى آخر ، ومن زمن الى زمن ، والليل يسري على مهاده المصنوع من حكايات وقصص واشجار ورمال ونساء .

أفاق والشمس تملأ شوارع مساكن برزة . لابد ان الباص ينتظره هناك ، قرب الجامع .ارتدى بأقصى سرعة ملابسه ، رتب سريره ، نظف اسنانه ، دلق عطرا على ملابسه ، دخن سيجارة بعد ان تناول قطعة من الشوكولاتة وخرج الى الحارة . واجهته جزرة الثيل ومئذنة جامع ابراهيم الخليل ، حيث شاهد الباص واقفا والناس متجمهرين .كان قاسيون يشبه صخرة هائلة سقطت من كوكب غريب .خلفه سماء زرقاء منسوجة من هواء وطيور ونظرات هائمة .

صاحوا به : تأخرت . طلبوا منه الركوب فركب .لاحظ وجود اشخاص لايعرفهم . كان سلمان يحتضن رغد ، تجلس جنبهما نضال ، عيناها ترقبان الركاب بألفة . انها تمطره بوابل من النظرات ، يروغ عنها بحياء . احتلت المقعد المجاور له امرأة جاءت دون ان يلحظها ، كان منشغلا بنظرات نضال المتلصصة وبحوارات الراكبين .امرأة لم تلق السلام ، ولم تطلب اذنه بالجلوس . ركدت قربه واحس حرارة جسدها تصل اليه ، لايمكن ان يكون واهما .ان شيئا ما في هذه المرأة يثير الانتباه ، يجذب الشخص مثل قدر . الوجه على الأرجح ، الشعر الطويل ربما ، سهام الروح الانثوية غالبا ، سماتها الحادة وعمق المأساة المرتسمة فيها ، والتوقعات بحدوث امر من حولها ، نظراتها السوداء ، التي لايمكن التكهن بأفكارها .

نسي نضال والحوارات ومشهد الواجهات وهي تترى بعد ان تحرك الباص متجها بهم الى منابع بردى . يجلس مثل تمثال ، يترصد اي حركة تبدر من تلك المرأة ، اي نفخة او انين او تنهد او امتداد ليد او رجل . ترتدي بنطالا صيفيا اسود مع حذاء ذي كعب عال ، وقميصا اسود ايضا مفتوحا عند الصدر ، يكشف عن صدر نحيف بارز العظام .اكثر ماأثاره في تلك المرأة شعرها الاسود الكثيف ، المفروق من المنتصف .لاحظ تطاير

شعرها ، المصفف على شكل غرّة سلسة ، تنط على عينيها كلما فتح احدهم الشباك ودخل الهواء .

بادرت بالكلام ، سألته فجأة ان كان عراقيا ، فأجابها بالايجاب . سكتت برهة ، اخرجت علبة سجائرها وتناولت واحدة ثم راحت تدخن . تدخن بنهم ، ظل ينتظر الكلمة القادمة ، لاحظ في عينيها كلاما كثيرا ، وحوارات قادمة وهواجس وتنبؤات مأس قادمة .رسائل ستكتب من كلمات غير اكيدة العواطف ،هدايا هدفها الايقاع وقبلات ممنوحة لشخص آخر لكن في الخيال . فخذها يلتصق بفخذه دون ان يتزحزح ، مما جعله يتجاهل مرورهم بشوارع المدينة وحدائقها الغاصة بالليمون والتين والسرو .

في الصيف تتجمل المدينة كما لو انها قادمة الى عرس .في عرسها تشرب الريان وتدخن الحمراء وتأكل الفول المخلوط بالزيت وترقص على انغام الدف .المدينة نساء متبرجات يصطدن الرجال مثل العنكبوت يونس ، صديق سلمان . السيارة تتوغل في الطرق الجبلية مبتعدة عن دمشق ، الهواء يشف ، تخالطه برودة لذيذة .عند ضاحية صغيرة ،تتكون من عدة بيوت ومحلات ، توقف الباص ونزل السائق .

قالت له بغتة :هل رأيت دمشق جيدا ؟ اصابه السؤال بالدهشة حقا ، فمن اعلمها انه زائر ، سيبقى اياما ثم يعود الى الدنمارك؟ هل تعرف سلمان وصال ، وكيف تم اختيارها للمقعد؟

قالت : هناك مسارح كثيرة في العاصمة ، ونشاطات ثقافية وسينمائية ، وحفلات ، يمكن لي ان ارافقك في جولاتك وزياراتك . يسمع بفم فاغر ، كيف ازالت الحواجز بينهما دفعة واحدة ، هدمت اسوارها وكمنت منتظرة دخول الرجل ، فارسة تقود حصانها الى نبع الجبل . تضع يدها عفوا على فخذه وهي تكلمه ، في حركة مباغتة منه انزل يده ووضعها على يدها ، التي مست فخذه بواحدة من حركاتها . يواصل حواره باللمس هذه المرة . لمست يده ثواني دون ان تسحب يدها مما جعله يقتنع ان الامر مشجع

للمضي ابعد .

تنطلق الاغاني مرحة ضاجة ، العود والطبلة والمزمار ، النساء يتراشقن بالنكات والضحكات ، الجبال صفراء ، في الظهيرة ، فوقها سماء زرقاء ، تمتص العيون المتأملة ، تسرقها الى المجهول .في بعد قصي اشجار سرو وابنية واحراش ووديان . غبار يتصاعد من البيد ، بزاة تحلق فوق الصخور .الاشياء تسير الى الخلف ، والشارع يصعد وينزل ، يغور في واد ثم يقفز الى تلة . بردى يلوح قريبا مرة بعيدا مرات ، أثاره السرو والحور والصفصاف واليوكالبتوس ، شريط خضرة يمتد راقصا في ارض تميل الى الذهب .

قالت : اسمي هيام ، تزوجت وطلقت ، اعيش اليوم في بيت اهلي . بيتنا في سوق المناخلية ،لانبعد كثيرا عن الصالحية ، وسوق الطيور ومشرب القنديل المضيء . لا احب البشر ، اهرب منهم واخاف ، والرجال خاصة ، اشتغل في دار نشر صغيرة ، موظفة كومبيوتر ، لكن في الاصل معلمة انكليزي .تربيت بين ثلاثة شباب واربع فتيات ، امي من حمص وابي من اللاذقية .في بيتنا تنمو شجرة توت عملاقة تحط عليها العصافير ، كانت بيتا لنا حين كنا اطفالا ننكش اوراقها وغصونها بحثا عن التوت الاحمر الذي كان يلوث ثيابنا فتطعمنا امي علقة مرتبة ، او تحرمنا وجبة فول الصباح .افيق على صوت الدوري وانام على نواح البوم ، الليل عتمة في دمشق القديمة وتينات بردى المارق من تحت الجسر المليء بالضفادع ، يبث في اوصالي رعب الشياطين والجن والكوابيس . هل ترى الشام تلك ، مشيتها شارعا شارعا وحارة حارة ، امي التينة وابي غراب الزرع ، شعري طائر في الريح وعيناي على جبل قاسيون .انظر بردى ، هناك ، هو بضعة مني ، نزلت في مائه ملايين المرات ، شربت على ضفافه وداعبت قيعانه .

تعال نبتعد عن جماعتك هؤلاء ، قالت .دعهم يجلسون تحت ظلال السرو والصفصاف ، دعنا نمضي الى داخل الحرش ، هناك حيث اليمام والشوك والثمار البرية .

لم يعص رغبتها ، فهو ، منذ ان وضع يده على فخذها ، فخذ الغزال ، احس انه دخل في شرك سحرها ، التقى طيره الذي يبحث عنه في بقاع الارض ، من تخت جمشيد الى الفلوجة ، من سوراكابا الى القابون ، عبورا بغايلة وهامبورغ ولندن وقرية الحامضية .عند النهر سماني ، على سفح الجبل قطا ، ووسط مستنقعات القرية بط بري ، لكن في بابل يمامة صادحة على غصن توتة ، والمناخلية خيط ماء مبرقش بالأشن واحاسيس لصوص السوق وباعة العرقسوس .اوف طويلة تطلقها فيروز من مسجلة في الجوار ، لها دورة طاحون وحمرة صبية وهجس بدوي من براري حمص .

تتدرج الضفاف نزولا نحو النهر . العشب اليابس طويل والتراب تحت الاقدام يمتلئ بالنمل والقواقع والاشنات المتساقطة من سيقان طرية وفطر متحلل وعليق بارز الاشواك . اوراق تتراكم بعضها فوق بعض ، رائحة تنبعث من المكان تبث فيها الشمس روح السمك والعظايا التي تناسلت قبل اليوم ودعسوقات القمح والزيتون ورعاشات المياه .وجد الجماعة فسحة واسعة اجتمعوا تحتها ، وجر هو حقيبته ثم تبعها الى الاسفل ، مرورا بالسرو والصفصاف وعين الذيب والتوت .

البنت جذلة بالانفراد به ، لم يخالطها خجل من نظرات الآخرين التي انصبت عليهما . لا يعرف كيف يتكلم معها ، هو في مثل هذه الحالة يستشعر الاشياء الموجودة حوله من ظلال وطيور واشجار وبشر كمادة للحديث .كان مثل حواة الشوارع الذين يستثمرون المارة مادة لتسلية الجمهور .لم يشأ سؤالها عن معرفة مسبقة به قبل اليوم ، او ان شخصا ما كلمها عنه ، فَرَفْعُها للحواجز فيمابينهما اسرع مما توقع .قال لنفسه تمتع باللحظة الحاضرة ، لا تفسد الوصال .تاتا لا ترى ومي غائبة تحت شجرة الجامبو التي عمرت الف سنة وهو بحاجة الى امرأة ، أمراة من دمه ولغته .

تصغره عشر سنوات على الاقل ، لكن ماذا يفيد التخمين ، انه في الشام وهذا يكفي .

هيام تحس نفسها متألقة نظيفة ، وسط الطبيعة . طفلة تلعب في حوش دار وسطه بئر ماء وتوتة ، والعصافير تغني لها وحدها . تحاول ان تحتك بجسده وتشعره برغبتها فيه . تنط من تلة الى اخرى ، من منطقة ناشفة الى منحدر صغير على ضفاف بردى . الشيل نام وكعبها العالي يعيقها احيانا لانه ينغرس في التربة الرطبة .رأت في وجهه تألقا غير طبيعي ، لم تحسه في وجوه الرجال الذين عرفتهم . ثمة جاذبية داخلية ، ورحمة تنثال من الق عينيه وابتسامته وحركاته . لو تستطيع احتضانه ، ارتشاف قبلة من شفتيه .

استمرا بالنزول . وصلا حافة بردى ولم يكن ثمة مكان ملائم للجلوس .قالت نعبر الى الجهة الثانية .قال لها انزعي حذاءك فنزعته .نزع هو ايضا حذاءه ، جمعها مع الحقائب ثم قذفها الى الجهة الثانية .نزل الى النهر ، وقال لها اعطيني يدك . عيناها لامعتان من الاثارة ، في القاع لامست اقدامهما الحصى الزلق والغرين والحصباء ، وكان جريان الماء يدغدغ اقدامهما .كان ينقل قدمه ببطء .يرتكز على صخرة او حصاة راسخة ، ثم يقودها من يدها كي تستقر هي الاخرى وسط النهر .في المنتصف كانت ثمة جزرة صغيرة ، وقف عليها .طلب منها الوقوف معه للاستراحة فوافقت .تلامس جسداهما ، وطوق ظهرها بذراعيه وحاولت ان تتملص لكن لم يكن هناك مكان فركدت بين يديه برهة وهو يقهقه جذلا .من عادته ان لايضغط كثيرا في مثل هذه الامور ، ففلسفته في الحياة كما نَمَتْ لديه تحقيق الاشياء خطوة خطوة . ليس حاسما بافعاله ، لا يسعى الى كمال ، يقوم بالاشياء كما ينبغي ان تكون . فهمت هي اللعبة فجارته فيها ، راقبته اثناء عبوره الى الضفة الثانية ، وحين وقف على الجرف ناولها يده فأمسكت بها فجرّها الى اليابسة . كانت تنظر اليه باعجاب ، ثمة مغامرة في العبور ، اقبال على عمل اشياء غير مألوفة ، وهذا ما عمّق رغبتها به .

اثناء جلوسهما بين الاغصان والاشجار ، وبعد ان اخذ لها عددا من الصور ، واقفة وجالسة ، وافقت مباشرة بعد ان طلب منها المضي معه الى البيت لاكمال السهرة .اراد ان يضمن مجيئها منذ الآن ، لم ينتظر تعمُّق العلاقة .خاف ان تتردد او تعيد التفكير بالامر .اعتبرها ملكه فأخذ يداعب اذنيها وظهرها وهما جالسان على الضفة ، ينظران الى الاوراق المتساقطة وفراش الطائر ، يسمعان هديل الحمام .الماء صاف تحت اقدامهما ، غسلا فيه الخيار والطماطم ، وكانت الحصى تشف من القاع وتضفي عليهما جوا فيه قبس من السحر .بين حين وآخر يبزغ لهما شخص ما من بين الاشجار او ينحدر من الطريق العام .

سألته : هل تسكن وحدك ام مع اصدقاء؟

- وحدي . اجابها ، وأحسّ انها شعرت بالامان .

فاجأهما سلمان عند النبع .رأى ابتسامة كبيرة على شفتيه ، وعيناه كأنهما تباركان مجلسهما تحت اشجار التوت البري والسرو والصفصاف .سيكون الليلة مادة دسمة للحديث في بيت القابون .سلمان يعرف انه متزوج وله طفلتان ، بماذا يفكر ياترى؟جلس بضع لحظات معهما ثم اخبرهما ان الجماعة تلملم نفسها للرجوع الى دمشق .كانت هيام غير عابئة بالوقت ، ترتشف كأسها بين حين وآخر ، تدخن سيجارتها . تحدق بنظرات اهتمامية الى ذرى الاشجار والفسحات الزرق في السماء .حدقت الى الجبل المقابل ، فأوحى لها بكهوف مظلمة سكنتها ذات يوم وليالي بربة عاشتها مع ناس آخرين .بنيران اشعلتها في الليل البهيم ، تخيلت نفسها تدور راقصة حولها بروح مجوسية . تعقد الشال حول خصرها النحيف ، قدماها تلامسان رطوبة التراب والقش الناعم وثمة وجوه لرجال تحدق بجسدها ، تلتهمه . تعرف الوجوه جيدا ، لكنها ترقص لحظتها .

كان يستعجل الرحيل والوصول الى البيت والانقضاض على هذه المرأة الغريبة ، السهلة ، الضامرة ، التي تحتسي العرق في العراء وتسمح له منذ

اللقاء الاول بتقبيلها ومداعبة ظهرها .

الوقت الذي استغرقه وصول مساكن برزة لايعد بالثواني او الدقائق ، بل بالمشاهد التي تخيلها مع نفسه ، والحوارات بينه وبينها وعدد المرات التي سوف يضاجعها والصناديق التي سوف يقع عليها في روح تلك المرأة .ظلت نضال تنظر اليه مستغربة طوال الوقت ، تحدس لم اهملها تماما ، كان يخجل من التطلع بعينيها .زاد من حرجه اكثر وقوفه قرب بيته ونزوله مع هيام امام الانظار . لم يبال بالحدوس والظنون ، انه يمارس حقا طبيعيا له .تاتا لن ترى شيئا ، لن يخبرها احد بالامر ، وثمة حاجة ماسة الى امرأة تبادله اللغة نفسها والاشارات نفسها وخزين الرموز التي عاشها منذ ان كان طفلا .في داخله آلاف العبارات البذيئة التي يرغب بإسماعها لها ، عشرات الايماءات ، القصص الجنسية المحتبسة في صدره ، وليدة الروح الرجالية .

البيت ظامئ الى امرأة بحق ، تغسل الممر ، تنظف الشراشف ، تطبخ ، تزيل غبار الشبابيك ، تشعره بانه كائن مرغوب ، يحتاجه شخص ما في هذه الساعة من ليل دمشق المضيء . تحسه قريبا الى روحها ، اسلمت له مصيرها الليلة ، لم تحس بشيء يريبها . سمعتهم يتكلمون عنه ، رأته ، دخل مهيبا في ذلك اليوم ، ودت لو تلتقيه باللحظة نفسها .جاء لشراء كتب من دار النشر الا انه لم يلحظ وجودها .كانت تختبئ وراء كومبيوترها مثل قطة متحفزة .

اطفأ الاضواء سوى سمعة ، اغلقا الشبابيك رغم الحرارة الخانقة في البيت . حضّرا طبق السلطة واللبن المثوم والخيار ثم جلب كؤوسا من المطبخ .قالت انها ترغب بأخذ حمام .ارشدها الى هناك بعد ان اعطاها منشفة وصابونة وقميصا نظيفا من قمصانه .قالت انها ستغسل سراويلها لانها تجعلكت واتسخت بالطين والغبار والعشب .قال لها هناك طشت في الحمام ، والتايْد عند النافذة . ينظر غير مصدق لسهولة تحركها في البيت

وطيباتها الخاصة . كانت تتعجب من عدم حرجها معه .فكرت انه شخص يمكن خداعه بسهولة ، يمكن ايقاعه في الأحبولة .سنوات الغربة غيرت من روحه ، حببت اليه النساء من لغته وبلده ، هكذا سمعت عن هذا ، وهكذا عاشت علاقات من نمط آخر مع وافدين من اوربا .

خرجت من الحمام تلبس قميصه كاشفة عن فخذيها دون حرج .جلست على الصوفة ، استلت سيجارة ، اشعلتها ثم احتست رشفة من البيرة .قالت لم اغسل ملابسي ، لا املك الرغبة .قال لها سأغسلها لك ، ومضى حالا الى الحمام . وضع الملابس في الطشت وغسلها جيدا ، وعصرها ثم نشرها على الحبل المربوط بين الباب الخارجي والمرآة الموضوعة في اقصى الممر .

تجلس بصمت على الصوفة ، شعرها الاسود متهدل على كتفيها ، تنفخ دخانها بعدوانية ، ترتشف البيرة وتدخن دون انقطاع .لا تتكلم الا اذا سألها ، وحين يتكلم عن امر ما لا تعقب .لاحظ فيها استسلاما غير طبيعي ، كأن الحياة لم تعد تعني لها شيئا .الموت يدلي بأشاراته من جسدها ، فثمة يأس مطلق وسوداوية وهمود ، روح لم تعد تتواصل مع العالم .في الوقت نفسه شعر ان لديها حبا هائلا للحياة ، وقع على ذلك عند النهر ، وتلك المفارقة التي يحملها هذا الكائن جعلته يمتلئ بالفضول وركوب المغامرة لاكتشافها .

في لحظات الصمت التي تمتد طويلا بينهما كان يسائل نفسه عن هوية هذه المرأة التي لم يعد يتذكر اسمها . احس انه من المعيب عليه سؤالها عن الاسم بعد ان رفعت الحواجز بينهما . باسها ولمسها ونكت لها نكاتا جنسية وأشّر لها حركات بذيئة فكيف يسألها بعد كل ذلك عن اسمها؟ قبل ان تعود من الحمام حاول ان يقع على هويتها الشخصية ليقرأ الاسم لكنه لم يوفق .بحث في الحقيبة بلا جدوى ، كانت غاصة بعلب السجائر الفارغة والنقود والاوراق والخرز وقطع البخور واصباغ الزينة ، اضافة الى

كتيب صغير متقادم لجزء عمّ ، اصيب بالدهشة لوجوده في حقيبة امرأة ، اطلق عليها مع نفسه امرأة ضائعة .

لم تمانع كثيرا . استسلمت بصمت . شعرت بعدها بالتقزز . انزلق جسدها عن الصوفة الى الأرض ، رأسها يرتكس في حضنها ، ان تكلمت تكلمت بحشرجة وهدوء ، لاترغب باضافة اية كلمة الى الموضوع المراد ايصاله . في داخله دهشة ، فبعد كل هذه الساعات من التوق للانفراد والملامسات والاقتراب ، يضمهما بيت واحد معتم الا من الرغبة ولغة الجسد ثم تكون النتيجة هكذا . دون اندفاع ودون رغبة بل وفوق ذلك كانت تعابيرها تدل على التقزز . اخبرته قبل ان يناما انه شخص ممل .اما لماذا اطلقت عليه هذا الوصف ، لا يعرف! .

منتصف الليل افاق على صوت مرعب .

الاضواء مطفأة ، السكون مطلق في البيت . بدا له ان الحارة نامت منذ قرون ، والليل على هاوية الفجر المفضضة ، فوق المآذن واشجار السرو واعمدة التلفزيونات في بنايات القصور وابراج الحمام .صوت مرعب لايشبه اصوات الكتب وهي تخترقها الجذور كما صوّرها سلمان ، ولا اصوات الصراصير الليلية او الحيات حين تهم بمهاجمة ضحيتها .كانت نائمة وتحلم .ربما كابوس ، وربما تراءت لها خيالات من ازمان مسبقة لاترغب بتذكرها ، الا انها كانت تطحن اسنانها ، وكان الصوت قادما من هذه المرأة النائمة جنبه ، المرأة التي تأكل نفسها .اشعل الضوء ، ولم تُفق .اقترب منها على رؤوس اصابعه ، نظر في وجهها .ثمة مسحة من الاستسلام على خديها . وجهها لشدة انصقاله لم يكن يحمل اية تعابير ، شحوب فاقع اضطره للتقرب منها وكانت ثمة حركة بالكاد لحظها في فكيها .

قرأ ألما داخليا لايعبر عنه بكلمات ، وخوفا مدفوعا بطاقة كبت غريبة الى الاسفل .معاناة كاد ان يخرّ لها ساجدا ، لم تجد من يتقبلها او يتعاطف

معها فظلت حبيسة نفسها .تجلت في النوم حين ذهب الاطار وفر الاسار وتناءت محاذير البشر وغاب الخوف في طيات النوم .احس بالرعب منها ، صحيح انه اطفأ الضوء الا انه لم يستطع النوم .افاقت في وقت ما ومضت الى الحمام ، ظل مفتّح العينين يرقبها بدقة خائفا .ماذا لو جلبت سكينا من المطبخ وهاجمته ، ماذا لو تبين انها مجنونة ، نعم هي مجنونة والا كيف تأتي الى بيت شخص لايعرف حتى اسمها ومنذ اليوم الاول .ماذا لو طمعت في نقوده ، انها تعرف بقدومه من الدنمارك ، وتعرف ان السواح يحملون دولارات كثيرة ، يبعثرونها بشهر واحد على متع تافهة ثم يرحلون .لم تقتله ولم تحاول مد يديها الى جيوبه .استلقت بجانبه وسحبت الغطاء عليها ثم اندفعت بكل عمق في نومها الهانئ .

ربطته هذه المرأة برباط غير مرئي .

قلق ، متين ، واه ، مصاغ من حب وعهر ونبوءات وبوح وتكتم ويأس .كيف يصل انسان الى هذه الدرجة من اليأس .تساءل مع نفسه بعد كل مرة خرج بها مع هيام .وكان التقاؤهما يوميا تقريبا ، عرّفته على حانات باب توما ، على مراقص دمشق ، باراتها ، حدائقها الجميلة ، وغاباتها القريبة من الجبال .فكرت ذات مرة ان تأخذه الى البحر ، الا انها تراجعت في آخر لحظة رغم انهما اشتريا البطاقات وجهز هو حقيبته في الايام الاخيرة له في الشام .قال لنفسه نمضي في باص الليل ونعود في اليوم التالي فلابأس من رؤية مدينة اخرى .

لماذا جاءت في الثامنة مساء ، قبل موعد انطلاقهم الى البحر بساعتين ، تقول له انها لاترغب بالسفر الى البحر؟ ظل ذلك سرا حتى عودته الى كوبنهاغن . طلبت منه توديعه في المطار فرفض . لايحب الوداعات ، لايحب ان يحتفظ بصور الاعزة في ذهنه لآخر لحظة .ثمة حدة في الوداع لايطيقها .ودعته بقبلة وغاصت في الظلام ، وحين قال لها اكتبي لي تبسمت .ردت بامتعاض قائلة : لقد ربيت كثيرا من العصافير

لكنها طارت من يدي .لم يبق احد .وكان هول من الالم يضمخ صوتها وغيمة من الاندحار واليأس واللاجدوى تسري على صفحتي وجهها الاملس .ثم ابتلعها الظلام ، ظلام دمشق المصنوع من اسرار وحكايات وبيوت سرية وغابات ونخيل وخمور .

٩

المدينة كائن حي يتنفس ويأكل ويضاجع . شجر الزيتون والسحب والنوافذ وصخور الجبل . الاضواء والشجر والبنايات . كل ذلك يشكل ضميرها وذهنها غابة من رموز واشارات . كل ضوء يخفي قصة وكل بيت له اسراره . البشر مثلها ، الواحد منهم له اكثر من وجه وقناع ، يشبهون المدينة التي يعيشون بين جناحيها .كيف يمكن للمرء العيش وحيدا في مدينة مثل دمشق؟ خاصة لامرأة . لاترغب بقضاء ليلة مثل هذه وحدها ، لا تود الرجوع الى البيت ، تريد شخصاً يسامر وحدتها ، ينسيها الرجل الذي حزم حقائبه ، ولازالت لمسات اصابعه مطبوعة على جلدها .الاصابع المشعة ، الدافئة ، الساكبة للطمأنينة والوجد والحب الكوني ، حب كل شيء في هذا الوجود .

قال لها ، مثل غيره : سيراسلها . فسّرت الاشعة الألقة التي اطلت من عينيه ، اول وهلة ، بالحب ثم تراجعت بعد لحظات . لا يعقل ان يحبها رجل لم تمر على علاقته بها الا ايام معدودات .لايمكن ان يحبها رجل ،

انها امرأة منخورة من الداخل ، جثة متحركة تضم الموت بين حناياها ، يتحاشاها الكل ، اهلها وجيرانها ومعارفها .عصافيرها تطير دائما بلا موعد .امرأة تواجه الموت يوميا .لم يترك لها سوى عنوانه . فكيف تبثه هموم حياتها بعد رحيله ، تدبج له رسائل العشق ، والحياء منعها من طلب نقود منه ، كما دأبت مع من عرفتهم سابقا ، من رجال عابرين . احست انه انتمى اليها ، مثلما اي رجل آخر ، هو وبيته واطفاله وتاريخه وزوجته وعشرات الاسماء التي حفظها ، خشبه وزجاجه ، عرانيس الذرة والتمر والاقلام الملونة واطراف الاسرة والمناشف المستخدمة بعد كل مضاجعة .تروي روحه وتتنفس ذكرياته ، تمنحها سلطة الهيمنة على رجل ، ربما هو ابوها ، الرجل المثال ، المرثي بعد المطر والسحب والقيظ والليل ، آن انحساره عن الاشياء ، هو من يمتلك سر القوة وطلاقة اللسان .

لم تصرح لنفسها انها احبته ، ليس بهذه السرعة . لاتستطيع اقناع نفسها بالامر ، رغم انها كثيرا ما اقنعت نفسها بحالات وهمية وامور لم تحدث .تفكر فقط ، تكذب احيانا ، تكذب وتصدق كذبها ، تردد الكذبة بصوت عال كي تثبت في وجدانها ، تتحول الى حقيقة . صحيح ان بعض المشاعر الخاصة تراودها كلما انتظرت مجيئه او افترقت عنه ، لكن لاتريد ان تحب . دفعت ثمنا غاليا من اجل الحب .حبها هوس ، يستولي على حياتها ، يمتص افكارها وخيالاتها ومشاعرها . تريد ان تعيش حياة بوهيمية ، تمتص روح الاشياء ، تعتصر ملذاتها ، تشرب ، تأكل ، تنام في اي حضن تجده ، في الشارع او الشقة او سفح الجبل ، تساوت الاماكن لديها ، مثلما تساوى البشر .

هل هو متصوف حل على الارض بعد جدب؟ ام قطب من اقطاب الشعوذة ، خطف في افقها وسيغادر بعد ساعات؟ مالجسدها يهمد ساكنا بين يديه ، وانفاسها تراودها القناعة؟اي الق يشع من مسام جلده؟

مرت عليها كثير من المواقف بهذا الشكل ، تجاوزتها بالخمرة ، تشرب

كل مايقع تحت يديها من خمور :جن لتسريع السكر ، عرق للانفصال عن الواقع ، جعة للغياب تماما عن الوجود حتى توقظها الايادي الغريبة التي حملتها الى فراش ما ، في بيت ما ، في شارع ما . تختلط الوجوه لديها ، بعد عدة كؤوس ، الوجوه والاحداث والحكايات ، تخف اوزان الشخصيات التي شكلت عليها قوة مهيمنة ، تنطلق من عينيها اللتين تصيران سوداوين عميقتين براقتين اشعة اغراء ودعوة وشهوة .تضاجع اقرب شخص اليها فتنتهي ، تهمد ، تتداعى مثل قصبة ذرة يابسة ، تخف بعدها على الاقل ، وطأة الرجل المطلوب .

لاتود ان تكون صاحية ، تود ان تغيب عن شجر الفلفل البري المظلل لبيته ، عن العيون الناعمة والافق السماوي الذي كانت تطل عليه من برهة حياتها الحاضرة .سألته بالحاح ان يؤجل سفرته اسابيع اخرى ، بعد ان راحت تحس نمو تعلقه بها . لاحظت مقدمات اعجاب وتوق الى البقاء معها اطول فترة ممكنة . رفض تمديد بطاقة السفر ، اخبرها انه مرتبط بعمل وعليه ان يدفع ايجار البيت . طلب منها ان تذكر اي شيء تحتاجه كي يرسله لها من الدنمارك ما ان يجد شخصا قادما الى دمشق .عدّت ذلك منتهى النبل منه ، و لم تأخذ سؤاله مأخذ الجد .

وعدوا وغابوا .

ابتعدت عن البيت ، اختلطت في مخيلتها الاشارات الضوئية باضواء السيارات والمآذن ، كل شيء حلم . الشجرة المضيئة والوجه الاملس والبيت ذو الحمام والاغاني النائحة التي كان يحبها ، اشترتها معه من محلات التسجيلات في مساكن برزة وباب توما ومن تحت جسر فكتوريا . جلب لها كاسيتا بدوياً قال ان جده دأب على ترديد ابياته الشعرية حين كان يجلس حول دلال القهوة العربية ، خلف بيتهم الطيني .شعر بدوي عن فراق الاهل ، والحبيبة المسماة ثريا ، التي تنوح دموعا عنبرا ومسكا والسماء تنث القطر . ذكر لها اسم شخص يدعى عبد الله الفاضل ، الذي

كان يفاخر بأهله ، رغم تركهم له بعد اصابته بالجدري . تركوه مع كلب وفيٍّ ، حارسا عليه خشية ان تأكله الذئاب والضباع في برية الجزيرة .

كان يتذكر اهله عبر ذلك الغناء ، فارقهم منذ خمس عشرة سنة ، كادت تنقطع اخباره عنهم لولا صدف خاصة ساعدته على ربط الخيوط . يعدهم الشاعر البدوي سماء مرّة ومرة برقا ، لايلبسون خدمهم الاسمال ويتركون سمومهم في اجساد العدو . يجري الفخر بثريا العاشقة والاهل والكلب الوفي مع عزف على الرباب . الكهرباء كانت منطفئة لحظتها ، اوقد شموعه ، كشفت اشباح الاشياء حوله ، رأت دمعة تنسكب من رموشه ، تسيل على خده ، دمعة جعلتها تشعر بالميل نحوه في ظلال الكراسي والثريا الصغيرة والخزائن الحديدية الفارغة .

لم يخطر ببالها وجود رجل في العالم بمثل هذه الرقة ، حسدت المرأة التي ستضمه والتي ستضاجعه والتي ستعيش معه تحت سقف واحد . تساءلت ، في السر ، ان كانت عشر سنوات في بلدٍ مثل الدغارك ، كافية لصقل شخص ، جعله يشع مثل جوهرة!!!

ارتسم في ذهنها بيت ماجد ، اضواء مساكن برزة متوهجة ، الهواء حار ، طعم البيرة في فمها والوقت متأخر ، لايمكنها الرجوع الى البيت ، نصف سكرانة . القانون معروف ، لا دخول بعد العاشرة الى البيت ، اذا شموا الخمرة منها ، سيضربها اخوها ويعمل فضيحة في البيت ، يلم عليها الجيران ويتهمها بالعهر .

قاسيون ، اضواء وغرابات ومغارة اهل الكهف ، الصخور والاسلاك والسماء القريبة من الرأس ، مضت الى هناك عشرات المرات ، راجلة اومع سيارات تاكسي وسيارات خاصة ، يعجبها الجلوس في السفح مع كأس من البيرة لتأمل هذه المدينة الضاجة ، القاسية ، التي داستها فساوتها مع الاسفلت .

الى يسارها حقل الزيتون الذي جاءت اليه بصحبة عدد لايحصى من

الرجال ، وبكل الفصول . يعجبها مرأى الاحصنة الراعية في حقول القت والبرسيم ، واشجار التين ورضا النساء المنطبع على وجناتهن ، وهن جالسات امام الابواب ينقين العدس و يتسامرن ، وفي الجوار اطفالهن يصنعون التماثيل الصغيرة من طين الساقية .

السيارات تمر ، تتخذ هيئة كائنات حية ، سيل رغبات رجولية ، بعضها يتوقف ما ان يراها وحيدة ، بعضها يكتفي بالزمور . مشاعرها خليط من الاسف والخلاص والتجدد . هاهي تفقد رجلا آخر ، سيرحل حيث زوجته وبيته ، واطفاله ، يعود كي يمارس حياته هناك ، تاركا لها لمسات حانية لازالت منطبعة على جسدها ، ورائحة جميلة مسكرة ، وحنوا عميقا في كل شيء .

ستعود الى حياتها السابقة . عمل في دار النشر ، زيارة الاصدقاء القدامى ، تصيد علاقات جديدة ، ومشاكل الاخوة والام المريضة . تعود الى قضاء اماسيها مع جارتهم ام سامر . الضيفات ، قارئات الفنجان وخطوط الاكف ، اللائي يتناقلن اخبار المدينة وبيوتاتها ، تجارها وموسريها ومتنفذيها . تقول لها امها : هيام لم لاتجلسين ولو ساعة في البيت؟ تحار كيف ترد عليها ، هي لاتفهم ماتعيشه من بؤس واحباط ، وضياع ، دون رفيق ، دون زوج او اسرة . مجرد مطلقة مشبوهة ، عرفها نصف رجال مدينة الشام .لاتستطيع البوح بمشاعرها لأمها ، لاترغب بالقضاء عليها .لقد ترملت ، ايضا ، منذ عشرين سنة ، وهذا يكفيها .

١٠

ابتدأت هيام حياتها باكرا ، في حارات دمشق القديمة التي تُنضج البنت منذ سنواتها الاولى .تسمع حكايات الجارات المسنات عن الرجال ، عن الجسد الانثوي ، الحيل والاحابيل .تتملى في ذلك الكائن الغريب الذي يشبه أباها ، الكائن غير المفهوم . الشارع بيتها ، والحارات امها وابوها . تتضايق عندما تعتم الدنيا ، يتطلب منها ذلك الرجوع باكرا الى البيت . تتمنى لو ان المؤذن لايرفع صوته مساء والشمس تبقى معلقة على قاسيون ، حين تطالعها المشحتان الورديتان من الغيوم في السماء كأنهما سربا حمام . تضاء المآذن بالنيونات الخضر ، وتثيب الحارات الى عزلتها .

في البيت تحدث مشاكل كثيرة ، خناقات وصرخات وحوارات حادة بين الام والاب ، الاب سكير والام نمرة ، تعتقد انها هي السبب دائما . هي من يرتفع صوتها ، تكسر الكؤوس ، تمسك المكنسة امام الاب مهددة ، تتوعد ، تفرض سيطرتها على الصغيرة والكبيرة . كان الاب والام ينامان في غرفة والابناء في غرفة ، وهي منذ ان وعت على الدنيا تشعر انها

غريبة عنهم ، لاعلاقة لها بهم . تجهل لماذا يتعاركون ولماذا يثقل ابوها بالشراب ، ولايخرج الى العمل ابدا . هناك امر غامض لا تدركه .كانت تنام باكرا ، مهدودة من تعب الجري في الازقة واللعب مع الصبيان والبنات وعمل المقالب في الباعة والمسنين واصحاب العاهات .تفيق صباحا ، تذهب الى المدرسة ، ترجع الى بيتها حين تجوع ، تتمنى لو ان الليل لا يحل .مسكونة بروح التشرد منذ الطفولة ، تسحرها الامكنة الجديدة والاشخاص والغموض ، وكأن كل ذلك جرثومة في الدم صارت تتكاثر مع مرور السنين .

مرة كانت ذاهبة الى الجنينة باكرا ، هيئتها تشبه هيئة صبي ، رأت شخصا حائرا سألها عن بيت ما ، شعرت انها تعرف مكانه او اقنعت نفسها بذلك كي تدبر له مقلبا .لماذا تعجب بالمقالب لاتعلم . ان فيها روحا متجددة دائما .دلته على بناية ، ارادت الانصراف لكنه قال لها تعالي كوني دليلتي ، كأنه هجس المقلب . قال اعطيك ربع ليرة ان مشيت معي الى هناك . صدقت ان البيت في البناية ، وانها ذاهبة لتدله عليه . دخلا البناية ، تتلفت هي بريبة ، قال لها اين يقطنون ، قالت له ، فوق .احست ان هناك شيئا في الرجل ، تريد ان تصل الى كنهه ، تخرج ذلك الثعبان من مكمنه . طلعا الدرج ، وفي آخر طابق وقف الرجل ، مد يده بغتة يريد تشليحها .همت بالهرب ، الرجل صار ثعبانا ، سيلتف حول عنقها ، يخنقها بيديه الصلبتين ، يحرقها بنظراته النارية .اخرج خنجرا ، وكان الخوف كبيرا . ما الذي يدعوه الى قتلها؟ لم تقم بشيء خاطئ ، كذبت عليه فقط .كانت المفاجأة كبيرة لها ، لم تفهم ماذا يريد منها ، بدأ يشلح ملابسه . احست ان هناك احدا سيطلع ، وقبل ان يعرى وسطه فتح باب في البناية فما كان من الرجل الا ان يتركها ويهرب .ظلت في حيرة من امرها ، هل تقول لاهلها ، تخبر امها ام أباها .

حين عادت الى البيت ، بكت ، سالت دموعها على خديها الموردين ،

عيناها لاتثبتان على شيء ، تستمد الشجاعة في البوح من فوهة البئر ومكامن التبن واوراق الزريعات في الحوش .سألها الاب وكان جالسا قرب فوهة البئر المردوم ، يلعب بسبحته البنية الخرز ، عن سبب بكائها ، اخبرته بما حدث . كانا وحيدين في الدار ، طلب منها تمثيل المشهد كما جرى لها .لكن كيف؟ خوفها الحقيقي تجمّع في هذا الشخص الواقف امامها ، الرجل العملاق ، السر الازلي الذي عاشت معه ما ان فتحت عينيها . رأت في عينيه نظرات غير مفهومة ، ليست حبا ولا ابوة ولا قرابة .نظرات تشبه نظرات رجل البناية ، نافذة صارمة متوحشة .امتلأت بالذعر ، ضحك عاليا ثم سكت ، وصار يقوم بنفس الحركات التي قام بها الرجل على الدرج .احتقرت نفسها ، واحتقرت الجسد الواقف امامها ، والوجه الذي احست انها تراه أول مرة . لابد ان جسدها يحمل دما ملوثا بالغواية .

احداث ترد الى ذهنها فتحس بالرعب .احداث تمور في ذهنها بكل الاوقات ، تعوي مثل ذئب مجنون .ذات يوم ايضا كانت جالسة على عتبة الباب ، تتطلع في باعة البليلة يمرون . الاطفال لايثيرون فضولها ، اهلها في الداخل يطبخون الفول ، في الجو رائحة نفاذة لمطر سوف يسقط . ينزل المطر يبلل شعرها ، يغسلها مثل عتبات البيوت واوراق الغار ومآذن الجوامع ، الا انه لم ينزل ، ظل معلقا في الغيوم ، والبرق يتلوى فوق المهاجرين .

جاء شخص يسأل عن جماعة ، قال ان اصلهم من حلب . لم يكن شابا ، قالت له انهم ليسوا هنا .قال الا تعرفينهم ، قالت : لا .قال اعطيك نصف ليرة ، اذا ادخلتني الى البيت . اخذت نصف الليرة وتركته . اشترت البليلة ، وهي تحلم بالمطر الذي سيبلل جدائلها .ظل واقفا في باب الحارة ، حتى المساء ، وحين دخلت باب البيت غادر المكان .لم تستطع تفسير اهتمامهم بها لهذا الحد .ما الذي يرومونه منها؟

اما اكثر ما جذب انتباهها وفضولها فجد صديقتها فاطمة . كانت تزورها في البيت ، تراه جالسا في الحوش وحيدا ، يحدق في الاشجار

والسماء والبشر . تحس بالعطف عليه ، تعجب بماذا يفكر ، وكيف يبقى حيا . جاءت مرة للسؤال عن رفيقتها فاطمة . لم تجدها . لم تجد احدا سوى الجد .قال لها فاطمة ليست في البيت ، تعالي اجلسي هنا في حضني ، انا اعدّك مثل فاطمة واشعر بالضجر والوحدة .جلست في حضنه وشعرت بعظام ساقيه العجفاوين ، قال لها إن فاطمة ستأتي بعد دقائق ، لا تخافي .اعطاها فرنكين لتشتري سكاكر ، وصار يتلمس جسدها ، احست بأنفاسه تتسارع ، ولا تدري لم اصابها خدر غريب شلّها عن الحركة . اخبرت صديقتها بالامر فقالت انه امر عادي هو هكذا دائما معي .

ما لم تفهمه هو : كيف انها تفيق في بعض الصباحات من نومها لتجد نفسها في احضان ابيها .هذا اكثر مايرهقها . لا تفهم لماذا . في البدء لا تأتيها سوى الرغبة في البكاء ، وذات يوم وعدها ان يعطيها ليرة لتشتري البليلة ، قالت الليرة كثيرة على البليلة ، قال لها اشتري سكاكر .في اليوم الثاني انتظرت الليرة ، حلمت بغزل البنات والبليلة والراحة المحشوة بالجوز ، صارت تروح وتأتي كي يتذكر وعده ، لكنه لم يعطها شيئا .بدأت تكره الرجال ، هم لايفون بوعودهم .

جارهم الكهل الذي استأجر البيت السفلي كذب عليها ايضا . كانت واقفة على المغسلة ، تتأمل في المياه المنسابة من الحوض الى الاعشاب القريبة ، اهلها ذهبوا الى الجامع الأموي للتبرك به ، وأخوها على السطح يغازل البنات .كانت وحدها في الحوش .اتى من الخلف ، والتصق بها .لم تستطع الابتعاد ، شُلّتْ اعضاؤها ، بكت وهددته باخبار ابيها . اعطاها نصف ليرة ، بدلا من واحدة فسكتت .

وذات ليلة حدثت مشادة حادة بين الام والاب ، كان ابوها غائبا عن الوعي وكان ينامان في الغرفة العلوية . الجيران رحلوا من البيت الاسفل قبل اسبوع ، وضعت في الغرفة السفلية فراشاً ووسادة وجعلتها غرفتها ، تجلس فيها ليلا ، تشعل الشموع ، تتكلم مع نفسها ، وتحلم بذلك الشيخ

طويل اللحية الذي سينقذها من هذا البيت .نزل الاب مترنحا ، مع بطانيته و فرشته . احست بالرعب ، لايمكن النوم في هذا المكان ، سترى ملايين الثعابين تهجم على جسدها . كان الظلام مخيما ، واصوات الصراصير تسمعها قادمة من الحديقة .لقد تجاوزت العاشرة منذ سنتين .صارت تعتبر نفسها صبية .رائحة العرق تفوح من جسده ، فمه يطلق اصواتا عجماء ، وكانت تهجس ما سيقدم عليه .طلعت الى الطابق الاول ، دقت الباب ، شاهدت النجوم تحنو عليها ، لاح برق في الشمال ، لم يفتح لها احد . الأم تكرهها والأخوة ينظرون اليها باحتقار ، ولا صديق لديها سوى بئر الماء ، بئر الماء والدالية وحيات ارض الديار ووجه ذلك الشيخ النوراني .

نامت على السطح ، دون نأمة . قالت للنجم كن صديقي وللقمر كن حبيبي .حملتها الريح بعيدا عن ضجة السوق ونداءات الفرّانين وضوضاء منظفي الشوارع .رأت نفسها عارية تماما ، تسير تحت مطر دافئ ، كان يزيل عن جسدها غبار الحارات والأزقة وطبعات الأصابع الخشنة .

كانت تشف مثل البلور وتلتمع كأي نجمة في السماء .

١١

سألها ماجد ، بعد ان فتح لها الباب ، غاضبا : من اين اتيت؟

لم ترد . دخلت بارتباك ، صعدت الدرج الى حيث الغرفة . القت حقيبتها على فراشه الخشب ، المبعثر الاغطية ، استلت سيجارة من علبتها واشعلتها .امتصت الدخان بعمق . ضوء الغرفة وردي ، ولا بد انه اوحى للمصباح بلونه الساحرهذا ليدهشها ، كما فكرت صامتة .

ماجد طويل ، ممتلئ الجسد ، شعره خفيف من الامام ، به شقرة ، اسنانه سود من الدخان ، متآكلة في الجانبين ، يحمل في صدره روح ضارٍ من الضواري . لا يثق بأحد ، ضحكه تمثيل وكلامه تهويل وعتابه الغاز ، يكتب الشعر ويصرح دائما انه اهم من يكتبه في البلد . وهي ، لاتعير اهمية لنفاجات مثل تلك ، الا انها لاتستسيغها . تجاريه في اوهامه فقط ، فبالنسبة لها يمتلك هذا الرجل ، دون ريب ، قوة داخلية وهيمنة غير مفهومة . تحب شعره ، فيه شيء غامض لذيذ ، سحر يبثه بين الكلمات والجمل ، حكمة عميقة تستند الى خبرة حياتية قاسية ، متنوعة .خبرته

جاءت من الافعى في حقل التبغ ، والثعلب الراكض على ساحل البحر ، والمدخنة الزرقاء اعلى البيت ، تحت غيمة ماطرة .

بيته يتألف من غرفة واسعة ، جنبها مطبخ واسع ايضا ، في نهايته يقع الحمام ، ثمة ممر ضيق امام الغرفة ينتهي عنده الدرج . البيت يطل على فسحة بين البيوت ، زرعت في ارضها الذرة والدلايات والمتسلقات ، كما تناثرت بعض اشجار البطم في المستطيل الارضي المسور بالاسمنت . السماء وراء الشباك عالية ، تصبح في الليل مثل شاشة حريرية هائلة لأضواء بعيدة ، او لشموس وأراض اخرى ، تقطنها كائنات تحب وتكره ، ترقب البشر خلسة في الليالي .قالت له : احسست بك تناديني فأتيت .

قال لها : لكنك تفوحين خمرة .

قالت : اسناني ملتهبة ، توجعني .

شعر بالتقزز ، قام واحضر لها قنينة من العرق كي تسكت الم اسنانها كما ادعت ، فإذا بها تسأله بغتة :

– هل عندك بخور؟

– كلا استهلكته في المرة الماضية حين شوينا اللحمة على الفحم واحتفلنا بانتهاء قصيدتي القديمة ، قررت منذ ذلك الحين ان لا اشعل البخور في بيتي . الصحن الذي ملأته بالجمر ووضعت عليه بخورك سرعان ما تلوث بالمادة الصمغية وصعب علي ازالة البقعة منه .لم تكن رائحة ذلك البخور طيبة كثيرا ، شممت سابقا بخورا يفتح مسامات الجسد وينقل الانسان الى حالة النشوة الروحية .تلك حالة الدراويش .

صمتت ، اخرجت من حقيبتها قطعة سوداء ذات رائحة نفاذة ، اشبه بالمسك ، قالت انها اشترتها من سوق البزورية . تبدو القطعة مثل قشرة لوزة ، اشعلت عود ثقاب وقربته منها ، ففاحت رائحة لذيذة ملأت الغرفة بأريج اشجار حلمية نبتت في جزيرة ، عند جبل مشجر ، في واد ، حول عين ماء دافقة .ان ما حبب ماجد فيها ، ودعاه الى ابقاء علاقته بها

استسلامها غير المحدود لرغباتها ، حبها للروائح والعطور والزهور الفواحة . فسر الامر بسبب عيشها في القاع البشري ، بين مباءات ونزوات وانحطاطات ، وتلك بيئات يتوق المرء فيها الى براءة الزهور ورقّة الاشجار وامتدادات الافق عند سواحل البحور .

من الاشياء الجميلة التي احبتها في غرفة الشاعر اطلالتها الشاسعة على تلك السماء ، الشباك يجنن والسماء مثوى لاحلامها . شجرة البطم مجمع للدبابير والنحل والذباب والحشرات اللاسعة التي تظل تراقبها ساعات ، ملتفة تحت الاغطية ، ناظرة من الشباك ، حالمة بغد غير محدد .

الايام التي قضتها معه لن تنساها .هنالك شيء تدعوه الجو . كان يوفر لها جوا لايوفره رجل آخر ، الحمام في الشجر والسماء المزروعة بالسنونو وروحه التي اصبحت مثل مغناطيس ، يجذبها اليه كلما ضاقت بها الحياة .كانت ترجع اليه ، الى البيت والنافذة وعلاقته الغريبة معه ، التي انتقلت من الحب والعشق الى الكره ، ثم التقبل والعادة . تعتّق فيها حتى اصبحت لاتتصور نفسها تعيش دون رؤيته .

قالت له : انت اوصلتني الى هذا المصير ، لاتتعب روحك في الخلاص مني . اعتاد هوعلى سلوكها الشاذ . تأتي احيانا في ساعة متأخرة من الليل ، ثملة او متعتعة من السكر ، واحيانا في الصباح الباكر ، في يدها حقيبة سفر ، تطلب منه اعداد فنجان قهوة .تشرح له مغامرتها مع شلة من النساء والرجال ، تخرج الى المسير ليلا ، يتأملون في السرو ، في الليل والنجوم قبل الفجر ويسمعون اصوات البوم ، يحلق عاليا ، والجندب والضفادع في مستنقعات البلاد ، وحين يجوعون يأكلون الباميا من دون لحمة .

تأتي في اي وقت وترحل في اي وقت .

في البدء ، لم يستطع هضم نزواتها تلك ، لكنه بعد ذلك اعتاد ، قسرا ، عليها .وكانت بدورها ، تجلب له الهدايا الصغيرة التي حاول رفضها ،

لكنها اصرت واحس انها تشعر لها بالسعادة .لن يصادر سعادة امرأة محبطة ، ولم يعد يقاوم قبول هداياها .هداياها : قناديل من الخشب ، ملونة ، او ذات زجاج شفاف في داخلها مصابيح كهربائية ، منافض خزفية ، مصدفة بالقواقع البحرية .اقداح خشب صغيرة لم يعرف بالضبط من اين تجلبها ، اذ انها لا يوثق بكلامها البتة ،كما تعلّم ذلك .من ارواد الجزادين والكرستال المصدف والخشب الجاوي ، ومن اللاذقية معقود التين والجبنة . من حمص الراحة ومن الشام ماء الزهر .تجلب ايضا مشارب سجائر مزخرفة ومسابح فضية قديمة .

جلبت له ذات يوم تبغا للف السجائر من الساحل ، قالت انه من اصدقائها .اما من هم اصدقاؤها فلم يعرف الا بعد ذلك بفترة طويلة . في كل فترة من السنة لها نزوة ، نزواتها في الشتاء تختلف عنها في الصيف والخريف والربيع .في الصيف السفر الى البحر ، وفي الشتاء السكر في الحانات ، وفي الربيع البحث عن حبيب ، اذ يستهويها تبديل الرجال .تعتقد ان المضاجعة حياة ، لذلك لا تألو جهدا بممارسة الجنس يوميا والنوم في احضان رجل كل ليلة .

قالت لنفسها : لم يبق شيء الا فوضى الحواس . ستجرب التسكع والعهر والوحدة والعشق رغم انه أكّال للروح . تشطر نفسها الى حزوز ، في كل حز منمنمة منها .

حدثت يوما ماجد قائلة : سافرت مرة في الثانية عشرة ليلا الى اللاذقية ، بالسيارات البولمان الضخمة ، وصلت هناك في الساعة الخامسة ولما يطلع الفجر بعد : بحثت عن مكان انام فيه ، لم اجد ، انحدرت الى الشاطئ ، اعرف مكانا هناك اشبه بكوخ ، كنا نشرب عنده الشاي في الاوقات العادية .مشيت وحدي ، الشاطئ من حصى ورمال ، البحر عملاق هائج ، مرعب . هائج باتساعه ، مرعب بأصواته ومخلوقاته .تقدمت الى الكوخ ، لم اجد احدا .في العادة كان ثمة فتى أصم ينام هناك بعض

الاحيان ، يشتغل صيادا في النهار وعاملا في الكوخ ليلا .لم اعثر على احد . هنالك كراس ، وبقايا رماد في موقد ارضي اعدّ بلا شك لشيّ السمك . رائحة السمك هائجة في ذلك الهدوء والصفاء ، في البعيد لا يبين سوى الامتداد المعتم .لا تعرف ماذا تخيلت .لن تفكر بهذا .اتصدق اني رحت ارتقب الساحل وأحدق في الموج . كان مضاء بالاشعة النجمية المصبّة من فوق ، بين لحظة واخرى اتصور ظهور المسيح ماشيا على الماء .لماذا المسيح وكيف جاء الى خاطري .تخيلته سيبرز مضيء الوجه ، مهيب النظرات ، عيناه حمامتان بيضاوان تفران ما ان يطلع عليهما الصباح . دائرة الضوء ، هالة شمسية تحيط رأسه . كنت انتظر جادة ، وترصد الجهات .

جالسة على الحصى ، بطني تقرقر من الجوع واعضائي مهدودة ، مقرفصة عند حد الماء والماء سيف سائل يتشكل من فضة . نزعت حذائي ، طرطشات المياه تضرب اصابعي وفي داخلي مشاعر غريبة .مرة اتخيل نفسي حصاة في هذا الساحل الابيض ، لها من العمر ملايين السنين ، ترقب النجوم وترتشف البحر ، واخرى وكأني قطرة ماء تترجرج حيرة وذهابا مع الموج . اعيش حلم الاخطبوط والسمكة ، المرجان والاشنات ، قناديل البحر والقواقع النهرية .هل حلمت بالتحول الى قوقعة؟هل راودك الاحساس انك قنديل بحر ، تسبح شفافا بين الغرين والاشنات ، تغوص ملتقطا اشعة الضوء او تنحدر الى الاسفل ، نحو العتمة؟

لا تتخيل كم حياة عشت تلك الفجرية ، كم تقمصا دخلت وكم ميتة متُّ .امامي البحر يشف قليلا قليلا ، تتضاءل العتمة وتبين الزرقة ، وفي الافق البعيد بياض سماء غير اكيدة ، مختلطا برماد البحر ، وقربي الق الفجر وهو يسير على الارض بذرذرات من نور .كل ماحولي سكون ، عدا ديوك القرى المحيطة بالمكان ، ونباح متقطع لكلب بري .لم يخالطني

الخوف ، احسست ان البحر حارسي ، وان صدري ممتلئ بالمحبة .ظل الامر كذلك الى ان افقت على همهمات الاخرس ، ممسكا بسمكة صغيرة لا اعرف من اين جلبها ، كما لا اعرف من اي الجهات قدم وكيف ومتى .وددت من كل قلبي ان يضاجعني الاخرس في ذلك المكان ، لكنه كان خجلا او خائفا ، لست ادري . تلك اللحظة كنت ممنوحة للخصب ، ومتوحدة مع الارض والبحر والاشياء .

لاتقل هيام مجنونة ، انا اعرف ماتفكر به .

لم يفه ماجد بشيء ، اعتاد على قصصها ، وعدم اهتمامها بنفسها ، فهي دائما تأتيه وسخة ، بحاجة الى حمّام ، كأنها قادمة من سفر طويل .

• يعد لها الحمام ، يسخن الماء بالمازوت ، يدخل المنشفة وتطلب منه ان ينظف لها ظهرها وروحها ايضا . اذ انه يلامس اجزاءها جزءا جزءا ، عضوا عضوا ، خلية خلية .يطرطش الماء من الدوش على الاجزاء المنزوية من جسدها التي لايصلها الماء ، وهي مثل حيوان اليف تستسيغ تلك اللمسات وتسترخي تحتها وتقول انها تطير في عالم ملون ، تصعد به الى ذرى الاشجار والجبال ثم السماء لتمتزج بضوء اشهب يطغى على الكون كله .

تمضي ايام لايراها ، وحين تعود تقول له اشتقت الى الحمام ، وهو يعرف ان ذلك شيء لا يمكن لأحد غيره ان يمنحه لها . يعد لها المازة والعرق ويجلس جنبها منادما بصبر ، وبعض الاحيان يقرأ لها اشعاره الجديدة او القديمة .اما اغرب نزوة شهدها فحين طلبت منه ان يجوّد لها سورة من القرآن ، قالت إنها تحب ان تسمع صوته وهو يرتل اللغة ، يخالطها احساس ان ملايين الخرز تتساقط على سجادة فارسية .

ذات يوم كان يقرأ لها واحدة من قصائد الطفولة ، وكان يجلس على الكرسي بمواجهة الشباك وهي تجلس على السرير .أحست وكأنه يستولي على احاسيسها وتغيب روحها ، تسافر معه الى حقول التبغ والارض المزروعة بالقمح والساحل اللازوردي للبحر البعيد خارج المنعرجات

الارضية .يقرأ بعينين متوهجتين تنبعث منهما طاقة داخلية هائلة ، غمّاها كما اخبرها بالتأملات اليومية والسفر في الخيال والمجاهدة ، والمآسي التي رآها . الليل يرسم خلفية ساكنة وراء الشباك .

في اليوم الثاني بعد ان افاقت من نومها ، مضى هو الى عمله ، تركها في البيت . بحثت عن تلك القصيدة فلم تجدها ، لم تره يأخذها معه ، شاهدته جيدا وهو يضعها على الطاولة ، لكنها لازالت تتذكر الروح التي اجتاحتها ، ظنت انه كان حلما او هلوسة ، بتأثير ايحاء ما منه .

من الشباك تطل شجرة الفلفل البري ، بتخاريم اوراقها وهفهفات غصانها ، اشبه بترياق لوحدتها وقلقها ، ايام ما كانت تربطها بماجد علاقة وطيدة . تنام معه اياما ، تطبخ له طعامه ، تنادمه ، تغسل له ثيابه ، في قمة عشقها قالت له اعتبرني خدامة ، دعني فقط آتي كل يوم . رأت عشا في غصان الشجرة ، فرحت مثل طفلة صغيرة ، راحت ترقص في الغرفة ، تصفق جذلة لأن حياة سرية ، غامضة وغريبة تنمو في الجوار .هذا رمز الحب .الشجرة نفسها شهدت الكثير من المشاجرات بينهما ، المشادات الكلامية ، ايام ما كان يكنّ لها شيئا من الود ، او العشق كما قدّرت هي .في ذلك الوقت اكتشف انها لم تكن وفية له ، اكثر احاديثها كان تقصصا مختلقة وهنالك حياة سرية خافية عنه تعيشها .بدأ لايصدق ماترويه له عن حركتها ومواعيدها والاسماء التي ترد في اقوالها ، خاصة علاقاتها مع العاملين معها وعلاقاتهم اليومية في العمل .

جمع صورة جيدة عنها . جمّعها من شظايا كلماتها وافكارها وبوحها الذي عادة ما ترتكبه مثل جريمة اثناء الجلوس على مائدة الشراب .عرف انها تدخن منذ ان كان عمرها خمسة عشر عاما ، خلسة مع صديقاتها .جارتهم كانت تدخن ، وتغري الفتيات الصغيرات بالتدخين ، ثم شيئا فشيئا تغريهن بالجلوس مع ضيوف يأتون لزيارتها ليلا .اطباء ، كتّاب ، ممثلون ، ضباط ، تقدم لهم كؤوس الشاي والقهوة ، يتسامرون فيما

بينهم ، الفتيات يجلسن معهم ويمازحنهم ، وشيئا فشيئا تطور الامر الى دعوات خارج البيت ، المطاعم الفاخرة في الربوة وقاسيون ، الى منابع بردى .جلسات مع كهول او متزوجين مستعدين لدفع الكثير من اجل متعة عابرة مع صبية نضرة . تعتمد القضية على شطارة البنت بعد ذلك ، كيف تدير استثماراتها ، وتعقد صداقاتها كي تحقق ما تطمح اليه من ملبس ومأكل ومشرب ومصاريف للجيب واصباغ للزينة وسفرات الى الاماكن الفائقة الجمال في اوقات تمتد احيانا ليلة او ليلتين ، ويمكن تدبير عذر مشروع كأن يكون مبيتا عند صديقة او اخت تتفق البنت معها او سفرة مدرسية وهمية .

عرفت الصيدلي الذي زودها بأدوية لعلاجات نسائية ، ساعدها في اول اجهاض حصل لها ، ظنت انها ستموت من جرائه . ادخلها الى مجتمع ذي نمط آخر من التفكير ، هو مايسمى بمجتمع رجال الاعمال والشطّار في الربح .عرفت الكاتب ، الذي يقطن على ساحل البحر ، يمتلك جزيرة يرحل اليها بقاربه الخشب ويظن نفسه واحدا من عبقريي عالم الحروف . ضابط الجمارك اشبعها بعد لقاءين بهداياه الفاخرة :عطور فرنسية ، كنزات اجنبية ، علب حلويات معجونة بالبراندي او الشيري والسجائر الفاخرة .غيرهم التقت بالكثير في بيت الجارة ، لازالت تحتفظ بارقام هواتف بعضهم حتى هذه اللحظة .كلهم يقولون لها اتصلي ما ان تحتاجي الينا ، وهي نادرا ما رفعت السماعة .

١٢

حكت لماجد طرفا من قصتها مع الرجل الذي رحل الى كوبنهاغن ، قال لها : انتظري ما يحصل ، سأقول لك ماذا تفعلين .الغريب انها لم تكن تتحرج من بوحها ، بل ولا تهتم فيما اذا كان يغار عليها ام لا .تجاوزت علاقتهما حال الغيرة والخوف والطموحات الشخصية والتعويل على اشياء خاصة ، بعد ان تركها مرة مع واحد من اصدقائه في بيته ومضى . ظلا يشربان ، سوية ، هيمن عليها بأحاديثه عن اليابان وفرنسا والجزائر ، شدهتها وجنتاه الشبيهتان بوجنتي طفل وضحكته الصافية المعبأة بالبراءة .نالها الصديق تلك الليلة وعرف هو ذلك ، بعد رجوعه . وجدها بشلحتها البيضاء ممددة على الصوفة ، تدخن بمتعة .

بعد تلك الحادثة فكرت انه فعل ذلك كي يتخلص منها ، كي يجهز على آخر امل لها بانه يعتبرها صديقته الخاصة .كانت لا تعير اهمية لما يفكر به او بما يصفها ، فهي تتبع متعتها دائما ، دون ان تحسب حسابا للقيم الاجتماعية او رأي الناس المحيطين بها .هذا ما سبب لها اشكالات كثيرة

وعقدا نفسية لاتحصى .من جانب كانت تطمح الى الحفاظ على موقع اجتماعي وسمعة نظيفة ، ومن جانب ثان تعمل ما يروق لها دون التفكير بالعواقب .

اتفقت مع ماجد على لعب لعبتها ، قالت له : رغم اني هويته وملت اليه لكنه يبدو غرا يمكن استغفاله ، شعرت بميله الكبير نحوي وتعلقه باشيائي ، بشعري وجسدي . اولئك المغتربون انقطعوا طويلا عن بيئتنا وهم يشتاقون الى امرأة من جنسهم ولغتهم ، المرأة الاجنبية لاتوفر اشياء مثل تلك ، لاتقيم وزنا للرجل . كل يوم في بار ، تخون زوجها وصديقها في أي وقت تشاء .

كان ماجد يرغب بهذه المؤامرات ، في قرارته يحتقر الاثنين ، هي وصديقها المغترب رغم انه لم يره .صارت بالنسبة له جسدا فقط ، يضاجعه ، يتسلى به ، يطل من خلاله على اسرار اصدقائه والآخرين الذين تمارس معهم الجنس .فضوله قاتل ، يعد المعرفة قوة ، ان تلتقي شخصا تعرف عنه اكثر مما يعرف هو عنك . يعيش وحيدا ايضا ، وكثيرا ما تمنى في لحظات الاختناق والسأم ان يجد اي شخص يتكلم معه بل اي شيء ، عنكبوتا ، ضفدعا ، مذيعات ومذيعي التلفزيون ، الصابونة والحذاء .حين تأتي اثناء مروره بلحظة ازمة من تلك اللحظات يحس وكأنها هبطت اليه من الجنة ، يحتضنها احتضان عاشق حقيقي ، تعجب هي لذلك ، فهو يطردها دون رحمة في اليوم الثاني .

وهكذا تم الامر .ماجد مازال مفيدا لها ، حكمته على وجه التحديد .

مثّلت الدور منذ اليوم الاول الذي وصلت فيه رسالته ، الرسالة الاولى في حياتها التي تصلها من دولة اجنبية .عادة يطأها الرجال ويرحلون ، لا احد يظل طويلا معها ، مثل كرة تتقاذفها الارجل ، كرة نارية تحرق الاقدام ، لايستطيع الرجل الاحتفاظ بها طويلا ، يقذفها ، بعد لحظات ، بأقوى عزم يملكه .

رسالته تقول : من يستطيع الفصل بين الصداقة والحب؟ هل يمكن عقد صداقة بين امرأة ورجل دون ان يمارسا الجنس او يحب احدهما الآخر؟ الصداقة تشترك مع الحب بالميل ، ميل الفرد الى رفيقه لكن في لحظة خاطفة تعبر تلك العلاقة الخط الفاصل بين الميل والصداقة والحب .عندها يصعب التفريق بين الاثنين .لقد وصلت معك الى هذه الحالة في الايام القصيرة التي بقينا فيها سوية .كنت اعد علاقتنا صداقة مؤقتة بين رجل فارق الشرق عقدا من السنين وعاد الى الجذور ليقترب من امرأة لم يعرفها سابقا .

كيف حدث الامر بهذه السرعة ، هل هناك شيء غامض وسريّ فيك ، ام ان السبب يعود الى غربتي؟ اراك في كل ماحولي ، في المرآة وعلى جدران البيت والشبابيك والسماء القطبية التي راحت تبرد قليلا قليلا ، والاثاث والتلفزيون الاسود .احاول نسيانك بالنبيذ والخمرة والجعة ، اغيب عن الوعي والوجود ، عن الحياة التي لا تنوجدين فيها .هل تصدقين انني كنت اتطلع في وجوه النساء حين امشي في الشارع او ادخل سوبرماركتا كي اراك ، وكثيرا ما توهمت انني المح شعرك الفاحم المتطاير وبشرتك البرونزية وعينيك السوداوين لمحة خاطفة ، افيق بعدها لأضحك على خيالاتي وذهني ، لان ذلك لايمكن ان يحدث .كيف تعبرين الابحر السبعة وتطيرين فوق الجبال العالية وتنطين المفازات لتصلي الى ارض الفايكنغ ، باشجارها البلوطية وبطها البري وبحيراتها الالف؟

وحيد في هذه البلاد ، الوحدة ترهق روحي ، املك الكثير من الاصدقاء الا انني لم اعد استسيغ الجلوس معهم ، لعبة الورق ماعادت تستهويني ، صرت اهرب من الشوارع والحانات ، من المتاحف والسينمات ، من الحدائق وحفلات اصحابنا لاعود الى البيت .كرستيانا لا تغريني ، شارع المشي في كوبنهاغن اجده موحشا ، السينما افلامها عذاب ، البحيرات صحراء من ماء يحيطها بشر يبادلونني العداء .اشتري

نبيذي ودخاني ، اضع الطعام للقط بيليه واغلق عليّ باب البيت .اضع شريط شادية الذي اهديته لي قبل ان اسافر بليلة واحدة ، واسكر . اسكر وادخن واحلم بك . بشعرك ، بابتسامتك ، بقدميك البليلتين عند عبورنا بردى ، بصوتك الراعش وابتسامتك . ربما نلتقي في يوم ما ، في مكان ما ، اليد الواحدة لاتصفق والجبل لا يلتقي الجبل ، الا اننا بشر نمتلك ارادة ورغبات واهواء .

كنت البارحة في المرقص ، سكران من الشوق اليك والضجر ، اكثرت من الخمرة ، خلطت فيها : جن ونبيذ وبيرة وسنابس ، راقصت امراة في الاربعين من عمرها ، فأحسست انها رغبت فيّ ، فرحت اراقصها كل دورة الى ان انتهت الامسية .كانت مع صديقتها ، جلست معهما ، رحت امنّي نفسي بليلة رائعة ، اجسد الاوضاع والرغبات ، احس التأوهات وارى الاعضاء ، في اختلاط عجيب . طرحت الفكرة عليهما ، قالتا : هيا نمضي سوية .اوقفنا تاكسيا ومضينا .تسكنان في آما ، وهي جزيرة ملحقة بكوبنهاغن ، تتصل بالعاصمة عبر جسرين احدهما متحرك تمر من تحته السفن الصغيرة والباخرات .

وصلنا والساعة تقارب الثالثة صباحا ، انتظرتا مبادرتي لحظة بالدفع .لم اكن اقوى على دس يدي في جيبي من السكر . ضاق صبرهما ، دَفَعَتْ صاحبتي التي راقصتها على كافة الانغام ، مابين الفرقة الموسيقية والباب المؤدي الى دورة المياه .نزلت وراءهما . الاشياء غامضة رجراجة تحت باصري والنوافذ ابحر بعيدة الغور واستغربت انهما كانتا مسرعتين اكثر مني .لم استطع اللحاق بهما ، فتحتا الباب ودخلتا .كنت مطمئنا الى رفقتي ، لكن هالني انصفاق الباب في وجهي ، وانسدال الظلمة في الداخل ، كان الجو صقيعيا .لبثت واقفا برهة ، سائق التاكسي يتطلع فيّ .انه باكستاني ، عرف بالنيّة او فهم خطابهما فلبث ينتظر .لم ادق الباب ، تراجعت كسيفا خجلا ، فتحت باب السيارة ، القيت جسدي

وتعبي وأسفي على اسفنج المقعد .

قال لي السائق مواسيا : هذا يحدث كثيرا هنا ، كان عليك ان تدفع الاجرة .

لم ارغب الحديث معه ، كل ما تفوهت به انني قلت : انطلق الى فلبي .

تلك ليلة من ليالي هذا البلد .

اذهلتها الرسالة . لم تتصور انها جذبته الى هذه الدرجة التي يتكلم عنها .هو ، بالنسبة لها ، تجربة عابرة ، تجربة ليست خاصة ، نسيت بعدها كثيرا من تفاصيل جسده ، ومشاعره اثناء المضاجعة ، رغم انها تعتمد عليها في حب الرجال . صفات السرير ، كما دأبت على تسميتها .

اخذت اجازة بقية اليوم وطرقت باب ماجد . عيناها متوهجتان وشعرها محنّى ، يعكس لونا زهريا ، تود ان يرى ماجد وهجه الكوني . فتح لها الباب ، قالت له : سنحتفل اليوم ، نعد الفخ ونمضي في اللعبة .سأرد عليه برسالة ، تساعدني فيها .اعطته نقودا ، طلبت منه الذهاب الى البقّال وجلب قنينة ريّان ، مع اللبنة والدخان ، بينما شمّرت هي عن ساعديها ومضت الى المطبخ .الخيار قشرته وقرضته قطعا صغيرة ، البندورة قطعتها قلامات ، اضافت الثوم مع زيت الزيتون الحلو .عصرت ليمونة في الصحن ، اضافت الملح ، تناولت ملعقة صغيرة تمطقت بعدها من اللذة ، ثم حملت الصحن ووضعته على الطاولة في الغرفة . جهّزت الكؤوس والثلج من البراد ، ارتدت منامتها الزهرية الطويلة ، وقفت امام المرآة .مشطت شعرها ، صبغت وجهها ، طلت شفتيها بالطلاء الاحمر ، دست يدها اخرجت قنينة عطر مثير ، رشت قليلا خلف أذنيها وعلى رقبتها .

تدخن ، تنظر الى الرسالة الموضوعة على السرير ، تراها ملفوفة بحزمة من الذكريات ، كادت ان تختفي تفاصيلها .تحولت الى حلم بعيد ، يطل منه دائما ذلك الكهف الفاغر الفم المحاط بالصخور ، تنمو على فمه اشجار

السرو والاثل .

قال لها : لابد ان عمره مليون سنة على الاقل .اما لماذا المليون فلا تعرف .كهف اللذة والمغامرة الوجودية والعشب المتيبس والاشكال المرسومة على البازلت . ثاء للثور ، جيم للجمجمة ، حاء لحية الادغال الملتفة على غزال الرنة ، هاء الباسقة بين اعضاء الرجال . البطات البريات سابحات في مسيل بردى ، وهما يجلسان على الكراسي الخشب ، تنظر اليه غير مصدقة بصفاء عينيه ورقّة ملامحه .لم يسألها عن حياتها الخاصة ، كأنه يبعدها ، إيحاءً ، عن حياته هو . تكلما عن الاشجار والطقس والروايات والحياة في اوربا ومقارنتها بالحياة في الشرق ، لم يدخل في تفاصيل حياته الشخصية . ظل حذرا من الاقتراب منها الا انها استنتجت انه يمتلك اسرة . الرجل المدعو سلمان ، الذي رافقهما في السفرة المشؤومة تلك يكنيه باسم بنت ، وهذا يعني انه يعرف وضعه الزوجي .

سألته مرة حين كانا معا في عين الخضرة عن الموضوع فأجابها اجابة غامضة .

قال لها : لايتزوج من يعيش في الدغارك الا اذا كان مجنونا .

فهمت انه اعزب او على الاقل اراد ان يفهمها ذلك .

كانت جالسة على الطاولة حين رجع ماجد . اخبرها ان الجو راح يبرد ، وان غيوما في السماء حجبت النجوم والمجرات . راح الهواء يبعثر الاغصان في اشجار الحديقة .كانت تشرب بلهفة ، تدخن بشراهة ، تحدق في الليل وترسم الخطط .عليها ان تكتب رسالة تمشي في سطورها على حافة السكين .لاكلمة زيادة ولا كلمة نقصان . عينا ماجد ترصدان حركتها الموارة في داخلها . كف عن سؤالها ، اجوبتها كاذبة .حنانها مضلل ، احزانها زائفة ، دموعها مياه خديعة سكبتها غيوم روحها الدخانية . هكذا رسمها وهو يخرق كيانها الانثوي بعينيه الصقريتين .

لم تكن تطمع بشيء من ماجد ، انه لن يساعدها .لا تنتظر منه شيئا

فهو ابن ارملة ، هي اكثر خبرة منه ، ولطالما غشته ايام علاقتهما .عليها ان ترسم طريقها بنفسها .قامت من الكرسي ، وقفت في الشباك .رائحة المطر ، معلقة في الاغصان ، اصوات ليلية تأتي من الحديقة ، صرّار الليل والبوم في الشجر ، والسماء تبرق في مكان ما من الأفق .انها تنظر في السواد المطلوس بالنجوم وتحلم . تحلم بالمضي بعيدا عن هذه الارض ،البيت المسوّر بالرجولة والام المريضة والعلاقات الكاذبة والمفضوحة والضجر .تهرب من اليأس المستولي عليها ، الساعات المحشوة بالوحدة والحنين الذي لاينقطع .كم تود لو تخلصت من هاجس الحنين في صدرها . تتخلص منه لانه لم يعد موجها الى شخص بعينه ، تعدد الشخوص واصبح الحنين مجردا ، يأكل صدرها ليلة اثر ليلة .

روحها تفر من جسدها ، انها فراشة ليلية تبحث عن ضوء . بوم يتوق الى الكهف لكن طبيعته تعيقه .القطرات الناعمة تهمي من فوق ، من تلك العالم المليء بالاماني والاحلام والادعية والارواح السابحة بخوف في المجهول .تود ان تطير ، تقفز من الشباك العريض معانقة المطر والبعوض والطيور الليلية وأفق النجوم . تشلح منامتها ، تتعرى .كرعت كأسا كبيرة من العرق الريان ، احست بالاشياء تزهر من حولها ، السرير العتيق والصور المعلقة على الجدران والخزانة الحديدية والمروحة . وتلك الوجوه الغريبة التي يعلقها ماجد في اضيق المساحات .عين تغمزها ، شفتان تبوحان بسر لا تضمه الكلمات ، شعر يتحرك رغم انه مؤبد في ورقة ، وتعابير تموج بالأفكار . البقع في السقف تتحول الى زهور وعناقيد وأوراق وحانات مملوءة بالبشر .

مشت خارج الغرفة . وقفت في الممر . مدت يديها لتلتقط قطيرات الماء .تصاعدت في دواخلها نشوة هائلة . كان صدرها يتمدد ، يكبر ، يسوّر البلوط والسنديان والنهيرات والكهوف ودوالي العنب والطرق الترابية والعشب . تتسع روحها لتضم هذا الوجود .نزلت الدرجات وفتحت الباب

الخارجي .

توغلت في الليل ، داخل الحديقة ، خارج المألوف ، رآها ماجد من الشباك .تطير ، تفرد يديها وترقص بين نباتات الحديقة واشجارها . وجهها مرتفع الى السماء والمطر المتساقط بين الشجر . تدور على نفسها ، تتسلق السيقان ، تنظر الى الشباك .داخله خوف كبير ، لايرغب ان يراها الجيران .الساعة جاوزت الحادية عشرة ، الاضواء مطفأة في البيوت .النوافذ معتمة ، لكنه يخشى من اطلالة احدهم .ستسبب له مشكلة ، جاره الى اليسار رجل متدين ، امرأته لاتخرج الى الشارع دون غطاء رأس . جاره الى اليمين منغلق على نفسه ، هو وابناؤه البالغون وزوجاتهم الكثر .صاحب البيت يقيم في الطرف الثاني من الشارع ، تحته تقريبا .

همس لها بصوت خائف :ارجعي هيام ، ستسببين فضيحة .

لكنها بدلا من العودة طلبت منه النزول ومشاركتها المتعة .

قالت له انزل وتطهر بالمطر ، ازل من روحك الحقد والغل على البشر .

تعال نَطِرْ سوية .

نزل مرعوبا ، امسكها من ثوبها ، جرها الى الاسفل . تروم الصعود الى شجرة الفلفل البري .قالت بصوت راعش ان فيها عش يمام ، تود رؤية اليمامتين المتعانقتين . حمامتاها رمز الحب والوفاء ، الصورة الرومانسية لما يجب ان تكون عليه العلاقة بين رجل وامرأة .قاومته ، وركب رأسها شيطان عاقٌ لم يره سابقا في عينيها .ظن انها متأثرة لرسالة صديقها من الدغارك ، وود كثيرا لو رآه ، يقارنه بقدراته الجسدية والروحية .قالت إن لديه جاذبية خارقة .كيف ومن اين اتى بها ، هل يمارس تحضير الارواح والتأمل والرقص المجنون الذي يخض الجسد؟ يود لو يعرف .قالت انها تريد ان تخدعه ، لكن يبدو انه اثر بها على وجه من الوجوه .

كان يجر جسدها نحو البيت . تقوم ، تعتدل ، تريد ان تتوحد مع المطر ، مع الليل ، مع الزمن المنقضي على هذه الارض .لم يحتمل اصرارها على

الفضيحة . تصاعد في داخله غضب عارم . حملها بين ذراعيه القويتين وقذفها الى السرير ، فأنّت متألمة ، وراحت تبكي . انها وكما حسب ذلك لم تعد مسيطرة على وعيها .سكنت بعد لحظات ، غطاها باللحاف وجلس عند الشباك يدخن .

كيف يمكنه التخلص نهائيا من هذه العاهرة ، المرأة التي ركلتها الارجل وتريد التشبث به لانه يعاملها بانسانية؟مضى يكتب الكلمات بقلم مسنون ، توغل في برية من الحروف ، مضمخة بمطر الخريف .

بدأت تطحن اسنانها ، ماضية في غياهب احلامها ، الاحلام التي تختلط و تتضح ، كما لو كانت تدور حقيقة ، تعيشها كاملة ، تجد نفسها في بيتهم في المناخلية .الغرف العديدة ، الظلام المخيم على طيور البوكالبتوسة ، القطط الراكضة فوق السطح .ثمة صوت في حوش الدار ، خطوات ، انات ، وباب يفتح ثم رجل يدخل .يغمغم مخنوقا ، يمضي الى الحمام ، يبول ، يتجه الى الغرفة التي تنام فيها .

انها صبية ، لم تعبر العاشرة . تتكور في السرير ، رائحة الخمرة النفاذة تملأ الغرفة ، ذبذبات غريبة تقترب منها في الظلام .تكبت خوفها ، تكز على اسنانها ، تبلع صرختها وتدفع بها الى اسفل البطن . تتفجر رشاشا من البول الساخن يلوث سروالها .تغيب ، يبلعها الليل واللمسات الثملة والحرارة الفائرة ، لتستيقظ في الصباح واجدة نفسها في سرير والدها .تغمض عينيها ، لا تريد ان تتحرك .لا تريد ان تتذكر ، التفاصيل سكين يخترق قلبها ، لكن الضوء يصر على الانفراش على وجهها .

تندفع جرأة غير طبيعية الى رأسها ، تفتح جفنيها ، ترى شجرة خضراء عليها رف من الحمام .ابعد من ذلك بقعة زرقاء رقشتها غيوم بيض اشبه بقبضات اطفال رضع . ومن اسفل ، من حوش صاحب البيت تتصاعد تغاريد عصافير حب ، تحملها الى جنة اليوم .قربها ماجد ، دبٌ سابتٌ ، وعليها ان تمضي الى العمل ، علها تجد رسالة بانتظارها .

١٣

لم يتصور وصوله الى الوضع الذي هو فيه .عليه ان يختار مابين المدينتين . مابين بردى وبحر البلطيق ، التفاح الخالي من الطعم وتين دير عطية ، ورود لسان الثور والنرجس الباعث لعطره في ازقة الشيخ محيي الدين بن عربي . يتذكر منها شبابيك بيوتها المغلقة على الاسرار والاثل المعمر ، تزاوج بين اغصانه اليمام جيلا بعد جيل .كيف يمكنه الاختيار بين عالمين متباعدين : بيته في محلة فالبي وصداقاته وارتباطات العمل والدراسة ومخططات السفر ، وبين مغامرة الدخول في عالم امرأة غامضة . هندست لقاءها الصدفة .قذفت بها لحظة عابرة في طريقه ، فيما كان يمضي مع معارفه الى ضاحية دمشقية تنزوي بين الجبال .امرأة هيمنت عليه بحضورها ، جذبته الى هاويتها ، لم تغادر عقله منذ رجوعه الى مطار توسترب . يفكر بها ليلا نهارا ، رغم انه لم يعرفها اكثر من عشرة ايام هنا ، كما فكر عميقا في الامر ، تكمن غرابة القصة ، واغراؤها .

كيف لامراة لم يعرفها سوى تلك الفترة القصيرة ان تهز استقرار عشر

سنوات . تجتث الفة البيت ، عاداته ، مشاريعه من الاساس ؟ تلغي تاتا كلية من قلبه ، بات مقتنعا ، خلال زمن قياسي ، ان تاتا والبنتين سهير ومي ، البيت وبيليه القط ، الحديقة وشجرة الكرز ، لم يعد لها اي موقع في ذهنه .لم يعد ذلك ينتمي اليه ، او يخصه . تلك الاشياء ميراث شخص آخر ، ينتمي الى زمن يمكن له ان يسميه زمن ماقبل دمشق . قبل ان تأسره تلك الساحرة .

فارق دمشق عشر سنوات ، كان يعتقد انه وصل ، خلالها ، الى حالة من الاستقرار الروحي والطمأنينة الداخلية يصعب زعزعتها .ايمان استطاع اشادته خلال سنوات من العمل على نفسه ، في كوبنهاغن .كانت من وليدات ذلك الايمان البيت ثم المرأة التي يستقر معها في ذلك البيت .يعيش جوا اسريا افتقده منذ خروجه من بغداد .قراءة مكثفة للغة الدنماركية ، تسكع لايرتوي في صالات الفن والموسيقى ، مسحورا بالقناع من زامبيا والطبل من مدغشقر ، الزرافة المصنوعة من عاج الفيلة تخبئ خلف ذيلها قطا بريا من جزيرة تقع امام ساحل العاج ، ورقصة سامبا من ميجراوس . التهام الكتب ، روايات وقصص واشعار ودراسات ، سماع موسيقى الكلاسيكية ، السمفونيات خاصة .دراسة معمقة للعلوم الروحانية وتطبيقاتها .

الاورة من جبال السند والمساج من هاواي ، والشاماني يغلق روحه على الضوء ، فالنجمة قبة روحه والتراب مادته .عاهد نفسه منذ ان وطئت رجلاه ارض الدنمارك ان يتعلم شيئا جديدا كل يوم ، للوصول الى حالة الاكتفاء الذاتي مع الروح ، دون رغبات ، دون طموحات كبيرة . كثيرا ما حلم ان يتحول الى صخرة ، لاينتظر شيئا من الحياة ، يعيش الحاضر كما هو بكل مايمتلك من معرفة وتوهج واندفاع . ملحمة كلكامش ترد دائما على لسانه :ضاجع الزوجة التي بين احضانك ، داعب الطفل الذي بين يديك ، املأ كرشك بالطعام ، تلك هي الحياة .بدأ يميل ، في الآونة

الاخيرة الى الحكمة ، بعد موت ابنته سمارة .

كلمات الملك كلكامش ، التي قالها قبل آلاف السنين ، رايته وصولجانه . يكفي انه حي يرزق ، يمتلك بيتا فيه طاولة طعام وسرير للنوم وتلفون وثلاجة مليئة وزوجة! الا يكفيه ذلك في عالم مليء بالحروب والكوارث والهجرات والاحلام الكبيرة غير المتحققة والجشع الذي لايحد لجمع المال واقتناء الملابس وامتلاك الاشياء!!

كثيرا ما تخيل مقتله خلف ساتر ترابي على جبهة الحرب ، جمجمته تندس بين التراب ، بيضاء ملتمعة الاسنان ، اوهيكلا عظميا محترقا في شاحنة او دبابة او دراجة نارية . نار وبارود واشعة وذبذبات لاتراها العين .الباشق في السماء والدودة في الارض ، ومابينهما خيالات وموت واوهام .اما ثلوج الجبل التي عاش فيها زمنا وحقول الالغام التي مر بها ذات يوم فكادت ان تكون قصة طريفة لموته .ذلك ربما ماجعله يميل الى الحكمة والعيش في الحاضر .

كانت المرأة ، التي جهلها طويلا في حياته المنصرمة ، من اولويات تلك الدروس .هي الحاضر الذي ينبغي عليه ان يعيشه .حين تعرف على تاتا ، القادمة من سانباولو لرؤية بلدان الجليد ، احس انه وجد ضالته ، في ان يخلق اسرته الخاصة . يعيش مثلما عاش ابوه واعمامه واقرباؤه يوما ، دعة الغرف والمطبخ والوجبات اليومية وحرارة العناق في ليالي الصفاء والبرد .

جذبه الى تاتا شكلها الشبيه بالنساء الشرقيات ، سمرة خفيفة ، شعر أسود خشن ، عينان سوداوان متلامعتان بالشبق والحنان .الجنون والنزق وجسدها الممتلئ الشبيه بالقهوة البرازيلية .العطر ونظافة الوجه والعادات الشرقية التي كانت تذكره بعادات امه وخالاته .كانت تعشق جسده ، تعشق ملامساته الحانية ودلاله لها ، وذلك الشموخ البادي في روحه وصلابة الرأي التي يحملها ، حين تكون معه في السرير تعامله كما لو أنه

اله للجسد واللذة والجنس .

فكر ان الاقتران بتاتا اقتران بمخيلة كاملة نمت لديه منذ ان كان في بغداد :اميركا اللاتينية .مقهى البرازيلية في شارع الرشيد الذي طالما جلس فيه صباحا ليحتسي القهوة او الشاي ، الخلاسيات المولودات على سواحل باهيا ، لعب معهن وضاجعهن ، ضحك لضحكهن او خاف لرعبهن الليلي في روايات جورج امادو الذي لم يترك شيئا عن شمال البرازيل الا وحكى عنه .الامازون ، الهنود الحمر ، سحر الماكامبو ، الاقنعة الافريقية المعلقة في الدكاكين ، العرب الجوالون الذين يبيعون الخرداوات على الفلاحين والزنوج والصيادين ورعاة البقر . الاغاني الساحرة التي كثيرا ما سمعها في الكرنفالات العظيمة التي تعرض في التلفزيونات والصحف الملونة .

تاتا مخيلة ممزوجة بالسحر والغموض والمغامرة ، الجزء الآخر من روحه ، المتواثب ، النزق ، الباحث عن الجلال والتشرد والحب والآفاق غير المرتادة من قبل اصدقائه واقربائه . يؤمن ان الحياة فرص ومتع ينبغي ان تعاش ، لا فرق ان يعيشها في الامازون او الجزيرة او بغداد او دمشق او كوبنهاغن .

اخبرته في واحدة من لقاءاتهما الاولى انها تعيش وحيدة مع قط اسمه بيليه ، على اسم اللاعب البرازيلي . قالت انه صديقها الوفي الوحيد في هذه المدينة ، تلعب معه ليلا ، بعد رجوعها من العمل ، تتكلم معه ، تتطلع الى عينيه ، تقرأ مايدور في رأسه الصغير . قالت انها اشترت له سجادة صوفية مخصصة للتعليق على الجدار ، يجرب بها مخالبه .هو ، بعد كل شيء ، روح تؤنسها حين تطبق الجدران على ذكرياتها وخيالاتها وغربتها .

زارها في البيت . رأى بيليه بفرائه الاسود . تذوق الطعام البرازيلي وسمع اغاني فولكلورية ورعوية ، أحس انه يعيش طقسا جديدا ، لم يألفه . اكثر مالامس روحه تلك الليلة قيام تاتا بقص اظافره وبردها وتلميع وجهه بالزيت . تلك هي المرة الاولى التي تنجز له امرأة هذه الاشياء .حتى

امه لم تقم بما اقدمت عليه تاتا ، فقرر ان يحبها . يبني معها اسرة تدوم حتى انتهاء الحياة .

توغل فيها كما يتوغل في رواية ممتعة ، لايريد لها ان تنتهي . يقرؤها بتريث ، جملة جملة وسطرا سطرا . يغلقها ، لحظات ، ثم يسرح به الخيال ليعيش المشاهد من جديد او يملأ الثغرات في الفصول والاحداث .عاشقة للورود والموسيقى والطعام ، يستثيرها الجمال لأقصى حد وكأنها مخلوق اثيري هبط من فيضان نجمي بمجرة من مجرات هذا الكون الغاص بالاسرار .على يديها عرف غموض القطط ، عوالمها المعبأة بالرموز والاشارات ، النظرات الموحية والحركات ذات المعنى .تلامست روحاهما من خلال رحلات قصيرة كانا يقومان بها الى سواحل كوبنهاغن المحاطة بالاشجار والحدائق . قرب البحر الذي لا يبعد كثيرا من بيته ، وفيما كان الموج القادم من شواطئ السويد يرتطم بالصخور ، قالت له ان فمك جميل .جميل وشهي ، وعدّ ذلك جرأة منها .

يجلسان في الصيف على الرمال او يختاران مكانا منزويا في غابة من الغابات ويتكلمان عن ماضيهما ، تجاربهما ، طفولتهما واشجانهما وافكارهما نحو الحياة والكون .علمته وظائف الاعضاء ، ارشدته الى خريطة الجسد الانثوي ، فراد الينابيع والزوايا ، دار في كهوف العتمة وجلس في مقامات الضوء .سبح على امواج لم يغامر قبلئذ بالتطلع في لجتها ، لكنه مع تاتا لم يراوده خوف .الشيء الوحيد الذي لا يهم تاتا هو السياسة ، تمقتها كثيرا وتجهل اغلب مايدور في كرتنا الارضية من احداث .اجمل حديث تحبه حديث الفلسفة البوذية والكارما التي تؤمن بها كثيرا ، لذلك تعشق الزهور والموسيقى والرقص .

يمضيان ايضا الى السينما كل اسبوع ، وخلال ذلك كانت علاقتهما تتعمق اكثر فاكثر . صار لقاؤهما شبه يومي ، اما عطلة نهاية الاسبوع فيقضيانها سوية دائما .تلك الايام علمته الكثير عن تاتا ، مزاجها ،

جسدها ، تفكيرها ، ماتحب وما تكره ، عائلتها ، وحياتها الماضية قبل مجيئها الى الدنمارك .

كانت طفلة نزقة ، متقلبة المزاج ، تتكلم كثيرا ، وتفرح لاشياء صغيرة جدا . لاتحب عائلتها ، وتتكلم بشكل ملغز عن طفولتها الصعبة وامها وابيها ، وهو يسمع ويتأمل . كان يفضل ان تأخذه تاتا الى ذكريات البرازيل الجميلة اكثر من الاحداث المؤلمة التي عاشتها .لقد ارته افرشة الدانتيلا التي تركتها لها جدتها ، المصاغات القديمة ، من اقراط واسورة وقلائد ، تعتز بها وتضعها في صندوق خشبي صغير مزخرف قالت انها اشترته ذات مرة من البيرو .تاتا يكتنفها شعور عميق بالنقص ، لذلك لا تحتمل السخرية ، وترى نفسها وحقيقتها بعيون الآخرين .كانت تسر له انها تصبح جميلة حين يراها جميلة ، وهي صفة فيها تتعبه حقا ، لانها تجعله يتوجس بالحديث معها ومداعبتها ومناقشة الامور الحياتية معها . تخلط مشاعرها الذاتية بالموضوع الذي يتحدثان عنه ، لاتقيم فاصلا بينها وبين الاشياء .

تعتقد ان الزواج ينبغي ان يكون رابطة ابدية ، والحب ينبغي ان لا ينتهي ، مهما تغيرت الظروف وتباينت امزجة الزوجين .ما قيل قبل خمس سنوات ، يظل ساريا الى أخر لحظة .عليه ان يتقبلها كما هي ، دائما ، سواء كانت سيئة او جيدة ، غاضبة او مسالمة ، قبيحة او جميلة . لذلك ، كان الموت قاسيا ، ظله على تاتا يشبه الكابوس . كان اول موت في حياتهما المشتركة .كاد موت سمارة ان يطيح بزواجهما بعد سنتين فقط من بدايته لانها تعتقد انه سبب الموت . لم يرعها كفاية اثناء الحمل ، ولم يكن يقدر وضعها ، نفسيا ، ولايهتم بها ، وهي امور اساسية تسببت بنزول سمارة في شهرها السابع .

مرض القطط الذي التقطته في البرازيل ، خلال سفرهما سوية الى هناك ، لم تتكلم عنه كثيرا .كان موت سمارة اول تجربة اليمة يتعرضان لها بعد الزواج . يوم دفنها لايزال مرتسما في خياله كل هذه السنوات .فبهذا

الموت ارتبط الى الابد بأرض الفايكنغ والبحارة والجليد المعرش كل شتاء على السرو والصنوبر والبلوط .عبر ذلك الجسد الصغير ، الهش ، الذي غادر بطن امه مبكرا ، لن ينسى مقبرة فالبي وشوارعها وقاطنيها .سيحمل معه تلك الايام اينما حط عصاه في الارض : كانت المقبرة واسعة ، ذات سياج مرتفع طويل .اشجار السرو الباسقة تطال السماء ، يهيمن عليها هدوء عميق .لا اطيار ضاجة هناك .القبر الصغير ينزوي تحت شجرة وارفة . يتطلعان الى التربة اللدنة الطازجة الحمراء بعيون حزينة ، يختبران قوة علاقتهما ، رابطة مايدعى بالزواج ، الانسجام الروحي ، النضج في الاندغام بين روحين وجسدين وعالمين .

قبر سمارة ، المستطيل الذي سيضم ماصنعاه سوية هو وتاتا .المكان الذي ارتسم في ذهنه اكثر من مرة ، اثناء جلوسه مع المرأة الدمشقية المدعوة هيام . تحت اغصان الصفصاف ، على كتف بردى بالضبط . كر الشريط في ذهنه عشرات ، مئات المرات .صار يشك انه حدث بهذه الطريقة .بنفسج ودراق ومشمش واريج ياسمين وحصى ملون يتلامع تحت الضباب ، او في قعر نهري ماؤه صاف .

وقف ينظر الى ذرى الاشجار ويمسك غصة في قلبه ، يحاول كبتها عن تاتا . لقد بكى كثيرا حين كانت ترقد في المستشفى .بات ليلات كثيرات وحيدا في البيت . لايستطيع ان يتخيل جسده راقدا في هذه الارض ، انها باردة اكثر مما ينبغي ، خاصة في الشتاء حين يسقط الثلج وتتدثر الارض بتلك الملاءة السميكة من الصقيع .كثيرا مافكر بالاموات في هذا البلد كيف يحتملون تلك البرودة . الموت في ارض ساخنة يستحق المغامرة .على مبعدة منهما مقبرة شهداء الحرب العالمية الثانية المنسقة بأناقة ، وقد توزعت الاسماء على صفائح حديدية سود تحمل اسماء الجنود ورتبهم وهي ذات لون اسود .

لن يستطيع فكاكا من هذه الارض ، المدعوة الدنمارك . يكفي انها

ضمت رفات ابنته ، سيتذكرها اينما رحل . سيزور قبرها الصغير كلما سنحت له فرصة .آثار اقدام بين القبور وزهور ذابلة او في طريقها للذبول . اصص مزروعة لاتزال في نضارتها ، جلبها اصحابها قبل ايام . زهور شتائية سميكة الاوراق وصمغيات وصباريات ، والمقبرة ساكنة لايبين في شوارعها احد .السنجاب يلعب بين اغصان الصنوبر ، ظنه نسخا عديدة تتواثب حوله ، ثمرة الصنوبر المتخشبة بين يديه ، وعيناه ترقبان بني البشر الذين يوارون موتاهم .

الى الارض يعود السنجاب وشجر الكرز ، سمارة وتاتا والدفّانين ، اصيص الزهور والدودة الدابة في شق الشاهدة التي كَتَبَ عليها آية من القرآن ومقطعا من الانجيل .

١٤

تاتا في سانباولو .

يقف عاجزا امام الشباك .

انسلخت المقبرة عنه ، انسلخ الاصدقاء و بارات السهر التي تطرطش الموسيقى في الآذان .

يقف عاجزا لا يعرف ماذا يفعل .هناك اشياء تحدث في داخل الانسان لايستطيع البوح بها لأي كان .خاصة اذا كان في وسط تلك الاحداث ، لم يبتعد عنها مسافة بعد .

كيف يخبر معارفه انه اذا ما رجع مرة اخرى الى دمشق ، فبسبب امرأة غامضة اسمها هيام . عليه ان يكتشف السبب الذي يجعلها تعلك اسنانها في النوم ، ولم كانت تئن دائما ، انينا يخرج من اعماق مظلمة غير بشرية؟ من الصعب القول ان كل ذلك من اجل ان يكتشف غموض امرأة .

لا احد يصدق ، امرأة ذات شعر اسود فاحم وجسد نحيل وعينين سوداوين لهما القدرة على التوهج بمشاعر مختلفة ومتناقضة بين ثانية

واخرى . من اجل ان يصل الى حقيقتها ، من تكون ، تلك التي هيمنت عليه ، وراحت ترتسم امامه في كل شيء يحدق فيه : في اشجار الحديقة التي امامه ، واجهات البيوت ، النوافذ ، والقرميد الاحمر .يسمع صوتها في زئير الرياح على النافذة وهي ترشق الزجاج بمسحوق ابيض . يحس اكثر فأكثر بالغربة ، بالحاجة الى الرحيل من هذا البيت ، من هذا البلد وغروباته الوردية وشروقاته الصقيعية وبحاره وجزره ، وحكاياته المنسوجة من قوادم سفن وهياكل بحارين وذهب وخمرة .

كان في صالة الجلوس ، امام النافذة التي اصبحت غريبة عليه ، في البيت الذي قطنه سنوات .بالتماعة خاطفة ، بومضة تجل ووضوح ، احس بانه لم يعد ينتمي الى هذا الشارع الصانت ، المهجور . لا الى شجرة البلوط ولا الى السنجاب الذي ينطنط عليها .لم يعد القرميد جميلا ولا ستائر النوافذ .جليلة الستائر المسدلة ، جليل الحزن الناغل بين الضلوع ، المفروش على ذكرياته ووحدته ، على شعره وايامه الموغلة في نفق حياته التي امتدت من النهر الى بحر الشمال .

نداء خفي يشده اليه ، نداء بعيد ، باهظ ، عليه ان يتبعه . ذراع النجمة البعيدة يتلقف روحه ويشيلها من مستقرها ثم يعبر بها الجبال والغيوم والانهار والجسور ومسطحات المياه البحرية الغاصة بالأرواح النورانية والسمك المضيء والمرجان .هنالك قوة مهيمنة لايسعه مقاومتها تأمره بالرحيل .سيترك شجرة السيسبان في الحديقة ، سيترك القط الاليف المنتصب امامه يحدق اليه بعينين زرقاوين .يعرف انه جائع ، لم يناوله وجبته منذ الصباح . الليل يوشك على الهطول . سيترك ايضا رعشات العشب في الحديقة وشجرة الكرز الوحيدة الشابة وتلك الظلال التي طالما عاقرها بعينيه ورشقت جسده بأحاسيس سماوية من الحب والدعة والفة البيت ومشاعر الابوة .

قرب الجدار طاولة الخشب ذات اللون الابيض ، والكراسي من ذات

الخشب بأعدادها الاربعة تحيط بالطاولة .التلفزيون ينتصب على الخزانة السوداء ، ثم الارائك بنسيجها القطيفة البيضاء ذات النقوش والخطوط . الارائك التي شهدت كثيرا من العناقات والقبل ومعارك الجسد بينه وبين تاتا . خشب الارضية القديم والخطوط الطولية التي وقف يحدق فيها دون ان تعني له شيئا . عالم قديم يتهاوى تحت ناظريه . عالم الاسرة . كأن مطرقة هائلة وجهت اليه من فضاء مجهول .لابد ان ذلك حصل بفعل قوة سحرية . لكن من اين مصدرها؟ من تلك المرأة الغامضة التي عصفت به دون مقدمات؟ من تلك المدينة التي زارها بعد غيبة طويلة ، فأوغل فيها ونسي كيانه واحاسيسه وروحه في دهاليزها وشوارعها وبيوتها القديمة ومآذنها البيض المكسوة بالمرمر؟ من الحيوان غير المروض الكامن في جسده المدروز بالتمور والحجارة الساخنة والمناقل المتوهجة بالجمر والظهيرات الحارقات للأكتاف؟ ام انه كتاب القدر الذي عليه ان يتعلم من حروفه دروس الحياة رغم قسوتها؟

قالت سهير وهم يقفون على قبر سمارة :

- بابا مالذي تفعله اختي تحت الارض؟

حارا هو وتاتا كيف يجيبان سهير عن سؤالها . كان عمرها اربع سنوات قبل ان تسافرمع مي وامهما الى سانباولو .

- انها تطارد الفراش .قال لسهير مبتسما .

وكان يحيطهم اطفال روضة جاءوا يتملون في القبور مع معلميهم .لاحظ ان سهيرا بدأت تشبههم في السحنة واللباس وطريقة الكلام .صارت جذورها تعرش في هذه التربة الباردة .

انه يشم آثارسهير في غرفة الالعاب وفي الملابس الطفولية وكراسي الطعام والاحذية الصغيرة ولثغات اللغة الاولى . ليست لك ، قال لنفسه بعد سنة من ولادتها ، وكانت تجلس في الصالة نفسها ، تلهو بألعابها ، وكان هو يطالع كتابا لماركيز .قادته كل الدلائل إلى انها لن تكون له ، هو

نتاج حضارة اخرى ومجتمعات تختلف كثيرا عنه . لابد انها نسيت العربية الآن .

رآها يوما جالسة مع مي في الغرفة التي تحتفظان فيها بألعابهما وارتسمت في ذهنه الفكرة نفسها :انهما لاتنتميان اليك ، ودهش كيف تلح هذه الفكرة عليه .

من المطبخ اخرج علبة الطعام ، فتحها ووضع نصفها في علبة كارتونية . فتح باب الشقة الخشبي وخرج الى الحديقة . كان القط بيليه بانتظاره ، جائعا وحيدا تائها لا يدري ماالذي يحصل في هذا البيت .غابت المرأة والطفلتان الصغيرتان اللتان كانتا تداعبانه بحنو .اصبحت الريح ثلجية ، وتكرر وقوف شبح الرجل في النافذة وطالت وقفاته .لم تعد محصورة بالليل او النهار ، بل راحت تتكرر في اوقات غريبة تماما كطلوع الصباح وفي منتصف النهار وعند مغيب الشمس .لقد جاع طويلا اثناء سفره الى سورية . الوجبات تضاءلت وتباعدت وكادت ان تكون مرة واحدة في اليوم . القط يخشى ان يغيب الرجل ذات يوم ويتركه وحيداً في عشب الحديقة . ثم اطلق مواءه المكتوم وبكى .

اعطى الطعام للقط في الحديقة . هجم عليه وهو يطلق اصوات مضغ عالية وعيناه الزرقاوان تنظرانه بامتنان .بيت القط الصغير مركوم هناك في زاوية الحديقة كما تركته تاتا ، مصنوع من الخشب المبطن بالورق السميك .قالت تاتا لابد ان نخرجه من البيت ، فهو يشكل خطرا على البنت ، والبنت كانت سهير .تكلمت مع النجار فاستغرب الطلب في البداية ، فهو قد صنع بيوتا للكلاب في هذا البلد لكنه لم يصنع بيتا لقط ، وفي الحديقة! !

تحت شجرة القصب الضخمة اخذ يحدق الى العمارة الطويلة .واجهة البيت ذي النافذتين احداهما ضيقة والاخرى عريضة . الاغصان المهتزة فوق الممر والاضواء المتراقصة والاطارات البيض وقد اختفت منها الاوجه الاليفة وغيبت النداءات الطفولية والناضجة . سكون عميق يسيطر بمثل

هذا الوقت على الشارع والمنطقة . الكل في البيوت وليس سواه من يقف عاريا تحت مظلة الورق والقواقع الملتصقة بالسيقان والفروع الصغيرة .الطريق الذي كتب عليه ان يسلكه ، غامضا دخانيا ، مثل شوارع تلك المقبرة التي دفنت بها سماره .

تحت الشجرة جاء الصيف ، وكانت سهير جالسة بين الزهور والاعشاب ، وهو يتمتع بأشعة الشمس في الظهيرة .رآها تلوك شيئا في فمها ، اسرع نحوها ، اخرج قوقعة كبيرة لاتزال حية ، وفي يديها كانت تمسك باثنتين منها .سماه يوم القواقع .كانت القواقع سامة ، وحدّث تاتا بالقصة فقالت : نحن محظوظون .متى حدث ذلك؟

عاد الى البيت منكسرا من وحشة الشارع وعتمة السماء .اغلق الباب ورتجه بالسلسلة ، فقد راح يخشى الخارج ، ويفترض أن هناك من ينظر غفلته كي يهاجمه .لماذا؟ وما الذنب الذي اقترفه ، لا يعلم .وقف في المطبخ وسأل نفسه عما سيفعله في الايام القادمة .انه امام مفترق طرق ، عليه ان يختار ، رغم انه حدد طريقه مسبقا ، الا وهو الرحيل من هذه المدينة التي لم يعد يربطه بها اي شيء . اصبحت الشوارع كامدة ، والوجوه مصمتة وكأنها دمى مستنسخة ، والاصدقاء متشابهين يعيدون الكلام نفسه والاحداث نفسها والنكات عينها . العَبْرة الكبيرة المحتبسة في صدره ، تكبر وتكبر ، تأخذ حجم مدينة ، بشوارعها وبحيراتها ومتاحفها وابنيتها واشجارها وعشبها . عبرة ترسمها تلك المرأة بشعرها وابتسامتها الغامضة ويأسها القاتل وغموضها الذي اجتذبه بقوة ، لها شدة الأعصار .

الجدران يحسها تكتظ . تضيق على جسده ، تحاصره ، يتحول البيت الكبير الى علبة . وردة الحبق الغافي في الذهن وما لها من ذكريات بعيدة ، برشلونة وجبال بيره مكرون وطهران .ارومية والسليمانية وخانقين والنساء اللواتي بتن في الذاكرة يسمع نواحهن ليلة بعد ليلة ورموشه الراجفة من حلم الى حلم ، ومن مدينة الى مدينة ، ومن شارع الى شارع . فراق لوجه

تاتا الذي لن يعود .

اخرج الصور وفرشها على الاريكة .هذا وجهها الضاحك الرقيق بعينيه الحالمتين الى أفق لم يكتنهه . وجه سهير الشاحب المتأمل بفرجات اسنانها الامامية وعينيها الضاحكتين . سهير جانب روحه الحكيم المتأمل الحلمي والسابح في بحار الفرح والسعادة الروحية المنتشية بنفسها .ثم صورة مي المتوثبة ذات النظرات الساخرة الذكية التي تخترق الاشياء من اكثر زواياها غرابة . انها جانبه الارضي ، المغامر الحي الفضولي الذي سيدفع ثمن التجربة برحابة صدر . كان يطلب العون منهن .يطلب المدد على ذلك السحر الذي طوقه وحشره في زاوية لايمكن الخروج منها .

- هالو ، هل يمكن التكلم مع تاتا؟
- من تكون؟ تاتا غير موجودة الآن .
- انا زوجها ، كيف حال البنتين؟
- انهما بخير ، صارتا تتكلمان البرتغالية بطلاقة .
- هل انت اليانا ، اختها؟
- كلا ، انا الخادمة .
- طيب ، خبري تاتا انني اتصلت .

يستطيع ان يرى البيت الكبير ، الغائص تحت اجنحة النحل .الجوافة التي تنشر عطرها على الممرات والعشب والكلاب والنساء اللواتي كن يتحممن في المسبح قرب السقيفة .عرائش العنب واسراب الفراش الراقص في الحقل المحيط ببيت اليانا ، الواقع في ضاحية من ضواحي سانباولو . الغرف الواسعة والكلاب التي كانت تمرح امام البيت وتنبح طوال الليل ، واشجار المانكا والعنب .عشرات الوجوه من اخوات وبنات اخوات واقرباء وضيوف ، قدموا لرؤيته هو وزوجته من سانباولو المدينة وضواحيها . تواقين لرؤية شيخ عربي سمعوا عنه كثيرا في قصص الف ليلة وليلة ، وحكايات ملبا طحان التي ترجمت الى البرتغالية قبل خمسين

سنة ولما تزل تفرض سحرها على بيوت البرازيل الارستقراطية .

تاتا لم تكن هناك اذن .لابد انها في بيت اختها الثانية في مدينة كابريوفا .فكر ان ينتظر مكالمتها ،لكنه لم يتخيل نفسه يظل جالسا كل هذا الوقت دون عمل شيء .فتح التلفزيون ، ثمة اكثر من ثلاثين قناة تلفزيونية في هذا الوقت . تنقل بينها سريعا ،لم يقع على ما يشده او يهيمن على ذهنه ويبعده عن دمشق . دمشق العنق الطويل ، والشعر المبعثر على الشراشف ، والسهرات المتأخرة في نادي الفنانين ، والرحلات الى وادي بردى .احقاب تنغل في احقاب ، والهواء معطر بالاصوات النسائية والياسمين .دمشق التي كانت توقظه بأصابع خشنة من مازوت وبطيخ اصفر وغاز وقناني ، من ياسمين وتين وبلح ووجوه نساء يتلفعن بعمامات اموية ، تزينها احجار كريمة وذهبٌ يلصف مع شمسها المتوهجة .

١٥

المحطة ذات الهيكل الضخم ، بناء عتيق ، طابوقه احمر منقوش بالاخاديد والحفر والحزوز وبقع الرطوبة السود .من موقعه في مقهاها الزجاجية كان يسمع القطارات تدفق في شرايين المدينة ، الى ضواحي هادئة مظللة بالشجر ، كثيرا ما كانا يجولان فيها هو وتاتا .المقهى ممر ضيق طويل يتسع لصفين من الطاولات ، يفصلهما طريق في الوسط ، ينتهي بطبخ يقدم الساندويش البارد والكيك والحلويات ، معروضة بحاوية زجاجية مضاءة بشمعة ناصعة البياض .مشروبات كحولية وعصير اناناس ومانكا وليمون وشاي وقهوة .الممر فوق رأسه ، يشف عن سقف المحطة ، عيناه تنظران الى الاسفل .يتوقع ظهور نداء بين لحظة وأخرى ، سيشم في ملابسه رائحة دمشق ، وذكرياتها ، سيحدثه عن هيام وكيف تلقت هديته .

من خلال الحاجز الزجاجي يرى لعالم المحطة ، بشرها ومحلاتها ومكاتبها وبنوكها .المحطة مثل مدينة ، لاتنقصها سوى الاشجار والشوارع ، لكنها مدينة تعيش خارج اهتمامه .جلس هنا عشرات المرات ، هو وتاتا ،

ثم مع سهير ومي ، يتفرجون ساعة على البشر قبل الرجوع الى البيت .تاتا لم تكن تحبها ، تخاف من المدمنين والعاهرات والاجانب المتاجرين بالمخدرات ، تسمي كل ذلك وباء المحطة .اما هو فقد ألف ساحتها الشاسعة بسقفها غيرالمستند على اعمدة ، وفيضان البشر الدائب التدفق واصص الزهور على الطاولات ، وانبثاق البشر واختفاءهم في سلالم المترو ، وكبسات الشرطة الفورية للبحث عن الاجانب المتسللين خلسة الى البلاد ، والسكارى المشعثي الرؤوس .

ثمة مطر يرتطم بقبة المحطة . يرقب مسيله على زجاج النوافذ الملون ، وربما هو ما اعاق نداء عن المجيء .عليه ان ينتظر . اخبره انه يحمل رسالة من هيام ، لابد انها اثقلته بكثير من التحيات له .تساءل في سره هل اخبرها بشيء عن حياته الخاصة؟ انه لايثق كثيرا بنداء ، يحمل تعابير مريبة ، بجلدة رأسه المتحركة صعودا ونزولا كأنها باروكة .كان مضطرا الى ارسال علب الكريم الى هيام ، وكان نداء مسافرا الى دمشق فوجد الامر مناسبا .

شاغل تبرمه بمحاولة ادراك مخطط معقول لسقف المحطة الهائل .لم يوفق . عيناه مركزتان دائما على ممرات المحطة في الاسفل .عليه ان ينتظر نداء ، حتى لو ظل جالسا عشر ساعات .لابد ان السقف وصل الى ماهو عليه الآن نتيجة لتراكم العوارض الخشبية والاعمدة والمسامير والصفائح ، مجدولة بنشاط استثنائي لأجيال من اهل البلد ، الفايكنغ اصحاب اللحى الشقر والعيون الزرق .انه يقتحم النوافذ الملونة ورؤوس الاعمدة والمقرنصات والضفائر التي على هيئة اشجار وحيوانات طائرة كالتنينات واللقالق والبط .فضاء المحطة معتكر بدخان يتصاعد من السجائر والغليونات واوراق السيلوفان المستخدمة لتسخين الحشيشة في الخبايا البعيدة عن اعين الشرطة .

البشر لاجئون شتتتهم حروب ومغامرات ومؤامرات ، ومهجرون ذوو

اثباتات غير اكيدة ، ومتسللون ، ومتمهلون عن تحديد اقاماتهم ، ومنتظرون لقطارات راحلة الى سراب مدن لاتوجد الا في الخرائط ، ومحتسون لكؤوس خمرة تهز مزاجهم المرتكس الى حزن اصم .في المقهى ايضا متصيدو نساء ومخبرون بثياب مدنية ومدمنو مخدرات يميزهم شحوب بشراتهم وانفلات شعورهم على الجبين وسيلان اللعاب وتلاشي مؤخراتهم ونظراتهم التائهة المنصبة على فراغ اجرد .كان يشدهم بطاقة روحية ترتسم بزاوية مهملة او جدار او فقاعة شاردة في فضاء المحطة .

جاء نداء اخيرا ، شعره كث اسود ، وعيناه قلقتان ، وثمة غيمة شاحبة تحيط وجهه . حدس انه رآه في مجلسه . اتجه الى الدرج ، في لحظة غابت فيها الاشياء حوله ، وانحبست حواسه في جسد نداء وخطواته ونظراته القلقة . تلك الغيمة التي لم تفارق تعابيره ، اوحت له بالأسف . شعر بقلبه يدق بعنف ، وشعر ان في نظرات نداء زيغاً واحداثاً وقصصاً لن يبوح بها .

قال له بابتسامة شاحبة : ارسلت لك صديقتك هذه العلبة .

ناوله علبة صغيرة جدا ، ملفوفة بورق عليه ازهارحمر ، مربوطة بخيط فضي . فتح الخيط بعجلة .بانت العلبة البلاستيكية ، التي ازاح غطاءها فأصابته الدهشة .لم يكن يتوقع الهدية .ثمة صليب صغير من الذهب وقرآن صغير من الذهب ايضا .قال لنداء بارتباك : الم تبعث رسالة؟ رد نداء بالنفي ، وسكت . فيما هو مطرق ، منشغل بالبحث عن معنى هدية هيام .ماذا تعني بذلك؟الصليب رمز مسيحي والقرآن رمز اسلامي ، كيف الجمع بينهما .هل تقصده بذلك؟تاتا مسيحية وهو مسلم ،لكن كيف عرفت بذلك؟

- هل سألتك عني؟

- لم التقها سوى مرتين ، الاولى حين سلمتها الاغراض والثانية قبل سفري بيوم ، حيث طلبت مني ان احمل لك هذه العلبة .

- لكن الم تحدثها عني؟

- كلا كنت مشغولا كثيرا . لاتعرف كم شربت من الخمور ، قضيت اكثر وقتي سكران .الشيء الوحيد الذي افتقدته النساء .لذلك فانا ذاهب الآن الى صديقتي . انا بحاجة ماسة لها بعد هذه الفترة من اليباب .

مضى نداء مستعجلا ، قبل ان يوصي له على القهوة . لاحظ نبرة من الخوف في كلامه .قلبه حدثه بأمر غامض ، لكنه لم يستطع تفسيره . هنالك شيء غير طبيعي مخبأ في اعماق نداء ، شيء غير مريح ، يرى علاماته في عينيه ، في نبرات كلماته وتشنج ضحكه وتكلف حديثه عن الشام . لم كان يتعجل الهروب منه؟ حتى ابتسامته كانت شاحبة ومتكلفة ، لا يعرف لماذا .

ظل يحدق في الهدية طويلا . قلّب العلبة عسى ان تسقط منها ولو قصاصة صغيرة . لكن دون جدوى .

شعر بجسده يغوص في حياة المحطة ، يتحلل الى اشلاء . ضجة في الرأس ، وخليط من الافكار والتصورات . هل جلسا معا؟ هل زارا الرصيف او الرواق؟ اهو حقا لم يلتقها سوى مرتين؟عليه ان يعود الى البيت ، يضع قنينة من النبيذ الاحمر على الطاولة ، يسترسل بأحلامه وخيالاته التي تبدأ منذ الطفولة ، تسيح الى كابريوفا وشواطئ برشلونة وجبال تبريز وساحات لندن وازقة الحامضية ، ثم تنتهي تحت ذلك العمود الاسمنتي في وسط ساحة المرجة . يتأمل على هواه في كلمات نداء ، وفي هذه الهدية الغريبة .

كانت امرأة عجوز تجر كلبا بحجم سلحفاة لابسا سترة ، تحدق اليه بحقد . قربها شابة حليقة الشعر يزين اذنيها قرطان على صورة اعضاء جنسية ذكورية .في الاسفل عامل المحطة يلتقط الفضلات من قشور موز وأوراق وبقايا ثمار بآلة تشبه العصا . وفي زاوية ما ، لمح رجلا يتبول في زجاجة بيرة . هناك عاهرة تساوم زبونا عند بائع السجق ، وسائح يجر حقيبتين كبيرتين يتجه بهما الى السلالم المتحركة .يرى كل ماحوله ، لكن

ذلك لايعنيه . لم يعد يفكر بشيء آخر الا بهذه العلبة .

عليه ان يترك عالم المحطة ، يرجع الى البيت .شعر بحاجة الى التركيز ، الى دخول عالم التنبؤ والحدس ، عله يجد معنى لهذا اليوم .

كان المطر ينهمر بصمت .وكان صدره معبأ بالحزن .

١٦

مواء القط خارج البيت ، النجوم تفقع مضيئة في سماء لايراها لكنه يحس وجودها ، الوجود الداخن العاصر للقلب .اطفأ التلفزيون وتمدد على الاريكة .انه يستسهل الولوج في الحلم والتأمل .لكي يعانق وجهها ، ويسبح في جسدها ويتطلع في حاجبيها النحيفين . رن التلفون بعد لحظات وكانت تاتا .صوتها بدا عجلا راجفا لائما .اخبرته ان سهيرا راحت تخلط اللغة البرتغالية بالعربية ، لكنهم هنا لايفقهون البعض من كلماتها مثل حصان وخبز ومي .قالت انها اصبحت مترجمة لسهير امام خالاتها وعماتها والصبايا من الاقرباء .اما مي فلازالت دون سن الكلام .لكنها تصبح اكثر جمالا يوما بعد يوم خاصة والربيع في بدايته .

– تاتا لم لاتعودين؟انني اختنق هنا في البيت .انا على مفترق طرق .

– انك دائما تشكو من البلد . تحمّلْ قليلا . لم تكن راضيا قبل اليوم .لم توفني حق قيمتي . لم تعاملني معاملة الزوجة .كل ذلك لانني لست عربية .

- لايمكن الحديث في التلفون هكذا .

- هل تتذكر ولادة سمارة؟ انك لم تكن معي حين مضيت الى المستشفى ، كنت تحتسي الخمرة في كرستيانيا ، لن انسى ذلك .

- انني اتذكر الجوانب الحلوة منك فقط .

- لا استطيع نسيان مساوئك .

- هل يمكنني الحديث مع سهير؟

كصوت قادم من الكواكب الاخرى ، سمع وشوشات وهمسات وحديثا باللغة البرتغالية ، ثم صوت سهير الذي احسه يلامس قلبه بعمق . ذلك الارتباك ، الصوت الحائر بين اللغات ، و تنفسها المختلط مع وشوشة المسافات :

- سهير ، ابوك سيرحل .النداء يلح عليه .انه قادم من عمق روحه .من الماضي ، ولا يستطيع له مقاومة .انه صوت القدر ياسهير .نولد في الجنوب ونحيا في الشمال ولا ندري اين سنموت .لكنني لا ارغب ان اموت في هذا المكان الصقيعي .انك لا تفهمينني اعرف ذلك .سيأتي يوم وتتذكرين هذه الكلمات حتى لو انها في اللغة العربية .

هناك صمت مطبق في الجهة المقابلة من الارض .وشوشات المسافات النائية فقط .حركة النجوم ودوامات الهواء في المديات العليا .وعينا سهير اللتان يراهما رغم آلاف الاميال ، عميقتين من الدهشة والخوف من هذا الصوت النبوئي المر .الكلاب تنبح والفراش يطير والنحل يقبّل الزهور ، وهما صانتان يلمّان الصمت . هتف لها ثانية بعد ان استعاد هدوءه :

- سهير حبيبتي . قولي حصان . مي . خبز .قولي بابا .

- حصان .خبز .مي .ايو كوستو بباي .

عليه ان ينتهي من المكالمة . طلب من سهير ان تناوله امها . قال لها كل شيء على مايرام . احب ان يسمع صوت البنات ويتكلم قليلا معها ، الا انه احس وكأنما الامور لم تعد تعنيه بشيء . كأنه لن يَراهنّ بعد ذلك .

اقفل الخط ووقف حائرا وسط الصالة . التلفون الاسود والتلفزيون الصانت والستائر البيض المسدلة على النافذة كأكفان جاهزة للف جثة .جثة المرأة التي عاش معها سنوات ، بأحلامها ودموعها وفرحها ومشاريعها وسفراتها . عليه ان يودع هذا البيت لانه يختنق ، من ثقل الاشياء والماضي ، والذكريات .

في المطبخ اصواتهن لماتزل عالقة على سطح طاولة الطعام والكراسي والطباخ الكهربائي المركون في النافذة . الاصص المنزوية في الركن والستارة الموشومة بالزهور ، تحجب اشجار البلوط البري في الحديقة الخلفية للحارة .عند طباخ الغاز يكاد ان يرى تاتا واقفة تعد الطعام لسهير ومي . يقف هو كما اللحظة ناظرا الى الفسحة الواسعة خلف البيت .لحظات متشابهة وشريط من الاحداث معاد سوى قليل من التفاصيل .

خرج من المطبخ ودخل غرفة النوم . خزانات الملابس والكومدينو الذي تحفظ فيه زينتها من ذهب واحجار كريمة واقراط وسلاسل ، بعضها ورثته عن جدتها ذات الاصول البرتغالية . على جانبي السرير ، سريرا سهير ومي المتشابهان المصنوعان من الخشب .الاغطية لازالت هناك وكأنهما لم تغادرا الدمارك منذ شهرين .

تحسس خشب سرير سهير وشمّ اللحاف القطني . لاتزال رائحة البنت عالقة فيها ، ولاتزال يداها ممدودتين له لكن في الهواء .لايراهما سواه . اليدان اللتان تطلبان منه حملها على الكتف لأنه حصانها الاعرج الذي عليه ان يجول بها فسحات البيت .يدخل الصالة والمطبخ وغرفة النوم والمدخل وهويدق خشب الارضية برجله العرجاء كأي حصان نشط .

ارتدى ملابسه ،عدّل شعره ، نظر الى نفسه في مرآة الحمام ثم مضى الى المكتبة الصغيرة واخرج البوم صور . اطال النظر بالمرأة الغامضة . شعرها وجيدها وابتسامتها التي لاتفهم مغازيها .لاحظ الاشجار الكثيفة خلف جسدها ومسيل النهر اللاصف ، وكاد شريط ذلك اليوم ان يكر ثانية

في رأسه ، كما دأب على ذلك منذ عودته من دمشق . اغلق الالبوم ، فكّر ان عليه ان يحتفظ به في مكان سري كي لا تراه تاتا بعد عودتها .ربما يكون من الافضل اتلاف الصور والاصل ايضا تفاديا لأية اشكالات . اغلق الالبوم وحدق بالكتب المتراصة .كتب الغذاء الصحي وكتب السحر والشامانيين والمساجات والقصص المصورة التي احضرتها تاتا من البرازيل لتحكيها للطفلتين ، وكتب اللغة ، الانجليزية والعربية والبرتغالية والدنماركية ، وهي اللغات المستخدمة يوميا في البيت .ثم صف الالبومات التي تؤرشف حياة تاتا منذ الطفولة حتى زواجها ، وتشمل البرازيل والارجنتين وايطاليا والبرتغال والدنمارك والمانيا والبورغواي .سائحة وزائرة ومقيمة . اطفأ ضوء الغرف وترك التلفزيون مضاء على قناة البي بي سي . ترك ايضاً مصباح المدخل المدلى من السقف مضاء وخرج .

الشارع هادئ ، والبيوت ساكنة والستائر مسدلة .

اضواء ناعمة تشف عنها اقمشة الستائر الناعمة وتبين فيها الاصص والزينات والانتيك .الهدوء يفترش الحدائق الصغيرة امام البيوت والياسمين يفح رائحة خفيفة تختلط برائحة الارض الرطبة .في هذا الوقت من المساء تتحول الشوارع الى مقابر . الاشباح تأتي وتروح ، وبالصدفة يمرق شخص ، امرأة أو رجل على دراجة هوائية . يخطف سريعاً ، ثم يتلاشى صوت العجلات في السكون العميق .

خرجت جارتهم الانيقة ، بعد ان تجاوز فم الشارع ، مع كلبها ليقضي حاجته في الاجمة القريبة من المدرسة .كانت تقود الكلب بخيط طويل ، بدا مثل حشرة عملاقة تدب على الارض . عبر الشارع الرئيسي ووقف تحت المظلة ينتظر الباص رقم ستة . سيارات قليلة تمرق بين الحين والآخر متجهة الى كوبنهاغن .

رذاذ خريفي خفيف يهمي على الشارع والاشجار وسكة القطار القريبة . في الجو وحدة غير مفهومة وغربة لا يعرف سببهما ، أمِنَ الجو

الرطب ، ام من الليل ذي الاشجار المتلامعة بالاضواء والضباب ، ام من الفراغ الشاسع للشوارع والازقة ، ام تشابه البيوت بسقوفها القرميدية الحمراء ، ام بهذا الضياع الذي يجعله ينتمي الى جهات الارض اجمع وفي الوقت نفسه الى لامكان؟ انه يعيش مع نفسه دون ان ينسى التأمل بكل مايراه .آلاف المرات ، وقف هذه الوقفة منتظرا الباص رقم ستة ، قبل هذا اليوم .وحيدا مرات ومع اصدقاء مرات ، وبرفقة تاتا والبنتين مرات .صيفا وشتاء ، ليلا ونهارا ، لكنه لم يحس بعبث وجوده في هذا المكان محاطا بالاشجار القادمة الى العري والبيوت المتشابهة كما يحس بذلك الآن .

كانت عيناه ترقبان المسافات البعيدة حيث يأتي الباص .التمعت في ذهنه سمارة بوجهها الصغير وجسدها النحيف وكانت تتمدد على السرير .كان ذلك بعد موتها بيومين وقد اخرجها الطبيب من البراد وطلب منهما اعدادها للدفن . تاتا مضت الى السوق واشترت طقما صغيرا وجوربين .قالت له ، من بين دموعها ، انها ترغب ان تراها كأي طفلة طبيعية . شعر بغرابة سلوك تاتا لكنه ، في تلك الايام ، لم يفكر الا بما يدخل السلوان الى قلبها لكي تتجاوز محنتها .محنة الام التي فقدت المولود البكر قبل اكتماله .سبعة اشهر فقط ، والسبب فجوة مائية في الرأس نتيجة مرض آت من القطط .وكان بيليه قد رُشّح للموت .

في الباص كان الراكبَ الوحيد .فضّل الجلوس في الاخير ، كعادته دائما ، يتيه مع افكاره ويرقب المشاهد المارة على طرف الشارع . الكنيسة ذات البرج المربع المنتهي بديك نحاسي وواجهات المحلات المضاءة رغم انها مغلقة في هذه الساعة .اشباح البشر القليلة التي تتجول وحيدة او مع كلابها والاشجار التائهة في الضباب . الصقيع المسفر عن نفسه على بلور النافذة .لم يلبث ان صعد راكب آخر وجلس في اول كرسي .استغرب لهذه المصادفة . سرح بأفكاره وغاب في طيات السنين .شواطئ الفرات

ومزارع الباميا .النخيل وحفلات صيد الزرازير .الطائرات المحلقة في سماء بغداد في اول حرب عاشها .الدغارك .البرازيل .سورية وقلعة الحصن ومنابع بردى بأشجارها الباسقة والمياه المتدفقة من عيون جبلية يغطي الثلج قممها مثل لحية جده .

وصل الباص الى حديقة الحيوانات . قرر النزول فجأة .سيزور مقبرة فالبي ، بعد ان أتاه وجه سمارة من افق بعيد .افق الارواح الطائرة في الهواء ، المحدقة بالبشر وهم يزحفون الى غاياتهم ونزواتهم .رأى جناحيها مثل جناحي يمامة ، تنزلق فوق السرو والصفصاف والبلوط .ثم رآها تمضي في عباب الهواء ، ثم جاءت ومعها سهير تطير الى اليمين ومي تطير الى اليسار ، يومِئْنَ له بالقدوم ، بالسفر معهن الى غابات مليئة بالببغاوات وطيور البنتفي واليمام . الى جزر المرجان والاسماك الملونة والارض التي لا يسقط عليها الثلج ولاينال من ترابها الصقيع . مطوقات بالعقود والخرز ، مزيّنات بالريش الملون ، تتساقط من افواههن قطرات الكاكاو الممزوج بالحليب . هادلات ضاحكات لاهيات ، يكدن يتجمعن حول رأسه اثناء ما كان يترجل من الباص قرب السور . كان الضباب يلف عينيه ورأسه مثلما يلف الأرصفة .وكانت الريح في أعالي المداخن .

وقف برهة ، يستعيد وعيه وتركيزه فيما حوله . يخرج من انتفاضات الذهن وابحاراته وهذياناته . خشي ان يكون قد حدث شيء لسهير ومي ، بعد هذه الصورة اللطيفة .

كيف يجمع ذهنه الاموات بالاحياء؟

هذه الآلية ترعبه احيانا . آلية ذهنه في تحقيق ما لا يتحقق في الواقع . او وضع الاشياء في حالات يستحيل ان تكون فيها .رجل موهوم وحياة عمرها قرون .

١٧

يحفظ الطريق عن ظهر قلب .

الباب الواسع ، ذو الحديد المشبك ، منه يبتدئ الشارع الطويل .

دخل في المقبرة ، وكان الهدوء يفترش الدروب الفرعية والقبور ومساحات العشب المنسقة ، وفي الهواء ضباب خفيف .لم يكن خائفا من اقتحام عالم الاموات ، فهو يمتلك واحدا منهم ، سمارة التي ستحميه من الاشباح وقيامات الموتى والارواح الطائرة في الاعالي بين اغصان الحور والصفصاف والبلوط .

في السماء غبش واضواء ، حيث تلتقي ذؤابات الحور .انعطف الى اليمين وسار في طريق فرعي تصطف على جانبيه شواهد بيض اقيمت حولها تماثيل .فينوس الحزينة تنحني برقبتها الدقيقة محدقة الى الارض ، حامية رفات الراقدين منذ سنين .آلهة الحب تمتطي ظهور العشاق .حمامة من الجبس وزهور من حديد او صخور مرمرية وشاهدات على هيئة قباب وابراج تظلل اسماء غريبة .

كيف يمكنه الوصول الى ابنته وسط غابة الاموات هذه؟

منذ عشر سنوات فقط ولدت مقبرة صغيرة للمسلمين في هذا المكان بعد ان توافدوا الى البلد .ذات يوم ، حين كان يتجول في المقبرة رأى هلالا مرسوما على مرمر فاستغرب الامر واستوقفه .مال الى هناك يستجلي الحقيقة .قرأ على الشاهدة آية الفلق وكان الميت يحمل اسما دنماركيا ، فقرر ان يكشف ذلك ، الا انه تناسى الموضوع بعد مدة ، لكن التاريخ ، تاريخ الوفاة بقي راسخا في ذهنه .انه منتصف القرن العشرين بالضبط .هنا شارك في دفن ابو عادل وصباح الاورفلي وخالد الكردي الذي جاء من مخيم رفحاء ، وقتلته ، بعد خمسة اشهر فقط من وصوله ، عاهرة التقطها في احدى الليالي من حي استد كادا ، وسهيلة زوجة صديقه وعدد من الاتراك العاملين .يتذكر المكان جيدا ، فمن هناك ، خلف السقيفة ، مرقت ذات يوم السيارة التي اقلت رفات سمارة . وتحت شجرة السرو يرقد القبر المستوي مع الارض ، ذو الشاهدة الصغيرة . من هنا الى قبر سورن كيركغورد ، شارعان صغيران .

رائحة اعشاب متفسخة تملأ المكان ، ونفحات من عطر اليوكالبتوس تتضوع في انفه .كان يمشي ببطء ، رأسه لايستقر على شيء ، عيناه تلاحقان الصلبان المنتصبة والاشجار الضائعة في الفضاء ومصابيح البيوت الخافتة المحيطة بالمقبرة .

لم يوفق بالعثور على القبر ، ضباب وسكون واشجار باسقة تلاصق السماء واشخاص على امتداد اربعين سنة يتمشون امامه ويحاورونه ويبتسمون له .تائه حيران مابين داخل وخارج ، انعطف من الشارع الصغير ثم رأى شخصا يتقدم اليه ، شكله غريب ، غير مألوف .وقف برهة ينظر ما يجري امامه . لا يستطيع ان يطلب المساعدة فالساعة تسري الى منتصف الليل .شخص خرج من الضباب والعتمة .يتقدم نحوه مصلصلا مجلجلا ، عليه سمة مرعبة .قال له بعد ان وقف على مبعدة عشرة امتار :

– من انت؟ اراك تحمل سحنة غريبة ليست من ارضنا .

– انا من العراق .

قال له ، ثم لبث ساكنا قلبه يدق بعنف ، حيث احس وكأن ثمة عشرات من البشر يحيطون به ، يحاكمونه وسط هذا الخلاء .

– من بلاد فارس اليس كذلك؟

– كلا انا من بغداد ، لكن من انت؟

– تقدم قليلا لتراني جيدا .

قال له الشخص المبهم المحاط باشجار الصفصاف والضباب ، القادم من المجهول .مشى نحوه خطوات ، رآه بالهيئة التي تخيلها .الدرع الحديدي يلتصف بالضوء الخافت المنبعث من المصابيح المعلقة في الاغصان .الغطاء المرعب الذي يكشف عن العينين فقط ، ثم الدثار الحديدي الذي يحفظ الاطراف .كان الشخص يقف وقفة صلبة وسط الشارع ، في يده رمح من القرون الوسطى ، كعبه على الاسفلت ورأسه فوق الهامة .انه بلا شك واحد من الفايكنغ ، او بحّار من عصور الجليد ، وربما فارس من الفرسان الصليبيين ظهر له بغتة من بين شواهد القبور ليروعه او ليقتله .نظر حوله فلم يجد قبورا ولا اشجار دلب ولا كهرباء .ثمة اكواخ من الاغصان ، ودخان ينبعث منها ، وغابات كثة ومياه . واذا البحر ملىء بالسفن ، الناس تصلي لشيء طويل من الشجر . دقق به فرآه عضواً ذكرياً مكتوباً عليه اسم اودن .

قال له الفارس بصوت خشن : انه ربنا .

كان عدد من البشر يصلون له ويتعبدون . فيما كانت الغزلان والثعالب وغزالات الرنة تجول بين الشجر .سحنته غريبة بين هؤلاء البشر ، هو الاسمر بشعره الاسود وعينيه السوداوين والدماء الحارة الجارية في جسده .اجتمع عليه القوم وهم يصيحون : تاجر من فارس ، من اتباع محمد .حاول الهرب اول مرة ، لكنهم امسكوا به وجروه الى كوخ من

الشجر ، فيه موقد من النار يتحلق حوله شيوخ شقر اللحى وعيونهم خضر يأكلون حيوانا بأكمله مشويا على اغصان من السرو .

قالوا له انه خنزير بري اصطادوه توا .دعوه للمشاركة فرفض . قال لهم انه مسلم ولا يأكل لحم الخنزير ، فتصاعد ضحكهم الى السماء ورشّوه بسائل احمر يدعونه الواين وهم يجلسون نساء ورجالا بلا حشمة .وبعد حين ، تكشّفت له السماء ، فاذا هي بيضاء تنث ثلجا رقيقا ، والسهوب المحيطة صحراء من الثلج .مشهد يراه اول مرة .دببة وسنانير وثعالب بوبر ابيض وعيون صفر اشبه باليشب .آثار اقدام ومخالب واظلاف .والريح تزأر في السهل ، والزمن فاقد لمعناه .لاتاريخ ثمة .هو فقط بشعره الاسود وعينيه السوداوين وغربته في هذه الاصقاع المنشمرة على حافة الارض .

سمع هسهسة خافتة واننا خلف اجمة تبعد عنه خطوات ، فتوقف وجلا . كاد يقترب من الفسحة التي دفنت فيها سمارة . تقدم واجس الخطى ، وأطل من خلف قبر من القبور فرأى رجلا اسود اللون يضاجع امرأة على مصطبة . يحتضنها من الخلف ، وجهاهما بعيدان عنه فلم يرياه ، فكر راجعا .دار في ممر فرعي وأراد ان يتجنبهما ، فكّر لكنه جاء من جهة الرأسين هذه المرة . ظن انهما رأياه فاستدار خجلا ، وقرر ان يخرج الى المدينة .فكر ان الرجل والمرأة قدما من البار القريب .لقد قضى فيه اماسي جميلة قبل ان يتزوج تاتا .كانوا يطلقون عليه بار المسنّات ، لان اغلب روّاده من النساء الكبيرات في السن والاجانب الذين يودون التقاط امرأة لليلة واحدة .التقى فيه عددا لايحصى من الجنسيات :شيليين ، لبنانيين ، اتراك ، عراقيين ، ايرانيين ، دنماركيين ، باكستانيين ، وافارقة من كل جنس ودين .

اين يمضي؟ هو والليل كما كانا سابقا .

هذا السؤال دار في ذهنه مئات المرات .رغم وجود عشرات البارات ومحلات الرقص والاصدقاء الساكنين في احياء كوبنهاغن واماكن اللهو

والشوارع والبحيرات ، الا ان المضي وحيدا الى تلك الاماكن لا يبعث على المتعة .وهو بالضبط مادعاه بالوحدة التي يعيشها الانسان في هذا البلد .لم يحس بهذا الشعور في دمشق . كان بإمكانه المضي في اي وقت من اليوم ، نهارا او ليلا ، الى اي مكان يختاره ويجد من يستطيع ان يتبادل معه الحديث ، او يحتسي الشراب معه ، او يبثه شجونه وافكاره .

يمكنه ان يختار البحيرات . ينزل عند المرصد الفلكي في اوستربورد ويأخذ الجانب اليسار من البحيرات ، ويمشي باتجاه اوستربورد حيث يمتع نظره بالاضواء المنعكسة في المياه التي طالما خلبت بصره قبل اليوم . يتأمل في المطعم العائم على البحيرة بقبابه الشرقية وأبراجه الشبيهة بالمآذن ، او اشجار البلوط البري الضخمة المزروعة بامتداد البحيرات ، يمر به الراكضون والمتنزهون ، المتوحدون الباحثون عن رفيق او سمير يقاسمهم ليالي الخريف الموحشة .يمكنه ان يتمشى في شارع استدكادا المليء ببيوت الدعارة ودكاكين الافلام الخلاعية والمحلات الشرقية التي تبيع البيتزا والمخضرات والحلويات والبسيرة ، فيستمع الى مشاجرات الحشاشين والمخمورين والعاهرات ، الباحثين عن زبائن لهم في هذه الساعة . الا انه يخاف من الشرطة ومهاجمة العنصريين المفاجئة التي تتم بين حين وآخر حين يرون شخصا اجنبيا وحيدا .يمكن له ان يختار ، في مدينة مثل كوبنهاغن لكن الخيارات في النهاية واحدة . تؤدي الى النتيجة نفسها ، اي الوحدة .فهنا ، وفي هذه اللحظة ، اين يجد الشخص الذي يحدثه عن تاتا ، وقراراته في الرحيل ، وقبر سمارة ، وهيام ، وسلمان المنشغل بحركات صديقه يونس ، ودمشق وصباحاتها ، ووحدته في هذا البلد الذي بدأ يختنق من نظافته وقوانينه وروتين حياته المنظّمة كساعة سويسرية؟

لا احد .

نزل الى مركز كوبنهاغن . تجول ساعة في شارع المشاة ، يرقب المارة من فتيات وعجائز واجانب بميزي السحنات وواجهات محلات مضاءة ،

ومحلات الهوت دوغ والمطاعم الفخمة والبارات الغاصة بالشاربين . هو التائه كعادته في حياته الماضية وابحاراته المستقصية في هذا البلد الذي لم يألفه حتى اللحظة .خال انه رأى هياما تدلف الى البار الانكليزي فناله العجب وتوجه الى المدخل ثم اطل من الشباك وكان قريبا من الارض فوقع بصره على امراة دنماركية سمراء تصبغ شعرها بالاسود فعرف انه خدع .كيف تأتي هيام الى هنا .لكن من يدري ، فتلك المرأة تمتلك قابليات سحرية وايحاءات تمكنها من السفر خارج الزمن واختراق القوانين الارضية كافة . الم يرها عدة مرات ، او هكذا ظن ، في سوبرماركت ماكازين وفوتيكس واوشك ان يتبعها الى الخارج؟ الم توقظه في منتصف الليالي لتحكي له حلما رأته وتطلب منه ايجاد تفسير له؟ الم تطيّر له القبل من خلف البحار كما كتبت في واحدة من رسائلها وأحس بها تلامس شفتيه في واحدة من الافجار الخضراء ، التي عاشها ولن ينساها في فالبي؟ لم لا . كل شيء جائز على هذا الكوكب .

يكفي انه رأى الرجل الخنزير في الساحة الصغيرة التي تتوسط شارع المشاة ، وتمثال الهندي الاحمر امام محل الملابس ، والفتى المنتحي لزاوية يغني اغانيه المفردة طلبا للمال .رأى الياباني عازف الرباب يجلس على كرسي من الخشب يوزع موسيقاه على المارة غير العابئين بشيء ، وسليلي الإنكا بطبولهم وفلوتاتهم وخشخيشاتهم ونایاتهم ، يقلبون طاولة السكون على رأس مارة شارع المشاة .

لا يمكن القول الا انه رأى كل ذلك ووعاه .

رأى تمثال اللقالق الموشكة على الطيران والشاعر المحدق بأنفة الى ساحة المسرح الملكي .كل ذلك رآه دون ان يُدخِلَ البهجة في روحه ، لأنه رآه عشرات المرات قبل هذه الساعة .في شتاءات ماضية وافجار وربيعات كان فيها يائسا وفرحا ومتألق المزاج وموشكا على الانتحار ودارسا لفلسفة الروح ومعتنقا للديانات الباطنية ورساما للوجوه في كرنفالات كوبنهاغن

التي تتم كل سنة مرة .مر ذلك وفات ،لكن من دون شك ، كان وجود تاتا قد خفف عنه الوحدة ، اصبح لديه بيت يعود اليه ما ان تقفر المدينة .

اليوم هو وحيد ، في هذا الخضم من البشر والاضواء والشوارع المفتوحة على الخطى اللاهية التي لاتعرف بالضبط ماذا تريد .حدث نفسه بالدخول الى واحد من بارات ساحة البلدية ، او شارع المشي كي يحتسي قدحا من الجعة .لكن لم تواته الجرأة للقيام بذلك .هذا الاحساس عاشه ايام وحدته .خوفه من اهل البلد ، كونه اجنبيا لايحق له ان يعيش حياتهم . نقطة كثيرا ما اختلفا فيها هو وتاتا .كانت تؤمن انها تمتلك نفس الحق الذي يمتلكونه طالما انها تعيش هنا وتعمل وتقيم بصورة دائمة .ومن ناحية اكثر عمقا فأرض الله للبشر اجمع ، ولا يحق لأحد منعنا من الاقامة في اية بقعة نشاؤها . حجج صحيحة تماما ،لكن صحتها بالنسبة له تبقى نظرية فقط ، فهو يتردد كثيرا قبل ان يقوم بما يقوم به الدنماركي العادي .هذه اللحظة ، على سبيل المثال ، يود ان يدخل واحدا من البارات ويجلس على الطاولة ويوصي على قنينة من الجعة .

يود ان يتواصل مع امرأة تقضي معه بقية هذه الليلة ،لكنه خائف .خائف من لونه ، من ارتباكه ، من وجوده المفتعل في ارض الجليد التي صنعت انسانها الاشقر الطويل الازرق العينين .خائف من البوح بانفعالاته ويأسه .لم يبق امامه سوى كرستيانا . تلتمع في رأسه مثل منجل . تطغى على التماثيل واشجار الصفصاف .تهيم حافية على اسطح البحيرات المنمنمة بالاضواء المنعكسة من الابراج القوطية والكنائس تأتي صادحة ، مغنية ، متأججة بالجنس ، الجعة ، الكلاب ، قوالب الحشيشة ، المكامن السرية لقطف اللذة ، القناة المحاذية ودروبها الملتوية وذلك الضجيج الاليف للاطفال والنساء الجالسات امام البيوت .

١٨

كرستيانيا قبلة الذين ضلت بهم السبل : العاشقين . المشردين . الباحثين عن مسحوق يرتفع بهم إنجات عن الارض .حشيش ومريوانا وهيروين وكوكايين .بشر من كوستاريكا والبرازيل ولبنان والعراق وافريقيا والباكستان .كرستيانيا القبلة للمسيحي والمسلم واليهودي والبوذي والملحد وابناء كريشنا .قال لكوبنهاغن العاصمة وداعا وركب الباص رقم ثمانية واتجه به الى هناك .

القوس ثانية ، مصنوعا من حديد صدئ .شكّله الفنان ليخلّد الى الابد ، فحاكه من جمجمة الموت والق الاشعة الشمسية والوجوه ذوات الاقنعة ، وحزنه المنطلق من نظراته وهي تستجلي ما امامه وما خلفه ، شماله ويمينه ، لمدينة عليه ان يتركها .يترك فيها زوجة وبنتين وميتة واحدة ترقد في مقبرة فالبي ، لاتبعد كثيرا عن قبر اندرسون الذي كتب لها الحكايات .لم يكن ينظر نظرة وداع للاشياء قبل اليوم .في هذا الليل المصنوع من اوهام وتداعيات وخمرة وامواج باردة . عيناه تلوحان وتبكيان

وتودعان وتشيران ، كأنهما المسافر الاخير الذي عليه ان يهجر هذا الكوكب الى مجرة اخرى ، لايعرف ماينتظره فيها .على يمينه اشجار الدفلى والابنية المتآكلة واكوام الحديد الصدئ والقناني الفارغة .عن يساره بيوت سكان كرستيانيا الواطئة المضاءة النوافذ . خلفه برج الكنيسة الذهبي ، الشبيه بملوية سامراء ، يتوهج تحت طغيان اضواء مسلطة عليه من القاعدة لجلب انظار السائحين المتعطشين للغرائب والآثار .

كرستيانيا لاتنام .كرستيانيا تقطّر روح العصر وايقاعه في افواه مرتاديها .

كلابها ، شوارعها ، باحاتها ، الاطفال الصغار الذين يملؤون ازقتها وساحاتها . محلات بيع الخضرة والدكاكين التي يتجمع امامها البشر .كل ذلك كثيرا ما ذكره بالعراق ، والماضي الذي عاشه هناك ، في المناطق الشعبية والازقة والشوارع في المدن والقرى .

كان المدخل خاليا ، وبين الحين والآخر يمرق زنجي على دراجة او امرأة راجعة من عملها ، او كلب تائه يبحث عن مأوى او صاحب سكران . ثمة حصى في الطريق ، يصدر اصواتا تحت الارجل ، وضوضاء تنبعث من الابنية المضاءة .بائع الفلافل اللبناني يقف في محله منتظرا زبائنه ، والموسيقى تنطلق من مشرب الروك الواقع الى اليمين .بدأت العتمة تتضاءل قليلا قليلا ويتراقص الضوء حول براميل النار التي اوقدها باعة الحشيشة .هناك تقوم الطاولات العالية ، عليها مربعات ومستطيلات الاكسير السحري والميزان الصغير .يتحلق حول كل بائع الشابات والشباب بملابسهم الجينز المهملة والممزقة .كان البعض يرتجف من البرودة ، ينطلق منهم الدخان بسحابات تنعقد فوق اشجار العفص القريبة والتوت البري والياسمين .

حشيشة مغربية ، لبنانية ، كولومبية ، افغانية ، ذات لون رمادي مخضر يحدق اليه المتبضعون بنظرات جائعة . يسألون عن السعر ، ثم يجمعون

لثمن بعملات صغيرة ويشترون غراما او غرامين ، بعدها يمضون الى السدة الترابية التي تفصل البحيرات عن الحي . لقد رأى ذلك مرارا . لكنه هذه المرة لم يجذب نظره كثيرا لانه لم يفكر بتجربته ابدا . خلف باعة الحشيشة وطاولاتهم رأى المقهى الواسع مكتظا بالساهرين ، والطاولات الخشبية المبعثرة امام المقهى تتلامع فضاءاتها بالنار وغيمة الدخان تتصاعد بكسل فوق الرؤوس .تباح كلاب وهرير يتناءى من البحيرة والبيوت المبنية على ضفافها .وبين حين وآخر تطير بطة من الماء بصوت يهدد كثافة السكون ، او ينعب بوم فر بغتة من دهليزه المظلم .لكن كل ذلك في افق البحيرة فقط .

امامه ينتصب المدرج الذي يقود الى السدة . تسلقه ثم اختلف لديه المشهد .امامه البحيرة الواسعة وبيوت الجانب الثاني والمياه المتلامعة بالاضواء الخافتة . تحت ، في الاسفل ، قرب المياه ، كانت اضواء القمر في السماء ، الاضواء النادرة في الدغارك ، تكشف شللا جالسة تدخن الحشيشة ، يتهامسون بخوف ، وحذر .الهدوء ماكن لا يشتته سوى اصوات الحيوانات الليلية والكلاب ، وخبطات اشخاص يخوضون في المياه خلف اجمة الاشجار القريبة .الجلوس هناك ، كان متعة له قبل هذا اليوم .دأب على المجيء الى هنا مع الاصدقاء ، يحتسون البيرة ويتكلمون بالسياسة ، لغتهم العربية كثيرا ما كانت تجذب اليهم الانظار :

- هل انت مغربي؟ سأله شخص ناوله النار .

- كلا انا من العراق .

- ماذا تفعل هنا؟

- لا ادري .

رد ببرود ، لكنه بدأ يفكر بماقاله حقا . سمع مثل هذا السؤال يتكرر امامه يوميا منذ دخوله هذا البلد الا انه لم يحس له وقعا غريبا كما احس للحظة .اوشك ان يقوم الى الشاب ، وكان يجلس مع صاحبه قرب الماء

يعالجان قليلا من الحشيشة بالسولوفان والنار ، ليحدثه عن تاتا ، عن زواجه وعيشه في فالبي والقط بيليه .يحدثه عن سمارة التي ترقد في المقبرة هذه اللحظة وضوء القمر يتسلل الى قبرها مابين اغصان العفص والصفصاف في هذه الليلة الخريفية المفتوحة على الماء والسحر والاوهام ، في مدينة ترقد بين بحرين .يخبره انه كان شاهدا على مضاجعة تحدث في العراء ، بين القبور ، ليس بعيدا عن حكايات اندرسون .عن هيام وهديتها ، عن نداء الراجع من هناك ولا يريد ان يتكلم عما جرى . عن غوطة دمشق وبيت القابون ذي الابواب العديدة .عن مخبأ سلمان والكتب التي انحلت في تراب الارض وعنكبوته الذكي يونس .يونس مات دون شك ، العناكب لاتعمر طويلا ، لكن سلالته لاتزال حية في ارض بابل .قال له سلمان : لقد تعبت .اود السفر الى اية بقعة من الارض . هذا الوطن حولني الى عنكبوت . شيبني قبل ان ابلغ الثلاثين .سأرحل الى اي بلد يمد لي يده .تعبت ياصاحبي .مانؤمن به شيء وما يجري في الواقع شيء آخر .

البيوت تتحسس ليلها بالمداعبات والدخان . الازقة تمتد الى الاسفل لتصل الى البحر .من هناك يمكن للواقف على رصيف الميناء ان يرى في الأصباح والمساءات الصافية اشباح مدينة مالمو السويدية كأنها غيوم بعيدة تسبح في صبابات الوهم .لديه صديق هناك ، مع زوجته وابنه ، يحلم بالعودة الى لبنان ، فامرأته من الجنوب ، ولا يرغب بقضاء حياته حطابا في غابة .

قالت له هيام ، قبل ان تودعه على سطح الشقة المواجهة لجبل قاسيون ، كيف أراك؟ قال لها ، بعد ان حدق في الجبل واضواء المدينة البعيدة وسلسلة الجبل المائعة في العتمة ، لا اظن انني اراك بعد اليوم ، لكنني ساترك لك عنواني فراسليني عليه .عسى ولعل ، جبل مع جبل لايلتقيان لكن الحي يرى الحي كما يقول المثل .في قرارة نفسه ، وكان يحدق في

الجبل بعمق وخوف من فراقها كان يؤمن كل الايمان انه لن يراها بعد الليلة .كان اسمها الهاوية التي تُشعر المحدِّقَ فيها بالدوار . كان الرجال قبله لاينظرون الى القرار ، يمرون ويعبرون ، وحده الذي واتته الجرأة وحدق في تلك الهاوية .رأى فيها المدينة التي تناديه ، والحلم الذي يجب ان يتبعه .يتبعه بعد ان يترك كل شيء .عليه ان يقطع مع ماضيه .تلك قصص الحب ، ومغامرات النسوة اللواتي يستمتعن بالحكايات وصنعها مع رجال آخرين .

كانت هيام واحدة من صانعات الحكايات ، لكن بدلا من اختراعها يقمن بها ، وينسجن الخيوط خيطا خيطا ، لتشب الحكاية نحو مبتغاها على جثث الضحايا الذين لايدركون .ظلال . الحياة يحس بها مجموعة من الظلال ، حيث يختلط الجدار بالجسد ، الشجرة بطائر البوم ، الشبح بالخيال .ظلال الى اليمين حيث يجلس الساهرون ، ظلال الى اليسار حيث البيوت على كتف البحيرة ، تمتد الطرق ومربعات الشيل والدروب بين المخازن والمدارس والصالات التي تعرض اللوحات الفنية والمشارب .موسيقى روك تأتي من الديسكوتيك ، اصوات باعة الحشيشة والسكارى تتعالى في الفضاء .

قام من مكانه ، نظر الى البحيرة نظرة وداع . في داخله شعور انه لن يراها مرة اخرى . نزل من السدة الى داخل كرستيانيا .مشى في الطريق الذي يشقها الى نصفين .لا يزال الناس يفدون اليها ، ولا تزال المقهى تقدم الجعة والفستق واقداح الخمرة الدانماركية المصنوعة من البطاطا .رائحة السنابس تعج في الليل ، فرحة في الوجوه الرخية . صِبْيَةٌ وصبايا يتعانقون تحت شجرة الاسبندار ، والدخان ينعقد فوق رؤوس باعة الحشيشة .كلاب كرستيانيا ترى البشر دبابات ملائكية والاشجار عماليق ينبتون من الارض او يتدلون من السماء .كلاب كرستيانيا تغوص في متاهة الحشيش ، يوما بعد يوم ، تحدق الى الاجانب الوافدين بغرابة .انهم لص

او بائع حشيش او مهرب أفّاق . ينكحون نساءنا ، يأخذون نقودنا ، يشوهون نسلنا الاشقر بسحناتهم السمراء المحروقة في صحاريهم المكتظة بالجمال وبيوت الشعر والعقارب وبنات آوى والنفط .لا غرابة ان تشبه سحناتهم النفط ، ثم تنبح الكلاب وتلفت انظار الجالسين والمارة والمتعانقين في عتمة الآس قرب محل الفلافل ، عند الممر الذي يقود الى الخارج .

عليه ان يشرب شيئا . يطفئ الق هذه الليلة بالكحول . كل شيء باطل وقبض ريح كما قال سليمان بن داوود قبل آلاف السنين .نجمة بين مجرة التبانة ومجرة بائعي الهوى ، في سماء تغور بعيدا فلا تلم اطرافها عين .سهيرهناك لاتعرف ماينتظرها في المستقبل . ومي تداعب صبيتها ذات الشعر الاشقر ، الصبية البلاستيكية ، تغمز لها بعينها ، وشعرها السبط يتطاير فوق عينيها الصغيرتين : مي مادتي المحسوسة ، شبقي واندفاعاتي الخرقاء ، جانبي الارضي الذي زرعته في جوف تاتا واورق . وسهير سمائي وروحي وتجلياتي المنطلقة فوق رأسي هالة من التسامي والحكمة والسفر الى فوق .

قال : هات البيرة وأَعِدَّ شراب السنابس ، فالليلة ليلة الالق يا ايها الساقي . بيرة الفايكنك تسكر جمجمة جلجامش التائهة في مجاهيل الارض .وهكذا كان . سرعان ما تربع فوق الطاولة كأس الجعة الكبير ، وجنبه ، خجلا ، جلس السنابس بجرمه المتضائل ، وهو يحدق بالساهرين .بالليل والغزلان البشرية ، بالكلاب والافق المشرق الذي يغازل شمسا لما تزل في الخيال . تلك المئذنة هناك .تلك الملوية التي رآها في سامراء تنتصب امامه .اية مصادفة هذه .كيف جاء المتوكل الى ارض الجليد هربا من الحاشية .انه يراها ، سر من رآها :وهيام تجلس على الطاولة امامه ، في واحدة من بارات عين الفيجة . تحت ، الى اليمين ، بط يسبح وصفصاف يميل على المياه ، وبينهما كؤوس البيرة . يدخن بشراهة وتدخن هي بلذة . تسأله عن حياته في الدغارك ، يخبرها بالبيت الذي يسكن فيه

والاصدقاء ومشاغلهم .هذا يدرس اللغة وذاك يمارس اللصوصية . تلك تدرس الموسيقى وهذه تخرج مسرحية ايمائية صغيرة ترضي طموحها .يجتمعون بعض الايام على الورق ، يقامرون من اجل البيرة والدجاج المشوي او النقود .تمضي ايامهم هكذا ، طموحات صغيرة وحياة راكدة .

عن نفسه كان يقول محدثا جليسته : انه يسمع بتهوفن وموزارت ويطور لغته الانكليزية والدنماركية ويتعلم البرتغالية . انكر زواجه ، لكنها لم تقل له لماذا تتعلم البرتغالية ، لم يقل لها انه كان في البرازيل مع تاتا ، حيث اقاموا عيد الميلاد في كابريوفا . رقصوا وغنوا والخمرة السكر البنكا تدير الرؤوس والنساء البرازيليات الشغوفات بالغناء والرقص .تاتا كانت تقوده الى الحياة هناك ، على رائحة الشواء البرازيلي والموسيقى والشدو المنطلق من طائر البنتيفي الذي كان يوقظه من سماوات نومه في حقل ايليانا ، اخت تاتا .لم يقل لها ذلك ولا خبّرها عن برشلونة حيث يمكن التفاهم باللغة البرتغالية .

عيناها سوداوان تخترقان روحه ، يقرأ انجذابها نحوه ، لاتود مفارقته .هذه هي المرة الاولى التي يقترب من امرأة عربية هذه المسافة .ظلت المرأة له لغزا يصعب حله ، هاوية لايمكن اضاءتها .ضاجع كثيرا من العاهرات ايام كان في بغداد . عرف نسوة ايام دراسته ، واقام علاقة بسيطة لم تستغرق الا اشهرا في دمشق ، قبل اكثر من عشر سنوات .عرف نساء ساحة المرجة وشارع بغداد وازقة الصالحية .في المساءات والعطل .ايام التسكع والرغبة الحارقة الى المرأة بأقصى تجلياتها .تجليات الجسد العاري ، والرغبة العارية الى الجسد .لكن ذلك لم يُقرّبه حقيقة الى روح المرأة .الى البخور والهواجس والابتسامات الملغزة والكلمات الزلقة التي يمكن ان تشي بمعنيين في الوقت نفسه .كاد ان يدخل الى روح نضال بعد السفرة الاولى ، لكنه انتبه الى الامر ووضع بينه

وبينها جدارا .لايرغب بخيانة سلمان .قرر ان يعاملها معاملة الاخت .وفهمت هي ذلك ، واقتنعت به ، رغم ان احاسيسها في الداخل تمتد الى مدارات ابعد .

مع هيام ، اكتشف ان اللغة برزخ من الصعب اجتيازه . البرزخ بينه وبين تاتا هو اللغة ، الرنة والصوت الداخلي والانفعال المصاحب لها والحمولة المتوارثة منذ مئات السنين . أهي تلك الحمولة التي سحرته بها هيام ام روح مدينتها ، دمشق المعتقة مثل خمرة معلولا؟ هذا هو السؤال .حفلة البارحة تأتي امامه .الحفلة التي اقامها في البيت كي ينام .الحفلة الطويلة ، التي استخدم فيها زيت الزيتون لتطرية الاعضاء ، والخيالات الفاقعة القادرة على استحضار الادوار الملتهبة . كانت تاتا مَرّةً ، ومَرّةً هيام . بيتا مَرّةً ومَرّةً خديجة الفلسطينية ، صديقته في مدرسة اللغة .الانهيارات العصبية في تمسيد الاعضاء واستجلاب اللذة من الجسد . في التوتر الاقصى .كل ذلك كي ينام .يؤخر ، يوما آخر ، القرارَ المصيري في البقاء او الرحيل من هذه المدينة الملعونة الباردة الفجة البذيئة الجنسية المخصية الحاوية على مقابر للغرباء والمشردين من امثاله .

الانوار تهل في السماء ، منثالة من طرف كرستيانيا . انوار فجر موشك على الهطول .تيجان الشجر تحددت كتلها ، وزوايا البيوت والعمارات اتخذت شخصية مجسدة . الذهب في البرج الكنسي صار اشد لمعانا من ذي قبل .لا احد هناك .غادر الساهرون وتركوه في الساحة .المصاطب خالية ، والبار مغلق ، وبين حين وآخر يمرق كلب او رجل تخلف عن سريره .الفاختات للتو استيقظت من افنانها المتهدلة على مياه البحيرات .

مشى في الدرب ، قدماه تسحقان الحصى المفروش . ثمة اعقاب سجائر واوراق وبرودة حادة تلف الياسمين والطيور . لقد اطفئت النيران في المواقد الحديدية و رائحة الحشيشة لازالت عالقة في الهواء .مثلما انسل في الليل الى كرستيانيا ينسل منها في الفجر وحيدا مهملا متعبا . القى نظرة على

قوس المدخل والهدوء يعوم على النوافذ والابواب المغلقة والقرميد الاحمر .في بحر الهدوء نفسه كانت الكنيسة بطابوقها الاحمر تنتصب جليلة فخمة ، يرين عليها سلام غريب .البرج هناك ، جنب المدخل ، والمدخل مفتوح ، وهو بحاجة ماسة للذهاب الى هناك .لا احد في باحة الكنيسة .

تسلل الى ممر مفروش بالبلاط الكونكريتي ، قاده الى عتمة البرج حيث الدرج يقود الى الاعلى .كان يصعد بتمهل يتحسس طريقه بحذر الى ان وصل الى المنتصف .من هنا تبدأ المَلوِيَّة ، مفتوحة على الفضاء ، والبرودة والآفاق المغبشة البيضاء والمشهد السماوي بكل جبروته وجلاله .هنا ، حيث وصل ، تنعدم الهموم الارضية ويشعر الانسان انه ارتفع قليلا عن الارض ، ارض الزوجة والملبس والطعام والحديقة والنقود والجراد والحملان والمقاعد والبحيرات والبقر الضخم والزبدة وطائر النورس . ارض الزنجي والعاهرة وجرة الخمرة في حانة الحذاء الصيفي والذرة الصفراء المزروعة في قرية الحامضية ومشارف هامبورغ وسهوب قلعة دزه . ارض الجرادة والجاموس والثعلب ، الجمل السائر في الرمال والبقرة المربوطة قرب المطار .ارض طهران وريو وبيروت ودمشق وبغداد ومدينة الحلة ذات البوابات النهرية على الفرات .

هناك ، في البعيد ، تجلس على الساحل عروس البحر . تنظر نظرتها التائهة في مديات البحار والموج والسفن القديمة . تجلس تحت تلك الاجمة من اشجار الجوز البري ، نحت منها الفجر كرةً هائلة تكاد تتدحرج تحت باصريه لتسحق كوبنهاغن .اغصان واعشاش ونساء منحوتات في الممرات .الكنيسة الانكليزية ذات الحجر الابيض ، ونوافذها الملونة التي كانت تدهش تاتا بألقها والوانها .امامها بالضبط تمثال رئيس وزراء بريطانيا ، تشرشل ، يقف رأسه على منصة كونكريتية ، كثيرا ما اشتهى البصق عليه ، لا يدري لماذا .

في المنتصف من المدينة الراقدة تحته برج البلدية ، وخلفه برج الكاتدرائية ، ببابها العملاق ، ثم حدائق التوفلي كأنها اشجار رسمها طفل على ورقة .بيته في تلك المنطقة البعيدة ، جنب حديقة الحيوانات ذات البرج الخشبي المطل على الميناء الجنوبي .الدب راقد في الكهف والقرد ينط بين القضبان . الماعز يتقافز عند الممر السفلي والباشق يأكل فريسته وهو واقف على صخرة خلف شبك الحديد .شوارع تتفتح تحت الضوء وشوارع تغيب بعد انطفاء المصابيح .وكوبنهاغن التي سوف يودع ، نائمة تغور باحلام الفايكنغ والاخطبوطات البحرية والنيران المتأججة والجعة السوداء .جنس ومال وطعام واحلام .انها تمتد من بحر الى بحر .من عروس البحر الى مطار توسترب ، هناك الى يساره تماما ، بابراجه وطائراته الحاطة والقالعة ، مساحاته مندغمة بالافق .المطار رحم المدينة ، منحه المتعة سواء في الذهاب او الاياب .منه رحل الى سانباولو ، قطع المحيط بروح المغامر الباحث عن السعادة ، ومنه اقلع بتاتا الى سواحل برشلونة ليقضيا شهر العسل بعد زواجهما بأشهر ، وكان كثيراً ما حدق الى الشرق وهما جالسان على الرمال .رمال برشلونة بيضاء ورمال كوبنهاغن سمراء . الى اين يأخذه المطار هذه المرة؟فكر مع نفسه وهو يقف في اعلى برج الكنيسة المفتوح على سماء برتقالية تبعث البرودة في العظام .يقف عاريا مع المدينة التي عاش فيها عقدا من السنين ، ويعرف كل زاوية فيها .جاءها شابا وسيغادرها كهلا .

يفتض غموض مكان وامرأة ومدينة ، يجد طائره السحري الذي فر من امامه .حلق فوق هذه الابراج والكنائس والبنايات والطائرات المحلقة نحو امكنة بعيدة .فوق مزارع الشوندروالتوت الارضي والتفاح الاخضر والقمح وشقائق النعمان .فوق الخلجان والجزر وسفن الفايكنغ المطلية بدماء ضحاياهم .رآه يغور في الجهة الشرقية ، نحو بلاد مكتظة بالحكايات ، مبهرجة بأشعة شمس ، لنسائها سمرة ولتينها حلاوة ولخمورها لذة

للشاربين .

من اعلى البرج كان مثل من يرى شخصا ينزل من الباص حاملا حقيبته الكبيرة ، رأسه مشعث وعيناه مستثارتان .على كتفيه اوزار حروب وهروبات وذكريات واوبئة نصف قرن .كان يراه وهو يمضي واثقا الى الداخل ، باتاً بمصير عائلة واصدقاء وبلد كاد ان يصبح بلده .دمشق في ذهنه مثل نار ، تطغى على محلات مليئة بالبضائع الساحرة ونساء شقراوات ولغات اوربية طالما داخله الفرح بتعلمها ومشروبات روحية تنضح بالاغراء ودخان سجائر معطر .

١٩

عليها ان تدبج رسالتها الى الغريب .

كتبت اليه بعد يومين : لا اريد ان اتذكرك مكتملا ، اريد ان تبقى صورة غير واضحة لان الاشياء اذا اكتملت تحترق وتموت .انا ايضا احن الى تلك اللحظات الخالدة التي عشناها بين يدي بردى .نطرطش الماء ، نتسلق الشجر .اذا ظهرت الصور التي التقطتها ابعث لي نسخة منها ، اود ان استعيد تلك الايام .ماتزال في ذاكرتي ايضا ، لم انسها رغم مرور الوقت .

ايامي موحشة ، من البيت الى العمل ، ان لم اكن في البيت اكون عند اختي . لم ابح لها بعلاقتنا ، لكنني نوهت لها بالامر . حاول المجيء بأقرب فرصة ، انا محتاجة اليك .اشعر بالوحدة ، لست مرتاحة في العمل بسبب العلاقات الظلامية المحكومين بها يوميا .اقبلك فوق الحنك .

ارسلت الرسالة بالبريد المستعجل .لاتريد تضييع الفرصة . رجعت الى روتين حياتها الذي دأبت عليه ، الا ان علاقتها بماجد عادت الى برودها ، فهو سرعان ما ملّ من شرودها وصمتها وسلبيتها .طرقت بابه اكثر من

مرة ، تعلل بوجود ضيوف ، او ان لديه موعدا ، واستغربت انه لم يسألها عن الدنمارك ولا عن الرسائل . في الوقت ذاك ، وفيما كانت تشكو الوحدة والسأم ، تعرفت على الرسام .كان في زيارة للبلد ، جاء ذات ضحى الى الدار لنشر لوحات ملونة في ألبوم .دعاها في البداية الى شرب قهوة اثناء ما انتهيا من حوار حول الاخراج النهائي والخطوط ومقاييس الكتاب والصور . دعاها خلسة ، فحددت مكان اللقاء في مقهى الهافانا ، وطلبت منه عدم اخبار احد ، لان أوضاعها في الدار حرجة ، والعاملون يراقبون حركاتها .في المقهى قالت له مارأيك لو نمضي لاحتساء البيرة في مشرب الرصيف .وافقها ، ومضيا الى المشرب . قالت له لا ارغب ان يرانا احد ، وهذا ما تفعله مع الكل ، فهي تلتذ بالعلاقات السرية ، تجد انها تحقق لها وجودا خاصا ، وهي تعوّل كثيرا على العلاقة الجديدة هذه .

الرسام اشقر الشعر ، ذو انف افطس ، وجهه مدوّر ، عيناه تتريّتان . في تقاسيمه شَرَهٌ عميق للطعام والشراب والمرأة ، على الرغم من انه عبر الاربعين منذ سنين ، هذا ما لاحظته حسب خبرتها في الرجال .اما هو فأكثر ما اعجبه فيها وجهها الموحي ، المشبع بالوقاحة والجنس ، وتقاطيعها الحادة ، وشعرها الناعم ذو الغرة ، الفاحم السواد . اما عيناها فسوداوان عميقتان يود المتطلع فيهما ان يرفع ثوبها مباشرة ويغتصبها ، سواء في الشارع او البار او محل العمل . ربما لذلك التحدي الغريب للرجولة المستولي عليهما . يروي لها طرفا من حياته في باريس ، يحدق في وجهها ، يتخيله لوحة مكتملة . عراها واطلع على زوايا جسدها الحادة ، الفخذ الناحل والرقبة الطويلة السمراء ، والعمود الفقري المنحني بقوس لطيف ستصنع منه الفرشاة وسادة لونية تربط الجسد الذكري بالعالم الانثوي المبثوث في غرفة من الغرف او بيت من البيوت .

كان يراها لوحة ناطقة . زمّة فمها ،عيناها السوداوان ، حاجباها الناعمان المعتنى بهما .استطاعت تجسيد العالم الذي اندرجت تحته في نوبة بكاء

حادة ليس لها نهاية . سيحول تلك النوبة الى احمر واخضر وبنفسجي وداكن .

الرصيف قبو واسع ، ينزل اليه الرواد بواسطة درج رخامي ، يقدم كل انواع المشروبات . انه معتم بعض الشيء يهيّىء مكاناً مثالياً للقاء العشاق والاصدقاء والهاربين من رقابة ما . على الطاولات يرى المرء نساء محجبات يتبادلن اللمسات مع رجال ، نساء مسنات مع رجال اقل عمرا ، اجنبيات من اماكن بعيدة ، غجريات بملابس فولكلورية تشي بانتمائهن الى الصحاري والقرى . لا يبعد كثيراً عن صالة السيد للفنون التي ينوي الرسام اقامة معرض له فيها . تأتي اصوات العالم الأعلى خافتة ، ما يدفع الجالس الى الانغمار بطقوس المكان ، هذا ما كانت عليه هيام .رآها الرسام تحتسي البيرة بنهم ، رغم انها لا تتكلم كثيرا .حلم بجسدها لهذه الليلة ، يحتاج الى التواصل مع الانسان الشرقي ، والمرأة خاصة .غاب عن الشرق اكثر من عشرين سنة . فكّر ، بعد ان قرأ كتابا عن الرحالة الغربيين وتصويرهم للنساء في العهد العثماني والحكايات التي دارت حول ذلك ، بعمل البوم حول الموضوع . لايمتلك مكانا ، يسكن مع صديقه في ركن الدين ، والصديق متزوج وله ولدان .كيف العمل اذن ؟

قبل ان ينبههما العامل الى مغادرة البار بدقائق جس نبضها بالقول : تأخر الوقت .كانت نصف سكرى .قالت له ننتقل الى بار آخر ، اعرف واحدا في دمشق القديمة . قال لها صديقي سيزعل عليّ اذا رجعت متأخرا وسكرانا .قالت له طز على صديقك . سنسهر الليلة حتى الفجر .سآخذك الى المرقص .قال لها وهل يوجد مرقص هنا؟ صاحت ، بعد خروجهما من باب القبو مثل ممثلة في فلم : الى الميريديان .

تميل عليه . تتكئ على فخذه . ترتكي بظهرها على صدره . هذه المرأة تمثل حالة السكر ، فهي لم تحتس كثيرا من الجعة .يضع يده على صدرها بحجة انه يسندها من السقوط ، مما جعل انفاسها تتدافع بصوت مسموع

وهي تحدثه .لم يعر اهتماما للناس الذين كانوا ينظرون . السماء صافية مع شيء من البرودة ، اشجار الجوز البري تصطف مثل جنود على جانبي الشارع .قالت له انظر الى هذه المدينة ، من قاسيون الى الغوطة ، عرفتها شارعا شارعا ، منذ ان خرجت من البيت الى ان جلت على مدارسها معلمة للانكليزية .لا اظن انني اجهل حانة او مشربا فيها .تبوح بنتف من شخصيتها لكل شخص تعرفه ، خاصة اذا توسمت فيه واحدا من الذين لايقدمون لها اكثر من متعة ليلة او اسبوع ثم يرحلون .كان الرسام واحدا من هؤلاء .

أشّرا لعدد من السيارات . لم تتوقف اي واحدة منها . دار الحديث المتقطع عن زيارته لدمشق ، والاشخاص الذين يعرفهم ، وكم سيبقى في المدينة . فجأة قالت له نمضي الى الدار ، نعمل قهوة ونجلس .استغرب حديثها ، لكن كعادته مضى باللعبة الى نهايتها .ثم غادرا مشيا الى هناك .

ضاجعها على كرسي المدير وطاولتها التي يحتلّها الكومبيوتر ، وطاولة السكرتيرة . ثم راحا يدوران في المكان مثل قطط جائعة . وكأنها ترغب بالانتقام من هذا المكان وما فيه من اثاث وبصمات اشخاص وكبرياء وتنكر وادعاءات فارغة بالعفة واذلالات مارسها الرجال معها .قائمة وقاعدة وعلى اربع ، متخالفة ومتقابلة ومتشابكة . لم ترتو منه الا عند الفجر ، حين صار عليه ان يترك المكان والا تحدث فضيحة .قال لها كيف اقابلك؟ قالت اتصل بي تلفونيا .قال لها لا ارغب ان يعرفني احد .قالت دع صديقا من اصدقائك يتصل مع السكرتيرة ثم ما ان تحول الخط الي حتى تلتقط انت الهاتف . مارست الشيء نفسه مع رجل كوبنهاغن ، لكنه كان اكثر جرأة فاتصل ثم اعطى اسمه صراحة .

مضى الرسام منهكا . اغلقت الباب ونامت على صوفة في المدخل ، ترقبها الكتب والمروحة والابواب المفتوحة على فراغ الغرف .كادت ان ترى الموظفين بضجيجهم وضحكاتهم ، سميرة والهام وباسم ، تخيلت وكأنهم

يضحكون سخرية منها .نامت قلقة مستوفزة ، لاتود ان يراها احد على هذه الهيئة صباحا . قررت ان لا تغلق عينيها طويلا ، كيلا تأخذها غفوة الصباح .

في لحظة ما تخيلت ان ثمة خطى تدخل البناية . اصوات باعة الحليب تعلو في الحارات .رأت الشجرة الوارفة الشبيهة بشجرة التوت ضخمة شاسعة التاج ، وهي فتاة جميلة تتطلع اليها ، رافعة رأسها الى السماء .عتمة وظلال ، وثمار تلك الشجرة مختلطة ، فالرمان بعناقيده يتدلى الى الاسفل ، مجدولا بالخيوط ، كل ثمرة فيه بحجم قبضة اليد .رأت عذوقا من التمر وتفاحا وعنبا ، رأت الخيار الطويل والطماطم ، والباذنجان اسود مشعا ، وهي تنظر وتعجب . هل هي في جنة ام في حلم؟ انه حلم بلا شك ، عدته علامة من علامات الخير ، ونبوءة ستحقق لها حياة افضل . ابتدأت في الدقيقة التي سلمتها السكرتيرة ممتعضة رسالته ذات الطابع المرسوم عليه طائر اسود بحجم الزرزور . منقاره اصفر وريشه سلس ، وفكرت انها ستسأل عن اسم هذا الطائر في رسالتها القادمة .

بدأت تفكر به فعلا ، بعد ان قرأت الرسالة ، فلا يعقل انه تعلق بها لهذا الحد ، او على الاقل كما كان يكتب في رسائله .اخذت تحلم به حقيقة ، بوجوده وامكانية سفرها معه الى بلاد اخرى .لم لا ، امرأة جذابة لديها القدرة على اسعاد الزوج والعناية ببيت صغير وانشاء اطفال ايضا .الم تستطع القيام بدور زوجة اكثر من سنة؟ حين سكنت في باب توما هي وزوجها السابق ، في ذلك البيت الصغير القائم على كتف بردى ، المعلق في الطابق الثاني بدَرَجة المتآكل حيث الغرفة البائسة ، المهلهلة الجدران والسقف ، وسياج السطح . ماذا لو عادت الى ذلك البيت؟

رسالته هذه المرة اشبه بقصيدة شعر . في السابق كانت رسائله تعريضاً وشوقاً وذكريات ، لكن هذه المرة احست بالحب وراء الكلمات وثمة رغبة عارمة بلقائها . اكثر ما ادهشها ذاكرته العميقة ، التي لم تزل تحتفظ بأغلب

التفاصيل التي عاشتها معه .

لا يتذكر تفاصيل صغيرة الا عاشق حقيقي ، او شخص قضى اوقاتا رخية في استعادة التفاصيل والحوارات والالوان وكل ما عبر الزمن في لحظة تماس شخصين . الصباحات التي كانت ترجّل فيها شعرها وتنظم غرتها امام المرآة .الاصباغ الروج تطلي بها شفتيها ، والاهتمام الزائد الذي تصرفه حين تمضي الى المكتب .كعب حذائها الذي سقط اثناء تجوالهما في ضفاف بردى عند الجبال ، والطين الذي لوث بنطالها .شيء واحد ازعجها ، قال ان طعم جسدك لازال في البال . وهي حماقة منه ، فالرسائل تفتح احيانا من قبل مديرة المكتب ، وهي لا ترغب ان يعرف احد عنها شيئا ، خاصة العاملين معها .

تذكرته حين زارت لبنان في الايام الماضية .رحلت لقضاء شأن من شؤون الدار ، جلست على الساحل مع كأس من القهوة وراحت تتطلع بمياه البحر الزرقاء .المياه العميقة الممتدة نحو الغرب ، التي تضيع في افق يتقاسمه معها .كانت تركز افكارها عليه ، تؤمن قليلا بالايحاء والتواصل الروحي بين شخصين . استحضرت ماتبقى من ملامحه ، دخلت قليلا قليلا في التفاصيل ، العينين وحدّتهما ، الوجه وطمأنينته ، الشعر السبط المفروق الى الخلف المدهون بالبريلكريم ، زمّة فمه المحببة الى نفسها . تحدثت معه ، قالت انني احبك كثيرا ، افكر بك دائما ، لم يعد احد يملأ فؤادي بعدك ، الايام تمر عليّ كئيبة موحشة .من البيت الى العمل ، افتقد شخصا يفهمني حقا ، رفيقا أبثه همومي ، فأنا وحيدة .تعال خذني الى بعيد ، الى حيث شئت لأُسلّيك في غربتك الطويلة .

والفنان ماض معها في اللقاءات . صارت تزوره في البيت الذي يسكن فيه ، بيت صديقه الذي سافر الى لبنان هو وعائلته .ترك البيت للفنان ، افرد له غرفة وضع فيها حامل اللوحات الخشبي وطاولة للألوان والفُرَش ، ومسجلة عتيقة مع راديو .كلما انتهت نوبة العمل في الدار تمضي الى

هناك .تجد العرق والبيرة في البراد ، تجد الطعام جاهزا ، ثم تجده مشغولا بالرسم . يرسم النساء فقط ، يهتم كثيرا بالعري ، بالجسد ووهجه والوانه .الوانه متوهجة تلفه اثناء الرسم ، تراه يسبح في بحرها مثل طير اشقر . تحاول مساعدته بجلب لون او فرشاة او توليع سيكارة .

ذات ليلة سألها ان كانت تود ان تكون موديلا لصوره .رفضت بشدة في البدء .لاترغب بتجسيد تفاصيلها على لوحة ، ولا ان يستشف احد ملامحها . اخبرها ان الملامح ستمحى ، فهو لا يرسم الملامح وتفاصيل الوجه بقدر ما يهتم بالحالة والتكويرات والحركات وايحاءات اللون النفسية والشعورية .شلحت ملابسها ثم استلقت على الفراش .شعرت انها تحت سلطة رقيب ، جسدها يتفتت الى قطع صغيرة .اعتم زاوية في جسدها تضاء بنور خفي من روح سرية تراقبها ، تخفي وجهها . يطلب منها انزال يدها الى سطح الفراش ، تلم فخذيها ، يطلب منها افرادهما كي يشف التفصيل وتتحدب الاماكن كما ينبغي ، يتغلغل اللون الى خلايا الروح .

الاصبع نحلة طائرة ، الرأس ارجوحة . العينان تنّوران يطلقان دخانا ازرق ، البطن سهل تحت شمس الظهيرة . الردفان جبلان خرافيان ، السرة مرتع للبجع ، والغرة سرب غربان في نهار عاصف .ثم في وضع مثير مفاجئ ، يهبط جسد الفنان عليها بغتة ، مهتاجا متعسفا يحاول الاستيلاء عليها وهضمها بعد ان فشل في نيلها على القماش .اتفق معها انها اذا استمرت معه طوال مشروعه فسوف يمنحها مئتي دولار .كان مبلغا مغريا رغم انها تحب البقاء معه ومرافقته الى مطاعم دمشق وباراتها اكثر من قضية العمل معه كموديل .انه ممتع رغم بطئه الجسدي والروحي .ممتع لانه يرى الاشياء بزاوية سلسة ولا يحاول فلسفة الامور ، يعيش الحياة كما منحت له .مايهمه هو اللون ، والباقي تفاصيل .

يدخل المكتب ، يسلم على الجميع ، يعاملها معاملة عادية ، وبرسمية ايضا . يفهمها رغباته بالاشارات والرموز والكلمات الملغزة ، واذا استعصى

الاتفاق بسبب وجود اشخاص ، يكتب ورقة صغيرة ، يدسها في يدها اثناء عبورها الى الحمام ، او يتفاهم معها امام الكومبيوتر حول رسمة من رسومه ، وكيف تخرج ، او بحجة اطلاعها على لوحة من ألبومه الفني .اقترحت عليه هذه الطريقة ، بعد ان تعلمتها منذ ايام الدراسة .مارستها في البيت حين اللقاء بشخص حميم يتعذر لقاؤه بسبب وجود اخوتها . تحس بلذة فوق ذلك ، لذة روحية من انها تمتلك اشياء لايعرفها الآخرون .

مضت الى الرواق مع الرسام .جلسا في الصالة الشتوية ، شربا النبيذ الاحمر وكان يحدثها عن الفن الايطالي والكنائس التي رآها ، واسلوب مايكل انجلو في رسم اللوحات والوجوه . خوان ميرو وسلفادور دالي وبيكاسو ، وهي يلذ لها ان تسمع الاشخاص يحكون . تهرب من دواخلها ، من ذلك التاريخ البائس الذي عاشته فترة الزواج في باب توما .كانت ترقب الاشخاص الداخلين الى المشرب ، ماجد اعتاد على الجلوس هنا ايضا .اشخاص كثيرون تعرفهم هنا ، تومئ لهم ، محيية ، لكنها لاترغب باعادة الكرّة معهم . كل واحد له قصة معها .الشاعر النحيف سهر معها حتى الصباح في الشوارع وضاجعها عند حديقة السبكي ، وقذفها الى اصدقائه في واحدة من الليالي . غضبت وخرجت الى اقرب شخص تعرفه يمتلك محلا للعطورفي الصالحية . مراسل الصحيفة الكهل دعاها الى بيته الواقع في المزة وعرض لها فيلما جنسيا ، احست له بالقرف .كل واحد له قصة . والمدينة حكايات وقصص واضواء ، زيتون وصالات ومساومات ، باعة حليب وسكيرون .

سألها الرسام ان كانت تعرف احدا هنا فقالت كلا ، لكنني لمحت بعضا منهم اثناء ماكنت ارتاد المكان مع ماجد .من هو ماجد؟ سألها ، شرحت له ايام عشقها له وكيف التقت به ثم كيف راح يسهر معها هنا .عند انتصاف الليل حكى لها عن خطته في رسم كتاب كامل عنها .قال سأسميه

«امرأة من ضوء» .القسم الاول سأرسمك فيه عارية بالاسود والابيض واستخدم الفحم . ثم في القسم الثاني ارسمك لوحات ملونة كبيرة الحجم تعري احاسيسك وتشف عن روحك الضوئية النزقة .في الثالث اؤبد زواياك وركائزك واستداراتك وخباياك المكنوزة جيلا بعد جيل ، مات لها ملايين وحارب حولها الفرسان .قالت له اخاف الفضيحة . قال لها سأغير الملامح فلا احد يعرف ذلك ، وسأزوّر تواريخ اللوحات ومكانها .بدلا من دمشق اضع باريس ، وفي باريس مألوف استخدام الموديل في الرسم .وقبل ان ينهيا الليلة دخل فجأة شخص يعرف الرسام ، قال انه جاء زيارة الى دمشق وسيرحل بعد اسبوع الى كوبنهاغن .

احست قلبها يعتصر ، لف الحديث ودار واذا به يعرف صديقها المغترب . قال انه يعرفه جيدا وكثيرا ما جلسا والتقيا سوية .احترق الفلم ، خاطبت ضميرها ، سيخبره بالمشهد كما رآه حتما .هؤلاء البشر لايكتمون شيئا .انهم متخلفون يظنون بالنساء الظنون . ما ان يروا امرأة مع رجل حتى يتخيلوهما عاريين في الفراش .افظاظ ادخلتهم الحروب الى نفق لم يخرجوا منه .حولتهم الى قتلة . متطرفون في كل شيء ، في الحب والكره والعنف والقول والمشاعر . خبرت عددا لابأس به منهم .

مضى الرجل الى الحمام و قالت للفنان : عندما نخرج أقول لك انني ماضية الى البيت وسأترككما وامضي الى بيت صديقك .عليك ان تتصرف مع الرجل وكأن مابيننا مجرد لقاء عابر .لم يفقه الفنان سبب هذا التخفي والسيناريو العجيب .الشخص لايعرفها ، وحتى لو عرفها فهو لاتعنيه هذه المسألة .قالت انها تحافظ على سمعتها وانتم تحبون الاشاعات .تبقى هي شرقية بكل الاحوال والنساء الشرقيات يهمهن السمعة والشرف من كل بد .وجد التبرير مقنعا فمضى بالسيناريو الى نهايته ، الا انه انتظرها طويلا فلم تأت .

٢٠

كانت الحرارة خانقة ، رغم ان المراوح تدور .ضوء اصفر يتسلل من الشبابيك ، والهدوء يدرج على الممر والغرف والاشخاص .المدير في غرفته يقرأ الصحف .التلفون عاطل عن العمل منذ الصباح .وكانت هيام جالسة امام جهاز الكومبيوتر . علب الورق تتكدس في الزوايا وتحت الطاولات ، وثمة رائحة لأحبار واصباغ وورق تنتشر في الهواء .والغرفة ملوثة بدخان السجائر .دخل شاب غريب الاطوار ، مذعور الملامح ، عيناه نافرتان قلقتان ووقف امام طاولة منال ، سكرتيرة الدار وسألها عن فتاة اسمها هيام تشتغل هنا .اشارت منال اليها ، احست قلبها يدق بعنف ، فالوجه لاتعرفه والشخص يحمل مغلفا بنيًا بين يديه ، يسير غير واثق الملامح نحوها .كان مرتبكا ، صافحها ، جلبت له كرسيا .قبل ان يجلس قال لها انه يحمل لها امانة من كوبنهاغن ، ففهمت الامر . فهمت لماذا صار قلبها يطرق بعنف .الايحاء اكبر مماتصورت . البارحة حلمت انها تجلس على دكة في برج مزين بالاشجار ، والطيور تحط على يديها وشعرها . هناك سهل

منبسط تحتها رأت فيه شخصا يمشي نحو البرج وكان يلوّح لها من بعيد .السهل مفروش بالشقائق ورائحة الحقول تصل الى انفها .تحت ابط ذلك الرجل خروف صغير تسمع ثغاءه وترى صوفه الابيض .قبل ان تفيق من النوم كان شخص يجلس قربها تحت شجرة اليوكالبتوس ويلمس كفها بحنو .همست لنفسها ان كل مارأته فأل خير ، وشعرت بالصباح جميلا اثناء توجهها الى العمل . هجست ان هذا اليوم سيكون جميلا رغم مابه من برودة خريفية .اثارتها الزيارة لكنها لم تفاجأ ولم تندهش .

جلبت له القهوة . سألته عن صديقها ، ومتى وصل هو الى دمشق وكيف كانت الرحلة .اسئلة عادية جعلت الشاب يسترخي بعض الشيء ويتنفس ببطء .سلمها المغلف .فتحته .كان فيه رسالة وعلب بودرة لتطرية الوجه ، اوصته عليها .ذهلت من وفائه .هل يمكن ان تعدّه رجلا يختلف عن اولئك الذين عاشرتهم في حياتها؟ قليل منهم يحترم كلمته او وعده .حتى ابوها يراوغ ولا يفي بوعوده ، خاصة وعود ترك الكحول التي قطعها لأمها مرارا وتكرارا .قالت للشاب : حاول الاتصال بي لنجلس خارج المكتب نتحدث اكثر ، انا اود معرفة المزيد عنه . في حقيقة الامر وجدته ملائما لقضاء شهر آخر في اللهو والتسكع في الحانات وربما يترك لها قليلا من الدولارات بعد رجوعه الى الدنمارك .

الشعر عش غراب في عاصفة ، يصعد وينزل . البشرة مشدودة على العظام ، والعينان خادعتان .القزحيتان لاتستقران على مشهد ، تنتقلان بين السكرتيرة والشباك وعينيها المستثارتين . طريدة مناسبة . ضربت له موعدا في الرصيف ، وفي ذهنها الغاء موعدها مع الرسام .ملت منه بعض الشيء وهو في طريقه الى الرحيل .عليها ان تعرف المزيد عن الغائب .

الساعة اطبقت عقاربها النصف كونية على الثالثة بعد الظهر حين غاصت في فم الرصيف .

الموسيقى هادئة ، والنظرات سكرى والصالة ملونة .

شربا البيرة واكلا الفستق الحلبي ، ومثل كل مرة راحت تناور قليلا قليلا لكي يحدثها عن نفسه . لاتستطيع التصرف بالطريقة التي تحبها الا بعد ان تشكل صورة عن الشخص .كانت تفضل المتكلمين من الرجال على الصامتين ، تهوى السماع لانه لايكلفها الحديث عن نفسها .تتحاشى الحديث عن نفسها ومن خلال خبرتها مع الرجال وضعت عددا من الثوابت تحاول جهد الامكان اللعب عليها . ترسم صورة معينة لشخصية الرجل ، بخله وكرمه ، شجاعته وجبنه ، غباءه وذكاءه .عرفت من نداء انه خدم في المقاومة الفلسطينية في بيروت ، خرج الى سوريا بعد الاجتياح الاسرائيلي ثم اقام سنتين في سوريا ليُطلب منه المغادرة بعد ان ارتكب عملية تزوير للخروج الى احدى الدول الاسكندنافية .العصبية بادية على وجهه ولكن عينيه شيطانيتان ، يتمتع بشرب البيرة كثيرا .

قال لها جئت للسياحة ، سوف اقيم شهرا ثم اعود الى الدنمارك . رغبتي ان نقضي بعض الايام معا في الشرب والنزهة .اين تسكن؟ سألته .قال في صحنايا ، سوية مع واحد من الاصدقاء اسمه ايوب ، يشتغل سياسيا منذ ثلاثين سنة .بنى بيتا واسعا من عدة غرف ، لم يتزوج لحد الآن .لايثق بالنساء .

تنقلتْ في اغلب مناطق دمشق . مساكن برزة والتجارة وباب توما والمهاجرين ودمر لكنها لم تعرف احدا في صحنايا ، بل ولم تزرها قبلئذ .الامر مغر ، ورسمت في ذهنها قضاء الليلة مع نداء هذا ، القادم من بلد الجليد الذي يشبه رأسه عش غراب متحرك .كفت منذ زواجها السابق عن طلب الجمال في الرجل ، اكثر مايهمها حديثه وقدرته على احتمالها .ان يقدم لها وقتا ممتعا ، ملؤه الشرب والطعام والغناء ، وهي تعشق الغناء لدرجة انها لاتستطيع تحمل الصمت .الصمت عذاب ، يُدخلها في متاهة الماضي ، حيث تمر الوجوه سريعة متواثبة كأنها شريط سينمائي .تشعر له بالتعب والرعب فترتكس الى الشرب والصوت .ومثلما

ينقلها الغناء خارج الروح ، تعمل الزهور والاشجار والبحر والنجوم والنار .انها عاشقة للنار ، تتطهر بالسنتها الوهاجة تجلس حولها تتأملها ، تعيش ذراتها الحمراء ودخانها والاشكال التي ترسمها . المياه تسحرها ، وكثيرا ما ودت لو تتحول قطرة من ماء .فهم نداء شيئا من هذه المرأة ، انها ليست وفية لصديقها ، قدّر ان عليه ان يقترب .

كانت اغنية لهاني شاكر تستل الذكريات من رأسها ، تسبح بها عاليا فتنفصل عن المكان . لَمّا انتَ مش أدّ الهوا بتحب ليه ، ونداء يصبح اشبه بدمية بلاستيكية تحرك فمها وشعر رأسها .تضحك وتهمس وتشير .تسيل من مآقيها دمعتان ، من حزن وأسف ومرارة .دمعتان تحملان ملوحة القهر اليومي الذي عاشته منذ الولادة . السقف بركة من الزخارف كانت تميس في نسيم جبلي ، والنواسات تشبّح الجالسين .مثل لمح البصر خطر في ذهنها وجه الفنان ثم غاب سريعا على صوت نداء .

قال لها : مارأيك بالانتقال الى مكان آخر؟ اين ؟ سألته ، وفي داخلها التمع فجأة مطعم قصر البلور في باب توما ، فاذا به يقترحه فعلا .قالت له انا لم اجلس به سابقا ، قال انا ادلك عليه ، فدفع الحساب واستأجرا تاكسيا الى باب توما .

الساعة لم تتجاوز الثامنة .شوارع مضيئة وزحمة في الممرات وذهنها يأخذها الى ابعد من الافق .الرسام يرسم الآن . ماجد يطبخ الدجاج في الطنجرة الكبيرة ويحضر العرق واللبن دون ان تفارق السيجارة شفتيه .المعلم المتقاعد يلعب النرد مع ابنته ، هو صديقها ايضا يمتلك محلا للعطور في شارع الحمرا . الصيدلي في دكانه يخلط العطور .الكاتب يعد الورق لكتابة قصة جديدة .الاخرس في عرض البحر هذه اللحظة ، يحلم باصطياد سمكة في بطنها جوهرة سوداء . تعرف اوقاتهم جيدا ، اصدقاءها . واحد آخر منهم يبحر في قاربه الصغير نحو الجزيرة القريبة من الساحل ، كي يشعل نار المساء ويحلم بكتابة تاريخ الساحل بكل ما عاشه من معارك وما

احتواه من اشجار ونبات وحيوانات ورجالات مشهورين وعاهرات .تتذكره بلحيته الصغيرة ومشربه المصنوع من خشب الصفصاف ، له في كل ليلة اربع زجاجات بيرة يحتسيها لتنمية موهبته الناضبة ، وفي تحريك خيالاته المصنوعة من كلمات غير محددة المعنى .

ستجلس هي في قصر البلور ، كما فعلت عشرات المرات . شتاء في الصالة المغلقة ، صيفا تحت العريشة المفتوحة على السماء ، ورائحة بردى في خياشيمها ، ونقيق الضفادع في اذنيها .مع شيوخ مرة ومع رجال كهول اخرى ، ونادرا ما جاءت مع شباب ، الا ايام ماكانت متزوجة . يحيطها المعجبون وجلهم ممن يشتهي زوجة صديقه حتى لو كانت سخلة .صار لها اكثر من عشر سنوات تتطلع الى قصب بردى وشفق المغيب على قاسيون وتحلم بالمضي الى مكان ما غير محدد . سافرت الى كل القارات ، عاشت اغلب المدن المعروفة . مع كل مضاجعة لرجل تمتلك روح مدينته ، بيته ، اطفاله ، تاريخه الشخصي . تمتص جزءا من بلورته الداخلية ، لكنها لاتكتنز .تنحف يوما بعد يوم ، ورجلا بعد رجل .

من يجلس معها في مثل هذا الحال يحس بها تمنحه ذاتها . فجلسة شاعرية تحت عريشة العنب ذات المصابيح المعلقة ، لاتمنحها امرأة الا لمن تعشق .توحي لمن يجلس امامها انها له وانها متعلقة به وهذا ما شعر به نداء ايضا .راح يكثر من حركة جلدة رأسه وهي علامة على الرضا والانبساط . يتمطق بالبيرة ويلعق شفتيه . يفصفص الضفادع المشوية بلذة ، ويسردتاريخ انتمائه الى الحزب ثم خروجه اثناء الحرب مع ايران عن طريق كردستان باتجاه ايران .وفيما هي تتطلع في الابراج النجمية فوق رأسها بالضبط ، تحسب عقفات الصدغ في الوجه المقابل وتطرد البعوض عن رجليها خلسة ، تتمنى لو ان الجلسة لاتنتهي ، تدرك ان وراء اللحظات امرا واحدا لا غير :المضاجعة .اصبحت تقرف منها ، تتكرر كل يوم ، وباشكال مختلفة . تحتسي الريان ، تتصاعد في رأسها الأبخرة المسكرة عند

الليلة المدينية المفتوحة على الخريف . همدت رسالته الحاملة للطائر الاسود ذي المنقار الابيض ، طائر الشمال الذي لايظهر الا حين تبدأ الصباحات تصبغ العشب بالبياض الصقيعي ، والبحر يرسل رذاذه المتقطع على ريش النوارس البيض . همدت في صندوق واسع من صناديق البريد المركزي ، ليس بعيدا عن محطة الحجاز . رسالته التي لابد ان تصل ولا بد لها ان تفكر بهدية تجعله يوقن بوفائها له . . . . . .

سال قصر البلور وارتعشت اغصان القصب . الحباحب تناثرت على الارصفة . سيارات واضواء وحكايات يقصها عليها مرة من كوبنهاغن واخرى من الشام . من جبل بيره مكرون وقلعة دزه وطهران ذات الشوارع المستقيمة ، والامكنة تقود الى صحنايا .كيف انتهى الريان وأكلت ضفادع النهر؟كيف المضي الى مكان لايخطر على البال؟

هناك في صحنايا وجدا ايوب وامرأته . ايوب لا يملك امرأة ، قال نداء مع ترقيصات موقعة من لَمته ، كادت ان تغص معها بضحك مكبوت ، فمن اين جاءت هذه السيدة؟ كانت الساعة تمشي على مهل ، يندفع فجر ، لا هو بالفضي ولا هو بالمرمد ، الى اطراف صحنايا . صحنايا شوارع وازقة ضيقة وتين ومزارع زيتون والكثير الكثير من الخمر والرقص والعبث .افقها نقيق ضفادع واصوات صرار الليل وتأوهات نساء يفترشن ازواجهن بمتعة . البرد في الليل ، الدفء في النساء ، وثمة دروز ومسيحيون ومسلمون ، نيام ويقظون ، وهواء ساكن .

رقصوا اجمعين .نداء هالَهُ الشَمَل ونال منه الشبق ، يتمثل احيانا طقوس الخصب البابلية ، فيرش الحاضرين بالجعّة ويتشبه بالإله تموزي القادم على مضاجعة امرأة غير مسماة . دارت الكؤوس عليهم وسط الزعيق وغناء فيروز ودبكات هيام مع نداء وايوب والسيدة المريبة ذات الاسنان العريضة برائحة البخور السوداني الذي يفوح في المكان من ارداقها وآباطها ورقبتها .

قالت : جلبت العطر من معرض دمشق هذا المساء . سرقته من الجناح السوداني دون ان يلحظني احد . كتلة تشبه الابنوس لكنها ليست ابنوسا . هيام جفنَّتْ بالرائحة ، تذكرت صديقها المسافر الى الجزيرة على الساحل ، لايبعد كثيرا من أرواد ، بقاربه الخشبي ولحيته المشذبة ، الروائي ناضب الموهبة .انه مثلها يعشق عرق السوس والسعد وورق اليوكالبتوس والدارسين والاشنان وصابون الغار المجلوب من حلب .والنوم سلطان ، وغدا يوم عمل وصحنايا بعيدة عن الشام . يفصلها القدم واليرموك والميدان والشاغور وسوق الحميدية .اليعسوب طائر غريد والشمس ارجوحة .شخير يعلو ، اسنان تعلك بعضها .آهات غير مدركة الاسباب وغيمة غامضة تغلف الاذهان .

في الصباح وجدته جنبها ملفوفا برائحة التبغ والعرق ، كانت شبه عارية .لم ترد ان تتذكر الليلة الفائتة ، مرت الايام التي كانت تشعرفيها بتأنيب الضمير على ماتقوم به ، وكثيرا ما انبعثت في ذهنها احداث نَسِيَيتْها او لم تتذكرها في وقتها ، بعد اسابيع او سنين حتى .تسجّل وتمضي . لاتراجع مايكتبه جسدها على مساحة البياض المدعو حياتها الانثوية . قالت له اشتر لي هدية على ذوقك ، سأرسلها معك .قال لها دعينا نقوم بفصل معه .السفر وشيك والمتعة على وشك النضوب .لف ودار في باب توما وهويفكر كيف يرضيه ويرضيها .انه متزوج ، له ابنتان .هو يعيش في الدغارك وهي تعيش في سوريا .امرأته مسيحية من البرازيل وهو مسلم من العراق .كيف تأتى لذلك الشخص ان يجمع بين دينين ، الاسلام والمسيحية .ماذا تكون عليه اديان بناته؟هل هما مسلمتان ام مسيحيتان؟ماهذا الخلط؟ الامر برمته لايعنيه . يرغب بارضاء البنت المسماة هيام .

قالت له حين اتصل ظهرا : دع امر الهدية لي ، انا اشتريها .لكنه اخبرها على اية حال بفكرته حول القرآن والصليب .دعيه يفيق الى نفسه

قال لها ، فلم تعجبها نصيحته .

رغم ذلك استلمت منه رسالة مليئة بالشعر هذه المرة .كان ذلك الطائر على المغلف يرقبها بعينيه الضيقتين المتأملتين .في الرسالة المكتوبة بتروٍّ وخط جميل . سماها : سيدة الكأس ، تغزل بشعرها . سماها سيدة الانوثة والمياه والعشب والجبال .سيدة العهن والشوارع المشجرة والحبق ، وسيدة باب توما وساحة الامويين والقنديل وقبة الست رقية .سيدة المتّة والقهوة المرة والسجائر والعطر المستخلص من الورد الجوري وسيدة الكتابة على الكومبيوتر والاخراج الفني وحمامة الدار .

اتضحك ام تحزن ، هل يسخر منها هذا الرجل ام ان في عقله لوثة غير مفهومة .انها امام رجل يمتلك شيئا سريا ، من يرغب الوصول اليه عليه ان يتلبس ، مثله ، قرون الفلفل واغصان الاثل وتراب الارض .يتلبس الاشياء كما تعيش يومها وتختفي بالضوء والتوالد حيث تختفي الحدود بين الاجناس وتعود الحياة الى جوهرها .كتب : انك سيدة النحلة في غصن الزيتون والضوء على سطح العاصي ، يرف من موجة الى موجة ، وسيدة قاسيون ، سيدة الجعة وفقاعاتها المذهبة ، سيدة العضو التناسلي ذكرا وانثى ، احلّق من القطب وأحطّ على الجبل . اعوم في البحر وانبغ في النهر ، وانت سيدة الاكوان ، مرئية وغير مرئية . كتب لها ملاحظة صغيرة لها طابع فلسفي تقول : من شاد جبل قاسيون ، وماهو صوت اليد الواحدة حين تصفق ، وكيف تبدو الشمس في الليل ، ولماذا يبكي الجنين حين سقوطه من بطن الام ، ومن اين تتساقط الافكار ، أمِنْ جبل ام كوكب ، ومن زرع الحياة على هذه الارض؟

قررت ان تشتري قرآنا مذهبا وصليبا . وجدتهما معروضين في دكان صائغ لايبعد عن قصر البلور اكثر من عشرين مترا .وضعهما البائع في علبة بلاستيكية ، على وسادة من قطن سماوي اللون ، ولفّ العلبة بشريط فضي .وبكل احترام وتبجيل اعطت العلبة الى نداء وقالت له سلم عليه

ولاتخبره شيئا عما دار بيننا .ودعته الى المطار بعد ان سكروا في بيت ايوب حتى الثانية عشرة ثم استقلوا تاكسيا الى المطار .

- سأرجع الى الثلج والصقيع ياهيام . . . صاح نداء بصوت عال قبل ان يدخل حاجز المطار ، فلم ترد عليه سوى بابتسامة شاحبة .

ظلت في صالة الانتظار حتى الصباح ، الى ان بدأت باصات النقل نوبتها ، فتوجهت الى الشام ثانية .

كان الصباح مشرقا باردا .احست انها لم تفقد شيئا مع غياب هذا الشخص .استمتعت وكفى . لم يستوقفها شيء في نداء ، اللهم الا النقود التي كان ينثرها في شراء الملابس ومآدب المطاعم وشراء الكتب .رجل يكذب كثيرا .لم يأخذ حتى هدايا لاصدقائه .فهمت منه انه متزوج ، زوجته لاتزال في العراق ، له منها صبي عمره عشر سنوات .

هنالك بعض الاشخاص لايتركون وراءهم اي اثر ، أكدت لنفسها .وهنالك اشخاص لايمّحون أبدا .

٢١

اجرت مراجعة شاملة مع روحها .وهي تفعل ذلك بعد كل ازمة روحية تمر عليها ، اوبعد كل علاقة مع رجل تنتهي الى فراغ .قبلئذ تكون تفاصيل العلاقة هي مركز خيالاتها ، الا هذه المرة .كان البيت والعائلة هما المحور . كانت تأملاتها تمتد لساعات طويلة ، فيها لحظات من الفرح ، من الحنين الى الزمن المنقضي ، من الالم الذي ينبض في القلب . ما الذي يجري؟ ماذا كان يعني لها البيت؟ تتذكرعندما كانت صغيرة . كانت هناك جنينة بها نبتات غضة ، يطلع لها المرء بعدد من الدرجات ، وكان يقال ان ثمة وليا ، رغم ان احدا لم يره سابقا ، كما لم يره احد من الجيران ، يقطن في الزاوية . تشعل شمعا وتنزل اليه ، تنتظره كي يطلع من مقامه ، تود رؤيته . الجنينة والولي هما مدار حياتها .بعد فترة طويلة ملت الانتظار ، خاصة وانها لم تره . القداسة تشعرها بالرهبة ، انها صفة لايمتلكها ابوها ولا امها ولا احد من الجيران الذين تعرفهم .

صارت تشعل الشمع وتخرج ، دون ان تنتظر .بها رغبة في معرفة

الشكل الذي سيبرز عليه .اين يختبئ ، وكيف؟ تنتظر بفارغ الصبر حين تغيب الشمس ويحل الليل ، تنزل الى الاسفل وتشعل شموعها .كانت تقضي وقتها تحت الدالية ، تراقب امها كيف تشطف الارض . الدالية كائن حي يتنفس ويتحرك ويبتسم لها ويدلها احيانا على اعشاش العصافير الخبيئة بين اوراقها . تسحرها الزوايا والليل والأمداء المليئة بالشجر .

بعد ان قطعوا الدالية ، صارت تهتم بالزريعات ، بتلك السيقان الغضة أو الوريقات الناعمة والغصينات التي لاتعرف من اين تنشأ .لم تكن تحب الزريعة الكبيرة . تحب الصغيرة ، الناعمة .تهتم بهن الى ان تنقلهن امها الى أصص كبيرة ، فتفقد اهتمامها بهن . تحس وكأنهن متن . لذلك كانت تزرع غيرهن ، تجمع التنك والتراب من الجنينة ،او من الشارع ، ثم تجلب زريعة ، وتشتلها ، لتكون لعبتها المفضلة لوقت آخر .كانت الاشياء النامية تثير فضولها .اشياء تموت واشياء تولد .

تذكرت البيت الصغير في نهاية الحديقة . كان يحتوي على التبن ، الذي يستخدم لاحقا في تطيين السطح . لقد ذبحوا خروفها الذي ربته هناك ، قالوا : انه ضحية العيد .هي الوحيدة التي بكت عليه ، ولم تأكل من لحمه .كان ثمة حفر كبيرة في الجوار . هناك ايضا افاع كثيرة دأبت على صرف وقت كبير جنب الحائط بحثا عنها . تود ان تعرف اين وكيف تختبئ .لم تر أية افعى . صرفت اهتمامها عن الافاعي وصارت تعمل قطعا من القماش ، تخيطها على شكل دمى مختلفة الاحجام والاشكال ، تخيطها وتلعب بها . تسمي الدمية الانثى أمي والذكر أبي والصغيرات اخواتي .تسقط معهن في حوارات طويلة عن الفطور والغسيل والدالية التي كانت مليئة بالدبابير والعصافير والورود التي ينبغي عدم قطفها . احيانا تنط الى سطح الجيران ، تختبئ خلف زاوية طينية او خزان ماء ، ثم تبدأ لعبها بالقماش . ذلك الوقت كانوا يسكنون في السطح ، غرفتان ومطبخ

صغير ، وفي الاسفل ثلاث غرف يستأجرها الجيران .

كان هناك ارض فسيحة وجنينة ، مع مطبخ وحمام ، وثمة غرفة صغيرة مغلقة .في الاسفل ماكنة ماء صغيرة تحتها جُبٌ .كانت تستمتع كثيرا حين يستقي اهلها الماء من هناك . الماء يخرج من باطن الارض والمطر يسقط من السماء .حين طيّنوا الجُبٌ ، بعد ان مددوا المياه والحنفيات في كل زاوية من سوق المناخلية ، كانت تتخيل ان الماء لم يزل هناك ، وان عليها ان تبحث عنه . كانت بها رغبة عارمة لتشرب منه . حاولت اكثر من مرة ان تستقي منه ، وهي متأكدة ان الماء نظيف . الا ان امها تعنفها بسبب ذلك . تقول لها هنالك مياه نظيفة ، لِمَ ترغبين بالبحث في البئر؟ نقطة واحدة من ذلك الماء تشعرها بالسعادة .تلك ذاكرة الطفولة البعيدة .

دخلت المدرسة وصارت تلعب مع اولاد الجيران ، في الاسفل ، حيث اشجار التين والزريعات والديدان الصغيرة .تساءلت مع نفسها عن مصير حارس الجنينة؟ هل مات؟ هل اصبح عنده اولاد؟ اين يقطن في هذه المدينة العملاقة؟ وقتها كانت تود البقاء في الاسفل ، ولاتود العيش في السطح ، منذ ان قطعوا الدالية . تتذكر اول يوم لها في باحة المدرسة ، وذلك الاحساس الغريب وهي ترى نفسها بين مجموعة كبيرة من الطلاب ، وكيف بدت لها الشمس ، وكيف احست كما لوكانت تحدّق الى الطلاب من علو شاهق وهي الاكبر بينهم . ادخلوهم الى الصفوف فتذكرت اباها فبدأت تبكي .لم تكن ترغب الجلوس خلف المقعد ، انها مخلوقة للشوارع والحدائق واسطح البيوت .فما كان منها الا ان هربت في اليوم الثاني . بعد ايام صارت المدرسة امراً عادياً . تقضي الوقت باللعب مع الاقران . وكانت المدرسة تعني لها اللعب ورؤية الرفاق الآخرين والابتعاد عن البيت .

شيء من الاكتشاف ، ان يمضي المرء الى شارع غير شارعه وحارة غير حارته .طرقات جديدة وشبابيك ملونة وعالم واسع اوسع من الجنينة والبئر

والدالية .عالم العربات المحملة بشعر البنات والذرة والحلويات وباعة المازوت والجبنة وكل شيء .

دأبت على اللعب في اوقات الفراغ بخرابة ، مع الآخرين ، حيث الذهاب ابعد من تلك الخرابة مغامرة كبيرة .كانت الحارة بالنسبة لها نهاية العالم ، آخر الكرة الارضية .بعد اكتشافهم جنينة جديدة قريبة من الحارة ، دأبوا على المضي واللعب هناك .يلعبون على تلة في أعلى الجنينة ، وكان الحارس ينظر اليهم بريبة .الجنينة مزروعة كلها ، وهي أجمل من فقر الحارات بحيطانها الكالحة وارضها المحفورة وابوابها الخشبية المشققة . على تلك التلة ، تجلس اغلب الاوقات . ولكي لا يراها الحارس كانت تمضي صباحا الى هناك ، ثم تتوحد مع نفسها محدقة بالزهور والاشجار والحشائش والمياه .الاطفال ينتظرون ذلك الحارس ، رثّ الثياب ، الى ان يمضي ، فيتسللون الى التلة .صارت اللعبة مع الحارس .مطاردات ولعب ، وهي فترة كان الاهل فيها غائبين من حياتها .اول مرة صار لهم وجود في حياتها ، حين اتت الخالة ، واخذتها الى حمص . في حمص اماكن كثيرة للفرجة ، محلات وقباب مساجد ومقابر وشوارع فسيحة للمشي .

في حمص ايضا تعلمت اول مرة مراقبة الشمع وهو يحترق . انقطعت الكهرباء صدفة ، وهم جالسون في غرفة ضيقة ، فجلبت الخالة ثلاث شموع كبيرة وضعتها في منتصف الغرفة . بدأت تراقب ذوبانها وكيف تشكل واحدة منها مائلةً تخاريمَ ساحرة .تذكرت الولي في الجنينة ، والبط العائم في بحرة المدرسة .تذكرت ايضا اوراق اللوز وازهار الكباد في زمن ماض . والتخاريم منذ تلك الليلة اصبحت شغلها .صارت الاشكال غير المحددة تستهويها ، وكل ماهو هلام ينشط الذهن .

كانت الخالة تشتري لها الحلويات والبوظة وكانت تحبها بحق .لم تكن تجلس طويلا في بيت الخالة ، بل تمضي الى بيت الجيران ، وهم يحبونها كثيرا .في حمص اكتشفت اول جبّانة قريبة من البيت . والجبانة عنت لها

عالم الاموات ، جماجم واطراف بائدة وارواح .كانت تمضي مع الاولاد الآخرين لتلعب فيها .مغامرة كبيرة اللعب بين القبور .كانوا يقولون لها إن الدعس على القبور خطر ، وكانت تقوم بذلك وتهرب كي ترى ماذا يحدث . ثم لايحدث شيء ، وهكذا اكتشفت ان الموت لايخيف .قررت أن تحبه ، أن تجعله صديقها .

كانوا يتفقون احيانا على الدخول الى الجبانة ، ليلا ، لرؤية عالمها الغامض والسحري ، المعبأ بالاموات والاشباح .يدخلون لكن لايحصل شيء .مرة تم الاتفاق على الدخول كل بمفرده . خوّفها الاطفال بالقصص والحكايات حول الجن والشياطين .بدأوا يخرجون من زاوية مظلمة اصواتا غريبة ، فما كان منها الا الهرب .صاروا يضحكون ، تضايقت كثيرا فتحدتهم ودخلت .ثم راحت تبحث عن قبر جدتها .

ذات صيف اخبروها ان الخالة لن تأتي هذه السنة . اخذت تبكي وتنتحب . جعلت تتفرج في وجوه العائلة . منذ تلك اللحظة انخلقوا أمامها ، صارت لهم وجوه وتعابير وعيون وسمات خاصة .مرضت ذلك الصيف مرضا شديدا ، وكان اهتمامهم بها استثنائيا . بعثوا الى الخالة يسألونها المجيء فجاءت واخذتها .بدأت تدرك ان من تعيش بينهم أهلٌ ، يتكونون من ام واب واخوة واخوات . . . .عليها ان تعيش بينهم ، تحبهم ، مهما حدث .انها محكومة بالأسرة والاقرباء والمجتمع .لايمكنها العيش وحيدة مثل كوكب تائه . لكن كيف؟

كانت امسية خريفية حين دق التلفون في مكتبها الصغير المعبأ بالكتب ، ذي الضوء الاصفر الشاحب .كان هو .صوته .دفئه . سليل الثلوج والبحار البعيدة والطير الاسود الجميل المرسوم على مغلفات الرسائل . شيء مثل الشلل اصابها ، لم تعد تعرف ماذا تقول ، كيف ترد وعن اي موضوع تواصل معه الكلام .

قال لها بصوته العميق : انني اتصل من مقهى الهافانا . فلم تصدق .

قالت : انك تضحك عليّ . لايمكن ان يحدث امر كهذا . وشعرت برعب حقيقي .

قال لها : انتظرك الآن . الحقائب معي وعليّ ان اجد بيتا للإيجار .

قالت سآتي لكنني لا اتوقع ان اجدك .انا في حلم لاغير .

قال لها : حاولي ، ثم اطبق التلفون .

جلست مذهولة .لايمكن . انها في حلم . ما العمل ؟ هل تفرح ام تبكي ام ترتعب من كل مايجري .اغلقت الجهاز ومضت الى هناك .

فتحت الباب الزجاجي وكاد ان يغمى عليها .انه هناك حقا ، جالس مع حقائبه .

احست ان الخطوات تطول وتطول ، وان المسافة بينه وبينها لانهائية ، لكنها ظلت تمشي بإصرار .

٢٢

اصوات الاطفال . باعة المازوت والذرة والسقوف . فسحة السماء فوق الجبال . التلال . النساء المتلفعات الجالسات على عتبات الابواب .لوحة مألوفة عليه ان يعيش تفاصيلها والوانها وروائحها من جديد . كان يجلس في بيته الذي استأجره قبل ايام .لن يطل على ثلوج من النافذة ولا يسمع مواء قطط ذات فراء اسود . صمت الممر والسرير والستائر . البيت لا يبعد الا امتارا عن ذلك الذي عاشر فيه هيام في الصيف . مر أمامه اليوم ورأى شبابيكه معتمة ، بابه الجارد من الوانه مغلق على الذكريات . لم يرتب اغراضه بعد . الملابس لاتزال في الحقيبة ، دهاليز البيت لم يألفها . انه مكون من غرفتين اتخذ من الكبرى غرفة نوم ومن الثانية صالة للاستقبال ، رغم ان لا احد زاره خلال هذه الفترة سوى هيام .كأس البيرة امامه ، افكاره تأخذه يمينا وشمالا . مرت الساعات طويلة ، جالسا على السرير يحتسي السائل الاصفر ، وثمة برودة تشيع في البيت . حياته تتجسم امامه بتفاصيل غير معقولة .

التقى هيام في مقهى الهافانا .رآها مرة اخرى هو الذي كان يظن انه لن يراها ثانية . لم يتغير فيها شيء إلا انها اصبحت اكثر اهتماما بنفسها .ارتدت جاكيتا من الجلد لونه بني . شعرها متطاير صَبَغَتْه بحمرة خفيفة ، غُرَّتُها تتمايل على وجهها . قال لها اود ان انام على صدرك فصمتت . خالطه شعور غريب من صمتها .لم تفعل شيئا سوى التحديق به ، عيناها السوداوان اللتان تشبهان عيني عصفور قلقتان ، نافذتان ، لايمكن قراءة مايمور خلفهما .طلب منها ان يخرجا قليلا من المقهى ، كان به رغبة لضمها ، للمس يدها ، لتحسس تلك البشرة البرونزية التي امضى ثلاثة شهور برؤيتها وتخيلها وتقبيلها ، في الشارع والباص والسوبرماركت والسرير الذي كان فارغا من تاتا .

قادها الى الحديقة المطلة على التكية السليمانية ، ووجدا مصطبة فارغة جلسا عليها .امسك اليد الناعمة باصابعها الطويلة التي تشبه اصابع الرجال . طبع قبلة على الرقبة النحيفة ، فَغَمَتْه رائحتها المدوخة .قال لها اشتقت لك ، أجابته ، بصوت راعش ، وانا كذلك . لكنه يحمل في قلبه كثيرا من الاسئلة ، كثيرا من اللوم ، بعد ان وصلته اخبارها مع الفنان ، وكيف كانت تجلس تحت جناحه . ذهبت به الخيالات الى حياتها السرية الخافية .فكر ان يطلب منها الحديث عن نداء وكيف التقاها ، ليطابق بين الروايتين ، ودّ لو يسألها عن ظنونه وخيالاته وحدوسه التي عاشها في فالبي ، لكنه اجّل ذلك الى وقت آخر .

القباب حلمية تضيئها مصابيح ذات ضوء بين الأصفر والأحمر . تحولت المآذن والقباب واشجار الكينا العملاقة الى لوحة ساكنة ، في ليل الشتاء . يسبح في حلم سرعان مايختفي مثلما اختفت كوبنهاغن وشوارعها وجليدها وسهير ومي وتاتا والأصدقاء والقط بيليه الذي تركه وحيدا في البيت المهجور .مغامرته لابد ان يعيشها ، ونداء المرأة الطويل الذي الح عليه منذ الولادة لابد ان يسمعه .يتبع الجسد الأمومي الذي

لفظه الى هذه الصحراء دون رحمة .البرد يطبق على عصافير المتحف الحربي والنخيل المنزرع في الجوار . يطبق على العشب في الحديقة وعلى جسديهما المتلاصقين اللذين كانا لايعرفان بالضبط ما الذي ينبغي عمله .اصوات المارة وخطواتهم المتمهلة وعيونهم المترصدة لهذا المشهد غير المألوف في هذه الساعة ، وقلقه في ايجاد بيت يسكن فيه .قال لها لا اريد السكن الا في برزة .لي فيها ذكريات جميلة .نضال وسلمان ورغد ، وبيت القابون بغرفه اللانهائية ومياهه وعفونة مطابخه وحكايات سلمان عن نضاله السري عندما كان هناك .وخطر له انه سيجده بأقرب فرصة لامحالة . سيفاجأ بعودته بلا شك ، وكانت آخر رسالة استلمها منه قبل مجيئه باسبوع .لم يرد عليه لانه سيراه سريعا .

سألته اين ينام الليلة ، اخبرها انه اتصل بصديق سوري عرفه قبل عشر سنوات ورتب معه مبيت هذه الليلة .انه يسكن في جرمانا ، قرب صيدلية اسامة ، وقد اودع حقائبه هناك قبل ان تعود ثانية الى الهافانا .قالت له سأمضي للمبيت معك ، فضحك من طلبها ولم يوافق عليه .لايمكن ، فامرأة صديقه روسية لم تعرفه لحد الآن ، ولايمكن رفع الكلفة بهذه السهولة .اقترحت عليه ان يمضيا الى باب توما ويجلسا في حانة من حاناتها .

كانت ليلة لم يتصورها على الاطلاق .لم يكن يعرف هذا الجانب المظلم من هيام ، وهو ما انبت فيه بذرة الحذر منها . فليس من المعقول ان تسقط المخلوقة المضيئة الرقيقة العاشقة في قاع مثل ذاك ، القاع الذي ارادت ان تقوده اليه في ازقة باب توما .هل تم ذلك بسبب كؤوس الجن التي ابتلعتها ، ام بحواره الصادم معها ، ام باعترافاته العارية التي لم تستطع الرد عليها وما عاد امامها سوى الدموع والاكاذيب وروح الانثى في بذلها لجسدها غواية للرجل؟

يحس نفسه وحيدا ، ضعيفا . العالم في الخارج تحول الى صوت جرس

سيدق بين لحظة واخرى ، حيث يطل من الباب وجه امراة لا تُمسَك ، قبضة ريح سرعان ماتتسرب من بين الاصابع .اللحظات ثقيلة ، وثمة دهليز عميق ينفتح امامه ، وفي نهايته طفل صغير ، ملفوف بخرق في احضان امرأة عجوز معصوبة الرأس ورجل كهل ملتح ، يدخن بمشرب . كانت غرفة معتمة عارية الجدران .مكان يشبه الكرنتينة .انه كتلة من لحم ، لكنه لحم مؤلم ، مشبع ببثور غريبة ، متقيحة .البثور في كل مكان ، الوجه ، الذراعين ، البطن ، ورائحة نتنة تعصف بالمكان ، والعالم علبة ضاغطة مؤلمة على الجسد .من اين يأتي كل ذلك الألم ، ولِمَ قُذِفَ هكذا الى هذا الفضاء من الضوء والروائح والطعوم ، وهو الملفوف بانسجة لحمية تشك من اينما تحرك .الوجه المعصوب ، يتطلع بعينيه الصغيرتين ، حزينا يائسا ، يدلق في فمه بين الحين والآخر حلمة تخلو من الحليب .الليل ساكن ، مظلم وناء ، في برية خارج المدن والاضواء والحياة .لايمكن ان يساعده احد فالالم اكبر من اليد . وحيد في هذه الحياة .اين الرحم الذي قذفه من الظلمة الى هذا المكان ، اين رائحتها ويداها ودمها الحار؟ اين الحلمة المليئة بالحليب ، والفم الحار والعينان الحانيتان؟ لا شيء . فراغ جدران الكرنتينة والروائح المقرفة ، روائح المراهم والادوية والقيح السائل من الكتلة اللحمية الملقاة وسط الخرق .

ماله يتذكر هذا المشهد الآن؟ ماله يحس نفسَه وحيدا ضائعا وبحاجة الى من يضمه اليه ، يكوّره بين ذراعيه ، يضع في فمه حلمة دافئة تنز الحليب والحب والحنان المفتقد منذ الولادة؟ كيف انتقلت رغباته بشخص يضمه الى رغبة التوحد بالاشياء ، رغبة ان يكون خشبة ملساء وجدارا ساكنا ونهرا مكتظا بالعشب والاشنات والاسماك . يتوحد مع الزهرة والبرعم والردف والفرج . مع الزجاج والفاكهة والخضار لتمنحه قوة لضعفه ، يمتص منها الطاقة الخزينة في الانسجة؟

كان يحتسي الكؤوس بنهم . ينغل في دهليز حياته وذكرياته . يسافر

في بؤرة الاحلام والوقائع والاشخاص .يستولي عليهم ، على اسرارهم وذكرياتهم . يحس انه عاش ملايين السنين . عاش تحولات القطة والضفدعة والنسناس والمرأة الولاّدة والجارية الرقّاصة والرجل الأبله والمخنث والفارس والقاتل . الضوء والظلمة ، السماء والارض .يبحث في ليل ثَمَله عن شخص يضمه بين ذراعيه .البارحة كانت تاتا ، اليوم هيام ، وغدا تلك المجهولة التي لايعرف اسمها .

بكى وسالت دموعه على شراشف السرير . ناح فرددت آهاتِه جدرانُ المطبخ والغرفة والشبابيك والبلكون الذي يطل على ليل برزة المواجه لقاسيون .كان يراها امامه تشرب الجن ، تتوهج عيناها بألق غريب ، لم يكن ثمة احد في الحانة .فسقيّات ملونة للسان الثور ، ودلاّيات مثبتة في السقف من النبات البلاستيكي وجِرار مزخرفة بالأرابسك . في الطرف المقابل زجاجات لامعة من الوسكي والجن والبراندي والخمور السورية الحمر والصفر وفرو ثعلب مسمر على جدار جانبي لم يبق من الجسد سوى رأس بعينين عميقتي السواد .كانت هيام تدخن وهو يروي لها شوقه بحذر . حدثها انه لم يعرف امرأة عداها مذ غادر دمشق آخر مرة . وهي كذلك قالت له . لم يصدقها ، حكاية الفنان في خياله راكزة ، جلستها معه في الرواق وذلك الصديق الذي حدثه عن تلك الليلة .الليلة التي مزقته رغم انه يبعد آلاف الكيلومترات وينام تحت سماء قطبية دانية النجوم .رآه يُقبِّلها ، رآه يعانقها ، رآه يأخذها معه الى الشقة في زاوية من زوايا دمشق . لم يكن قادرا على اكمال المشهد . مضى الى الفراش ، استمنى بعنف لينهي الليل وقصصه ووجه هيام وضحكات الصبيتين وتاتا الراقصة في كرنفال سانباولو .

ظلت تبكي امامه بدموع غزيرة لكنه لم يصدقها .لديه احساس انها كاذبة رغم ان ايا من التعابير الدالة على الارتباك والخوف لم تظهر على بشرتها .بشرتها مثل جلد ممسوح ، لاتبين فيه اية تعابير ، مايتكلم لسانها

ودموعها فقط .

في الزقاق تمشي مترنحة ، بها ثمل عميق . تلوّح بحقيبتها للمارة ، تقبّله في الزوايا . الازقة تتلوى بهما ، المشربيات تطل من عل ، الجدران مزوقة بالاصص والمصابيح الخافتة ، وهي تلتصق به ، تتلمس صدره وجاكيته ، فيها آلاف الدولارات جلبها معه . قِسْم له وقِسْم لأشخاص آخرين يعيشون هنا في دمشق . لايعرف كيف خالطه احساس انها تروم سرقة محفظته .كان بين مصدق ومكذب ، كأن يدها كانت تبحث في جيبه الداخلي ، الجيب الذي كان مغلقا بسحاب .احس بالرعب ، بالنفور ، لكنها تلتصق به ، قالت له ضاجعني هنا .ثمة عتمة ، وجدران زقاق مطبقة وفراغ .قال لها لايمكن ، سننتهي الى السجن .قالت ضاجعني عليك اللعنة ، فامتنع بحدة وقال لها إنك سكرانة .

مضيا الى الساحة .اشجار الحور باسقة تتلقف مطر السماء الخفيف . بقايا الباب حجر ابيض يمتص الاشعة الصفراء الساقطة عليه .درج لاينفذ واقواس تحدّث العين عن الماضي .بردى يسير راكضا من تحت الشارع . قال لها الا تمتلكين مكانا نمضي اليه؟ قالت له نمضي الى صديقك ، فرفض .اقترحت عليه ان يسافرا الى اللاذقية .عدّ الامر جنونا فاقعا . قال لها انا متعب ، لم انم ليلتين ، ولا استطيع المضي في الباص اربع ساعات .الحتّ عليه بقوة واصرار غريبين . رضخ لطلبها وفكرّ انها ستكون مغامرة العمر .السفر ليلا والوصول الى البحر عند الفجر حيث يمرحان على الشاطئ ويضاجعها على الرمال والحصى وبين الاشجار .

ركبا الى البرامكة ، حيث كراج الباصات .قطعت تذكرتين وصعدا .كانت مستثارة ، تدخن وترمش بعينيها دون ان يعرف ما الذي تفكر به .لكن شيئا ما في صدره ، ثمة قلق وهواجس غير معروفة ، فهو يحمل مبلغا ضخما ، لايمكنه المغامرة به .لم يعرف هيام إلا عشرة ايام ، ولايعرف اي نوع من النساء هي . لو كانت حريصة عليه حقا لقدرت تعبه

وتركته يرتاح هذه الليلة . لم تعر اهمية لذلك ، وهذا يعني انها في حقيقتها تستخف به وبرغباته وتعبه وأحاسيسه .جسور الثقة راحت تهتز كلما مرت اللحظات والباص واقف في مكانه ينتظر الركاب . في لمحة خاطفة ، استجمع بها ارادته ، قال لها لن اسافر .

نزل من الباص فتبعته .احس بنفورها ، انفاسها راحت تتدافع بقوة .غضب عارم ينطلق من صوتها الراعش .قال لها سأذهب الى صديقي قبل يأسه من رجوعي .استقلا تاكسيا اتجه بهما الى جرمانا . قالت له أما انا فلا استطيع العودة الى البيت سأمضي الى صديقة لي في القصور .نزلت هناك ، ثم دفعت اجرة التاكسي وقالت للسائق : امض به الى حيث يريد . الا انها وبعد ان اختفت الاضواء استقلت سيارة ثانية ومضت الى بيت ماجد ، مليئة بحقد الأنثى التي انكشفت أحابيلها أمام رجل ظنته ساذجا .

٢٣

ظنها ستغلق الهاتف بوجهه حين خابرها . ردت عليه بصوت عادي واتفقا على ان تلتقيه قرب جامع ابراهيم الخليل لتستدل على البيت .احضر البيرة من بقالية أبي سليم القائمة في نهاية مساكن برزة .اشترى الخيار والبندورة والملح ، وضع شريط ماريا رودريغاس البرتغالية ذات الصوت الملائكي واشعل صوبة المازوت وراح يشرب ويستمع الى الصوت .الصوت أخذه الى سماوات اخرى لاتنتمي الى برزة وركن الدين ودمشق .أخذته الهواجس الى دواخله .غار في ذلك النفق العجيب ، نفق طفولته التي لم يعد يعرف بالضبط الى اين تنتمي .احيانا يتذكر قرية منزوية في طرف من الصحراء قرب نهر ضخم يدعى الفرات وفيها عشرات البيوت ومئات البشر والطرق تقود من بيت الى بيت . يتخيل نفسه ولد في حارة من مدينة كالحة ، ابرز مافيها خوار الجاموس واعمدة الضغط العالي لكهرباء لايعرف اين تشتعل مصابيحها . فحارته مازالت تضيء نفسها بالفوانيس واللالات ، وتمر في طرقاتها نساء مع حميرهن الحاملة

للزلّ والقصب المقطوع من بحيرة مجاورة لم يرها رغم انهم يتكلمون عن سمكها وحقولها في الصيف وبطيخها ورعاتها وخيراتها .عدّ البيوت التي سكنها خلال رحلته الطويلة ، وحاول ان يسترجع اجواءها .المدن التي رآها لا تحصى ، حسب انه عمّر قرونا .تداعيات افكار منفلتة وانتظار . ورغم انتظاره وتداعي افكاره كانت هيام اثناء ذلك جالسة في شقة ضيقة ، قرب بوابة الصالحية .جالسة وأمامها كأس عرق وقبضة من البزر ، تروي قصتها مع ماجد الى شخص يكتب مسلسلات تلفزيونية .كانت تروي عن تلك التجربة بصوت راعش ومؤثر ، دون ان يخطر هو على بالها .

قالت : لحظة يصعب مواجهتها ، لحظة البوح عن تجربتي المريرة معه . مشاعر خيبة واهانة ، عندما اتأملها اضحك على نفسي . كيف يكون الشخص وفيا لمشاعره واحاسيسه ثم تترجم خلاف ذلك في الواقع .لم اتعامل مع الانسان طوال حياتي كوسيلة لغاية معينة ، لكن بعض الناس يتعاملون معك كوسيلة . كثيرا ما كنت احاول تجنب الحب لانني اندفع فيه كثيرا . الحب يملؤني ، يحتلني من شعري الى قدمي ، يدخل مساماتي فأصبح عاشقة ، والعشق ثكل كما عرّفته بدوية ذات يوم .

عرفت ماجدا ، حين كنت بصحبة صديق كان يعمل معي في المكتب نفسه . يحرر الكتب والمجلات ، عمره اضعاف عمري لكنه يعشق الحياة ، يحب السفر والخمرة والحانات فجذبني الى عالمه بسهولة .سافرت معه الى البحر ، سهرت معه في الحانات ، في بيته في الزاهرة ، وكان بارعا في اعداد الطعام .كانت اول مرة التقيت فيها بماجد مع ذلك الشخص ، ادهشني بعينيه الصقريتين وفمه المزموم الا انه لم يترك اثرا في روحي .لم يلبث صديقي ان سافر ، وهو عادة ما يترك فراغا هائلا في نفسي بعد الغياب .صديقي ماكان له غاية معي .شعرت بكبره ولطفه ، فهو يتعامل ببساطة وطبيعية وود . انسان خال من اللؤم والحقد ، يمتلك صفاء نادرا . يغيب ويرجع ، ثم نلتقي بصورة عادية .

في آخر سفرة له تولدت احاسيس كبيرة في داخلي ، وكنت بحاجة الى شخص اترجم له مشاعري . لم يكن احد جنبي . احسست ان مشاعري وجدت ونمت وبحاجة الى وجوده ، كي اعبر له عن ذلك .اتصل في احد المساءات وكان اتصاله مخيبا . ففيما كنت في قمة توهجي كان حديثه عادياً . لم يلامس روحي ، كانت نبرته رسمية ، شعرت لها بالخيبة ، انا التي كنت اتصور انه يكن لي عواطف اكبر من ذلك . اصبت بإحباط غريب ، لم تكن مشاعري مطلوبة اذن ، حمّلته ربما اكثر مما يحتمل .بعد ذلك الاتصال تفاقم الاحباط والحزن والوحدة الغريبة . رجعت الى الانغمار بعملي الذي احبه كثيرا ، كنت ابقى فترة طويلة في المكان وهو أمر مسلٌ ، واقمت علاقات عابرة مع اشخاص كانوا يأتون الى المكتب .

في يوم ما احسست بحاجة متفاقمة الى شخص احبه ، يوفر لي رفقة وحنانا ، يخرجني من وحدتي .مضيت الى العمل ، وانا مترددة بين ان اشتغل ذلك اليوم او اعطي لنفسي اجازة للراحة والتأمل . وصلت متأخرة ففوجئت بماجد داخل المكتب .كأنه استجاب لحاجتي في ايجاد شخص ما يغيّر روتين الحياة .قال انه يملك ديوانا وكتابا يود طبعهما .سألني لماذا تأخرت كثيرا؟ كان يثق انه سيجدني صباحا ، احسست بالارتباك . سألته ان كان يشرب القهوة فرحب بالفكرة فعملت قهوة له .جلسنا في غرفتي نشرب ونثرثر وحكى لي عن فكرة الزمن ، وكيف يعيشها ، ويحاول استثمارها في الشعر والقصة . أبدى انبساطا لأحاديثي فشعرت وكأنه يود فتح حوار معي .قال لا اريد ان اشغلك .اعطاني الكتابين لأقراهما ثم دعاني بعد الظهر وقال احب ان نتغدى سوية في البيت فوافقت .لا اعرف كيف وافقت بهذه السهولة ، بعد ان مضى لم اجد رغبة في فتح الكومبيوتر وكنت اتمنى ان ينتهي الدوام بسرعة .

اشتريت ورودا حُمْرا تشبه الغارديني ، ذات رائحة فاغمة . مضيت الى

البيت ، كانت الاشياء تبدو اكثر ألقاً وجمالا والشمس تشرق على مآذن ركن الدين والاطفال نضرين والشوارع زاهية .كان متأكدا من مجيئي ، رحب بي ثم اخذ الورود واهتم بها وظل ساعة يشتغل عليها ، ثم اختار لها مكانا على طاولة صغيرة في وسط الصالة .جلست على الصوفة ، صار الورد جنة ونحن جالسون فيها . قبل ان اذهب ، اصابني شيء من التردد ، لكن كان عندي فضول اتجاه ذلك الشخص ، فكرت ان نتيجة اللقاء هي التي ستقرر العلاقة مستقبلا .

كل شيء يوحي بالود والنبل والالفة والاطمئنان . تكلم عن حياته واحلامه ومشاريعه ونكباته ، شعرت بالحميمية ، فكيف يعاملني بالثقة ويقص لي التفاصيل عن حياته وكيف يفكر ويعيش فتشجعت للحديث عن نفسي بكل سهولة .سمعنا موسيقى ، كان الشريط رائعا ، قام ورقص على نغماته . اطفأ الضوء وقال انه يحب الجلوس على ضوء الفانوس .انتقلنا الى الارض وجلسنا بحميمية ، بعد ان اخرج المخزون من دفاتر وصور ، ثم حكى عن اخيه الذي استشهد في لبنان ، وعن معاناته وحالاته النفسية وقراره ان ينتقم من مشاركته في الحرب ، وتفاصيل غيرها . كان الزمن يمر حاملا فيضا من المشاعر الجميلة .

كانت سعادتي فوق رأسي ، لكن كان علي ان امضي .لقد وجدت الرجل الذي يحتويني ، وعنده الحضور والمحبة اللتان احتاجهما . قال من الضروري ان نقضي يوما كاملا سوية ، واخبرني عن وجود سهرة في الرواق يوم الخميس وسوف يسجل لي الشريط الذي اعجبني وسيعطيه لي . مرت الايام بطيئة ، وكنت انتظر امرا لابد ان يحدث .في الخميس قررت ان لا اذهب الى الدعوة .كان هناك تردد في داخلي .بعد ايام رأيته في الطريق ، صدفة . هل هي صدفة حقا؟ سألني لماذا لم آت الى الرواق ؟ قال سجلت الشريط وسأعمل لك مفتاحا ثانيا لباب البيت . اصابتني الدهشة ، قلت اجل .زرته مساء ، سألته عن الشريط ، قال إنه لم يسجله ،

سألته عن المفتاح فأوضح ان لديه ضيوفا ، لذلك لا يقدر على ذلك الآن . .سهرنا سهرة طويلة وكنا ثملين ، وكنت دائخة . سهرة مملة ، احاديث عن اصدقائه ، وهمومه وعائلته .البيت بيتك قال ، ولا احد يزعجك .

لاحظت في تلك الفترة كثرة الاصدقاء والنساء اللاتي يترددن عليه . حدثني عن الشلة الموثوق بها ، اذ تكلم باحترام وثقة .زوجة صديقه مثلا بإمكانها ان تأتي بأي وقت تكون فيه متضايقة ، تقضي يومين او ثلاثة ، لازوجها يغار ولا الاصدقاء ، هم متعودون على هذه المواقف .المرأة ليست وسيلة بالنسبة للشلة . واعجبني ذلك .اثر في نفسي ، لكنني استغربت وجود هؤلاء الناس ، وصار عندي فضول لمعرفتهم .لم اعش علاقات اجتماعية بهذا الشكل .

ذات يوم صار يطالع دفترا و يكتب فيه شعرا . اخبرني عن مشروع رواية يكتبها ، اسمها شيخ الغجر ، وحكى لي عن انتمائه الى الغجر . شيخ الغجر واحد من اقربائه وهو ينتمي الى المنظمة السرية ، دون ان يوضح ماهي طبيعة تلك المنظمة او من هم الغجر واين يقطنون .هل يعقل ان يكون رحّالا ، استقر في دمشق لقضية لا اعرفها .نحن نعرف ان الغجر مهتمين برقصهم وعزفهم ومعيشتهم ، لايكتبون الشعر ولا الروايات ، كما انهم لايهتمون بتغيير حياتهم الى الافضل . قال انه يعيش بخوف ، لايعرف اي وقت يطلبونه ، وهو محارَب في الشغل لأنه شريف ، يحارب الفساد والظلم والقيم الفالتة ولم يعد يحتمل . يقف بوجوههم دائما حتى طردوه .لا يستطيع الزواج والاستقرار لأنه ممنوع من ذلك ، وتلك اشياء غامضة .حياته غموض .

يحكي عن حياته بأسى كبير . قال في عيد ميلاده لا احد تذكره ، ولا زاره انسان ، كان يبكي لانه لم يجد اشرطة ملونة على الجدران ، وكعكة الميلاد ظلت حبيسة في فترينة البائع .كتب قصيدةً احتفاءً بذلك العيد ، وقرأها لي . القصيدة مليئة بهاجس الموت والخوف والوحدة .كان

يفكر بالانتحار ، عنده مادة سمية اخترعها اخوه المقيم في بولونيا وهو عازم على تناولها مستقبلا ، لانها لاتسبب اي الم . انه يحب الموت مثلي ، ويعشق الحياة مثلي ايضا .من هذه الناحية نتشابه كثيرا .نعم ، حياته صعبة ومصيره بيد الآخرين ، وهذا ما جعلني اشعر بالشفقة عليه . شخص عنده اصدقاء لكنه وحيد في هذا الوجود .

حين قرأ لي في روايته شيخ الغجر ، تفاجأت . دخلت في عالم غريب كأنني رجعت خمسمئة سنة الى الوراء . احسست وكأنني امثّل الشيء الذي اسمعه . صرت ملكة من ذلك الزمان ، راحلة ومقيمة ، راقصة ونائمة ، شعرها اعشاب واطرافها اشجار .كيف تحول الكلام الى حقيقة ، وصرت موجودة في ذلك المناخ ، كأنني الانثى التي تحكي مع الجبل والكائنات الغريبة التي لبست اصابع واكتشفت اسرار آلاف السنين؟ اكتشفت سر شجرة السنديان والمعزى وساحل البحر وصخرة الوادي المنقوشة بالخطوط الغابرة وطيور الفضاءات التي تتوالد سنة بعد اخرى . ثم حدث لي شيء عجيب . وجدت نفسي جالسة وراء الطاولة وكنت قبل دقائق على الصوفة؟ وعيت ، افقت ، غرقت ، ثم انسجمت كثيرا في الكتاب .قلت دعنا نعرف ماذا جرى لتلك الملكة وكائناتها الخرافية ، لكنه سكّر الدفتر وقال انتهى .

مملكة الغرباء والرحالة والمشردين والاموات لا تدخلينها الا مرة واحدة .وان دخلت مرة لن تخرجي منها .ولم افهم حديثه .

اذهب الى البيت باستمرار ، مع حاجة غير طبيعية للبقاء هناك . تجمعت دمشق في ذلك البيت ، صار شوارع وقصصا وحافلات واشجارا وروائح . لم اعد اطيق الجلوس مع اهلي .حين اجلس وحيدة في غرفتي يرتسم لي وجهه بتعابيره الطفولية وثمة نداء في عينيه . كنت اراه يناديني بتلك النظرة الندية ، وكثرت الحالات الغريبة ، التي كنت الاقيها جميلة . استغرقت بكل شيء . مثل تلك المرة التي كنا فيها جالسَين مع حديث

طويل ، ففاجأني قائلا : هل تعرفين القراءة؟ ضحكت ، كان السؤال سخيفا . اعطاني كتابا وقال اقرئي . الكتاب يدور حول الاساطير .بدأت اقرأ ، ولدهشتي كانت الكلمات كأنها تطير في الجو .تنزل على الارض . تداعب الاريكة والستارة والصور المعلقة ذات الاشكال غير المألوفة . صرت وكأنني اقرأ دون فهم .كان الصوت غير صوتي ، ثمة احد ما يتكلم عوضا عني .قرأت كثيرا ، اريد ان افهم .اردت ان اعيد الجملة ، افتضها ، اقلبها ، افلّي حروفها الا انه اخذ الكتاب ولم يدعني اكمل .كانت حركة غريبة بالنسبة لي .هنالك نوع من الانتشاء وكأن الغرفة والارض والكلمات صارت متجسدة فيّ .

تكررت الظاهرة ، مع كل قراءة .في البدء يكبر حجمي ، اطير ، يبللني مطر وهمي يتساقط من انجم بعيدة . وما ان اغلق الكتاب او المخطوط حتى اعود لآخذ حجمي الطبيعي . اجدني في ازمان بعيدة جدا ، للكلمات طاقة سحرية ، وايحاءات لا تحتمل . عادة مايكون لون الغرفة اصفر ، دون مبرر ، وهذا ما حدث مرة وكنا جالسين وكان يحكي لي عن صور غريبة علقت في الغرفة ، لوجوه ذات ملامح غريبة واقنعة .اطلعني على صورته مع شخص آخر قال انه رديفه ، ولم افقه المعنى . وتلك تعاريفه الغريبة للاشخاص والظواهر .

مرت علي اشهر وانا احلم بشخص كبير ، لحيته بيضاء مثل الثلج ، اشبه بشيخ طريقة . كيف يعيش الانسان حلما متكررا؟ لايمكن .لكن ذلك حدث معي .

رأيت خضرة امامي ونهراً ، وطيوراً بيضاً تعبر من جهة الى اخرى . ثم رأيت ذلك الشيخ ، المتكئ على عكازه لكنه بدا قويا . كان من عادة الشيخ الوقوف على الضفة الثانية ملوّحا لي ، يطلب عبوري ، الا انني لا احسن العوم .حين يخطر النهر في الحلم معناه ان الشخص قادم على تحول جذري في حياته .هكذا تخبرنا كتب الأحلام .الحلم دائما هكذا .حدثته عن

الحلم .وما فاجأني انني رأيته بغتة ، وانا صاحية . كان الشيخ نفسه ممدداً على الصوفة امامي . هل هو تأثيره الذهني عليّ . حدثته فبدأ يضحك .قال لم اره ، قلت ربما يتهيأ لي اذن .

كثرت مثل تلك الحوادث . صار ذهابي الى البيت اجباريا ، وكأنني مدمنة .لابد لي ان اذهب لتناول الجرعة .ذات يوم وجدت عنده شخصا ، قال انه لم ينم منذ اسبوع ، الا انني احسست وكأن هناك رائحة في الشاي ، وثمة تجربة غريبة على وشك الحدوث .كنت اريد ان امضي ، لكن كان لدي فضول لمعرفة ماذا ينويان العمل .كنت اتكلم مع الشخص فشعرت وكأن شيئا يدخل فيّ ، يستوطن في اكتافي ورجليّ .عضلاتي بدأت تتحرك وحدها ، وكأنني موجّهة من قبل ذلك الشخص . رجلي تهبط ثم يدي ، تطلعت الى ماجد ولمحت ابتسامة تواطؤ على وجهه .جئت اليه ذات يوم ، واول دخولي احسست بروائح غريبة عجيبة . ماهي قصة تلك الروائح؟ بيت رائحته في الصباح تختلف عنها في المساء ، وفي الصيف تختلف عن الشتاء .كيف؟ البيوت عادة ماتكون ذات رائحة مميزة .

اصبح لي المكان غريبا ، فيه كل ماهو خارق . من الجنون القول إنني احيانا الاقي تيارات باردة من تحت الارض ، خاصة حين يحكي عن روح اخته التي ماتت وهو الذي رعاها في مرضها الاخير قبل الموت .كان يشعر انها ساكنة في البيت وروحها تؤثر عليه .لكن ماعلاقة ذلك بالتيارات الهوائية الباردة التي تدخل عظامي؟ بيت من اصوات وروائح وتيارات ارواح قادمة من تحت البلاط!!!

رجل يحب الرياضة ، عنده حقيبة مجهزة للصيد ، مثل خيمة متنقلة .كثيرا ماحدثني عن مغامرات قام بها في غابات الساحل لصيد الثعالب والطيور والافاعي .لا ادري لماذا يصيد الافاعي . فكرت مرة انه يستقطر منها السم او يسلخ جلدها للبيع ، وان الاشخاص الغريبين الذين يأتون الى البيت يأتون من اجل شراء جلود الثعالب او الثعابين لكنني لم

أرَ جلودا في بيته .فكرت انه يخبئها في بيته في الساحل .قلت له انا احب الرياضة ايضا ، قال قومي لنلعب ، اعلمك بعض التمارين ، وكنا في الغرفة .فجأة احسست اننا انتقلنا الى مكان آخر ، او هكذا وجدت نفسي . وجدت نفسي كبيرة عند شاطئ بحر .لم يكن بحرا في الحقيقة ، بل خيال بحر ، ولم اكن موجودة كشخص ، لكن كروح ترى وتسمع وتحس ، دون جسد .رأيته على الشاطئ ، له شكل بوذي ، اذرع عديدة ووجوه مبتسمة ، شخص كبير الحجم طوال اللعب .احسست وكأننا نسبح سوية ، ثم وجدت نفسي مع شخص ثان ، وكنت اطول منه كثيرا .انتبهت واذا انا واقفة وسط الغرفة مذهولة ، فصار يضحك عليّ ، وسألني ألم يعجبك التمرين؟خلال ذلك كنا نسمع الموسيقى ذاتها والايقاع نفسه ، !الموسيقى التي يحسها المرء كأنها قادمة من عوالم غائبة وابعاد ثانية . موسيقى تحمل تأثيرا في النفس عجيبا .

اتذكر الحالات التي عشتها بوضوح . لايمكن لي نسيانها لأنها جرحتني مثل سكين . جرحت روحي وجسدي وذكرياتي ، حتى اسميت ذلك البيت بيت الرعب .

قال لي ان لديه مشوارا ضروريا ، سيخرج ولن يتأخر . جهزت ماء ساخنا للمتة وجلبت الكأس والشفّاطة ثم جلبت كتابا رحت اقرأ فيه . كنت سعيدة ، اشرب المتة واقرأ وادخن . بعد ربع ساعة ، احسست انني اريد ان ابكي دون سبب .ربما تأثير الشعر ، قلت لنفسي . اغلقت ديوان الشعر واخذت كتابا ثانيا .بعد قليل سمعت وكأن موسيقى تأتي من شباك كان يطل على الجنينة . الصوت يأتي ويذهب ، يلفني ثم يحررني ، فطلعت من الغرفة لرؤية الصوت .في الحديقة الخلفية ظلال ناعمة لشجرة الليمون ، والبدر في السماء .وجدت ثلاث ريشات كبيرات تحت ساق الشجرة . كان الصوت غريبا وكان بلهجة غير سورية . اطلع فيختفي الصوت ، اجلس فيعود .ثم اخذت اسمع اصوات ضحك وكان صوت

ماجد معهم .ظلت الامورعلى تلك الحال نصف ساعة تقريبا .

رجع بعد ساعة مع شخص من بلد ثان .اخذته جانبا وقلت له ان جيرانك محتفلين هذه الليلة ، ولديهم موسيقى وغناء وضيوف ، وحسبتك عندهم .خرج الى الحديقة ، وقف برهة ثم عاد وهمس قائلا :لاشيء . كان يضحك .بعد قليل طرق الباب وكان رفيق آخر من جنسية اخرى ايضا ، دخل حاملاعودا .غنينا معه وكانت الاغاني حلوة ، فيها طلاوة غير عادية . تخيلت روحي في عرس ، وكأنني ارتدي طرحة بيضاء وقرطين من الفضة وخلخالين من ذهب .كنت اطير مع اللحن .حاول ماجد ان يعطي العازف كلمات من شعره ليغنيها . الا ان المغني صار يحكي عن ابنته وكيف يلعب معها وهو يدندن على العود .شخص آخر كان يقرأ الشعر وكان الجو حلوا .الصوت الذي غناه المغني ، نفسه الذي سمعته قادما من الشباك ، ولا اعرف بأي لغة .صوت فيه حميمية .تلك اختلاطات لم انتبه لها بدقة ، خاصة في حينها . لكنني الآن ، وحين افكر بحصولها ، اؤمن انني كنت عرضت لتجربة متفردة لم افقه ، لحد الآن ، الغرض منها .هل كانوا متواطئين معه علي ، ولماذا انا؟ انا امراة عادية ، لا اشكّل اغراء لكي يحطمني احد .

احلامي تغيرت . صار هو المحور . قبلئذ كنت احلم ، لكن ليس بأشخاص اعرفهم .احلامي مع هذا الشخص صارت تمتزج بالواقع . جعلت اؤمن بالحلم الذي اراه لان كل حلم اراه يتحقق بعد ايام .كان الحلم هو الحقيقة الوحيدة ، حتى انني بدأت انام لكي احلم فقط . حوارات واشارات ودروب وبيوت واشخاص ، كنت اعيشها في الليل ، ليلي الصامت وانا مطبقة الاجفان ، فأعود اعيشها نهارا ، حين تكون الشمس في الافق والضوضاء على أشدها ، والبشر يمضون ساعاتهم بالاكل واللهو والشراب والمتعة . اراه في الحلم مع رفاقه حيث يكون هو الضعيف بينهم ، في منزلةٍ ، لا ذكر ولا انثى . خنثى . بحالة جمود وموت .وحين يكون في

حالة شبه ميت ، يستنجد بي لكي انقذه وأحييه .رفاقه يتهجمون عليه في الكلام ، والبعض يريده ان يبقى بالحالة نفسها ، وتلك كانت حقيقة .كنت احكي له احلامي وكيف كان البيت مغلقا عليّ ، ثم يدخل الاشخاص انفسهم ، كي يسدوا الطريق ، ولكني اخرج بسهولة . انجح بالهرب منهم، لكنه يسد علي الطريق .حتى بالحلم كنت اشعر بالدهشة من هذا ، لا معه ولا ضده . . . .

حلمت بقلعة ضخمة ، ذات ابراج ونوافذ وطابوق احمر .كنت انا فيها ، وهو موجود ايضا ، حاول ان يغتصبني ، ثم رغب بتعريفي على ناس لا اريدهم . طلبت منه ان يزيل القناع لكي ارى وجهه .كنت خائفة من رؤية وجهه الحقيقي . بدأ بكشف القناع فأصبت بالرعب . كنت خائفة من رؤية وجهه . هربت وضحكت عليه . وجدت اناسا ينتظرون خارج القلعة ، بنظارات سود . حرس يقفون خارجا لكنهم لم يؤذوني .كانوا يراقبون ، وكنت انجح دائما بالهرب الى برية شاسعة ، فيها الند والكراث البري والزهور .وفيها تلال واطئة تتلون بلون الشمس .في الصباح دكنة وفي الظهيرة ذهب وفي المساء رمّان .

ورغم ان القلعة ظهرت جميلة ، واردت التفرج عليها ، لكنها كانت خالية من الاثاث ، لاتحتوي على شيء .تلك كانت اياما ممتعة بحق .بدأ يتهرب مني ، صرت احب ان اخرج معه ، لكنه أخبرني ان هناك اناسا لا يعجبهم الامر والعلاقة يجب ان تكون سرية ، اذ انه ممنوع من اقامة العلاقات . أُلحّ ، ويرفض ، حتى أخذ التوتر يدب في اعضائي ، روحي تتآكل من الغيض والغضب والنفور والحب والادمان على الهلوسة . اعتدت عليه ، اعتدت الاحلام المرعبة واحاديث الشلة الملغزة التي تعرّض الذهن للاختبار والروائح الغريبة في الشاي والخمرة والمياه ، والصور المعلقة على الجدران وروائح الشراشف في السرير وهبوب الريح من تحت البلاط والنقرات القادمة منتصف الليل من الباب الخارجي .

٢٤

صار ينزعج من خروجي معه بشكل واضح وصريح .ذهبت معه عنوة الى بيت قال انه عليه ان يحكي مع صديق . طرق الباب .كنت احب المفاجآت ، والحياة معه مفاجآت متواصلة ، خاصة وأنه يحول كل ماهو واضح الى غموض .حتى تدخينه للسيجارة يخلق منه رمزا واشارة .ربما من هنا جاء تعبه ، فلا يمكن العيش بحساسية عالية مثل تلك .اليس هناك حركات واشياء واقوال لامعنى لها؟ فلماذا نعقّد الحياة مثلما كان يفعل؟ اقول طرق الباب وخرجت فتاة ناعمة ، احتضنته لمدة خمس دقائق دون ان يفوه احد منهما بكلمة . كانت تتطلع لي باستغراب .التفت إليّ بغتة وقال لايمكن ان تدخلي . هددني بجلب الشرطة .اول مرة يحكي بوقاحة معي .اردت ان امضي ، شعرت كأن شيئا خرج منه وجعل يزحف في العتمة . شعرت بالرعب .

جاءت الفتاة و قالت انه يمزح ، لن يجلب الشرطة .دخلنا فوجدنا الشلة نفسها ، امامهم كؤوس خمرة ومنافض مليئة بأعقاب السجائر ، وثمة

رائحة في الهواء ، ليست غريبة على انفي .صاروا يتكلمون عن الادب ، وكان ثمة تصرفات هستيرية ، ضحك وخبط كاسات ، وصراخ لم اجد له سببا .سألتهم لماذا تتصرفون هكذا؟ فحدّق فيّ بذهول .ثم ركزوا انتباههم على واحدة من الموجودين . كلمات ملغزة واشارات ونظرات . احسست بحزن كبير عليها ، وضعت نفسي مكانها .كيف يلعب بالانسان هكذا . وجدت شيئا ، صرت اراقب وامسك اي خيط او تصرف .ذهني تفتح اكثر ، وكنت قرفة من كل ما يدور حولي .

الاحداث معهم كأنها حدث واحد ، الغاء للزمن غريب .كانوا يدخلون في احاديث لا افقه منها شيئا . لهم طريقتهم في استخدام الرموز وكلمات معينة متفق على دلالاتها . .يتعاركون ، يتصالحون ، يجلسون في اماكن متفرقة . يوحون للآخرين انهم لايعرفون بعضهم البعض ، الا انهم يلتقون سوية كل يوم تقريبا .اصبح ماجد نزقا معي ، وكثيرا ما صاح في وجهي قائلا : من يدعمك ومن وراءك؟ . يريد معرفة من يقف ورائي انا المشردة في هذا الوجود . اقضي ايامي في غرفتي الكئيبة او في ذلك المكتب المليء بالغمز واللمز عليّ .

فتح ذات ليلة الورقة وامسك القلم ليكتب .علاقتي به كانت تحتضر ، ولم يعد يطيق همودي ومراقبتي له وهو يتحرك داخل البيت .يقول انك كاميرا تسجل التفاصيل .لماذا لا تبوحين بأحاسيسك وبما تعرفين؟ لماذا تضمرين الشيء ونقيضه؟ في تلك اللحظة احسست كأنني تحولت الى حبر ابيض مسفوح على الورق . غابت انسانيتي تماما ، وتحولت الى ذرات سائلة ، فلم استطيع النوم ، ولازمني شعور بالاستفراغ والاختناق .

كانت تمر اوقات اشعر معها انني واحدة من العائلة .وجدت مرة اخته الحامل في البيت ، وانا محرجة في البقاء ، مهما كان الشخص قريبا مني لكن تظل رابطة القرابة ذات خصوصية .فذهبت الى الغرفة ، بقيت هي في الصالون ، لكنني شعرت وكأنني دخلت الى بطنها وجسدها .كنت

اشعر بالحب اتجاههما ، هي بحاجة الى الراحة . تسطحنا سوية ، اول مرة انام بهذه السرعة .فقت صباحا ، شربنا القهوة ثم مشيت ، كان اللقاء غريبا به حلاوة ، شعرت اني واحدة من العائلة ، وهذا الشعور راودني ، في البدء ، مع كل من تعرفت عليه من الشلة . لم يُشعروني بغربة معهم ، عكس ماحصل بعد ذلك .الآن افكر ان هناك شيئا خاصا في المكان ، افسره سياسيا او فكريا ، استغرب ماذا يعمل ، يقول مرة انه وسيط ، ومرة يقول انه يكتب الاراشيف ، اراشيف لمن؟ لا اعرف . يتكلم مع اشخاص لا اعرف ماهو عملهم .اقول احيانا انهم مناضلون في قضية معينة . انا لي رغبة في الانتماء الى مجموعة عندها قضية . كانوا يرحبون بي ، مع مشاعر من الاخوة عكس تعاملهم مع الآخرين .مشاعر سامية ، وجو ثقافي منحني ثقة بالنفس وتشجيعا على القراءة والمثابرة .شعرت انه سيعطيني دورا لا اعرفه . سيحدث شيء يعمق من ارتباطي به ، لذلك لم اعد احس برعب او ضياع .

هناك دائما اشخاص من بلد آخر ، يهتمون بي وكأني قضية مهمة ، وهذا الشعور يرضيني . قاموسهم الذي يتفاهمون به قاموس غريب من المفردات اشعر له بالمتعة . حيث افسرالكلمات كما ارغب ، وكانت تستفز الذهن ، تمنحني القدرة على التفكير بماهو خارج الواقع .لحظات التأمل الصباحية ، وقتما يجلس يتأمل الشمس وهي تشرق بصمت ، والتعامل مع الاشياء الغريبة ، امور عشتها بعمق ، وربما كان الامر نتيجة لفراغ في حياتي .بالنسبة لهم كانوا متدربين عليه .مرة كنت احاول ترك العمل لانني متضايقة كثيرا ، وشعرت بحاجة الى السفر فشجعني وقال خذي هذا الكتاب واقرأيه ، كان وقتها لديه امسية في المركز الثقافي .قرأت الكتاب بمتعة ، وهو كتاب حول التأمل ، جربت ان اطبق التمارين التي يحتويها فلم تضبط معي ، ذهبت الى المركز مع بقية الشلة وكانت هناك امرأة يابانية وعدد من الاشخاص ، لايتجاوزون العشرة .كأنها لم تكن

امسية بقدر ما كان لقاء خاصا .كنت اعرف شخصا واحدا فقط ، الا انني احسست انني صرت منهم ، خاصة حين كان جالسا جنبي ، وهو الذي قدم الموجودين .كنت اشعر بالكلمات تتجسد ، كأنها تتحول الى احاسيس وكلمات في داخلي .ساعة وانتهت الامسية ، مضى البعض ورجع البقية الى البيت وكانت اليابانية معنا .

بدأوا طقوسهم لسبب اجهله ، واحد يتنفس بطريقة خاصة ، آخر يأخذ وضعية غير مألوفة ، ثالث يحدق في الفراغ .شعرت باليابانية كما لو اصبحت منومة ، يدها تتحرك وترسم الاشكال في الهواء ، قلت لنفسي كل انسان له مذهبه الخاص ، لكن ثمة نوع من الخضوع والرضوخ .سكنت البنت فيّ ، كانت تحكي وانا اترجم . تدرس العربية في جامعة دمشق .شعرت بعد ان خرجت وكأنها كانت ذاهلة ، فاقدة الحضور ، وثمة شيء استهلك فيها .نظرتها تدل على الضياع ، رغم انها كانت قبلا توحي بالكثير .شعرت ان ثمة شيئا يحدث لها .كان هناك ضغط غير طبيعي في البيت .

ذلك ما حدث في الرواق ايضا .والوقت صيف ، والطاولات متراصة والنافورة تدفق الماء في عجينة الليل . رفيقة او حبيبة لآخر جميلة جدا ، لم ادر ما اصابها ، اتذكر وقت الامسية كانت تتقرب من ماجد بطريقة غريبة ، تود ملامسته تحت اي ذريعة ، يتطلع فيها بذهول ، لكنه استمر بالقائه .في الرواق كانت تجلس مع حبيبها ، كنت جالسة معه فأحسست وكأن شيئا يسحبني من ظهري ،ثم شعرت بكيانه امامي ، كان مستحوذا عليّ ، يعمل حركات بيده والشخص الآخر يعمل الحركات نفسها ، فرأيت البنت تتحول الى صنم ماسكة السيكارة لاتطفئها ولا تدخنها .استمرت على ذلك الوضع حوالي عشر دقائق ، جليسها يتطلع فيها وهي على الجمود نفسه . تحرك ماجد حركة ما ثم عادت الامور الى مجراها الطبيعي ، فما كان من الفتاة الا ان تحمل حقيبتها وتمضي بارتباك .

هذا عدا عن قصة امرأة تزوجها ولديه ولد منها وكيف هددوه بالقتل ان هو فكر بها ثم اخوه وكيف قتلوه .نعم ان احواله غريبة ، يكون جالسا ، تبدأ عيونه تتحرك ، يصبح مثل المجنون او السكران ، يهيج دفعة واحدة . تهدأ عيناه من الدوران ، أسأله مابك ، يقول انا سكران ، اقول انت لست سكران ، يراودني شعور انه قابل للموت ، تعيس . يبكي من الوحدة والورطة وكثافة الوجود والاختلاطات والتداخلات ، أنبسط حين يتعرف الى شخص جديد يخرجه من وحدته .

كان جوا عجائبيا بالنسبة لي . في البداية كنت اتقبل الامور دون تمحيص او ملاحظة ، اما بعدها فرحت احسب كل حركة وكأنني بدأت اتورط بشيء . تساؤلات واستغراب وتفكير بما يحدث . سعيدة بهذه الامور مع انها كلفتني غاليا .السؤال هو كيف لم ادخل في الجو وبقيت شخصا خارج اللعبة؟ ردة الفعل كانت كبيرة ، نفرت منهم ونفروا مني ، وربما كان الخطأ هو انني دخلت في اللعبة دون ان افهم القواعد .

٢٥

جاءت متأخرة . احس قلبه يفز من بين اضلاعه ، ادخلها الى الغرفة ، عيناها تجولان في البيت كما لو كانت تبحث عن شيء مفقود ، لكنه هناك في الهواء المليء بالدخان والقناني الفارغة . سألها لم تأخرت حتى هذا الوقت قالت انها كانت في البيت وكان هناك ضيوف لم تستطع التملص منهم . عيناها لا تحملان شوقا له ، هو الذي كان يظن ان اي شعور يحمله لشخص لابد ان يقابله نفس الشعور من ذلك الشخص .على الكرسي القريب من الباب لا تزال الهدية التي جلبها لها ملقاة بإهمال ، وهي شال حريري اشتراه معه من محطة كوبنهاغن ، من النوع الفرنسي ، مغلفا بعلبة كارتونية انيقة مزخرفة بالزهور .استغرب كثيرا حين تركته البارحة وراءها ومضت ، فسّر الامر انها نسيته . لكن لم نسيت كروس السجائر ايضا؟ذلك مالم يفهمه ولم يجد له تفسيرا .

تجلس على حافة السرير ،صامتة ، تدخن بشراهة . احتست معه كأسا من البيرة ، نزعت سترتها الجلد البنية فبانت كنزتها الصوفية الحمراء ،

وغرتها تتمايل على جبينها كلما حركت جسدها .قالت له اذا لم يكن عندك بيرة كافية اجلب لنا من بقالية ابي سليم ، فاستغرب كيف تعرف بقالية ابي سليم ، التي يعرفها اغلب الذين سكنوا في مساكن برزة .هل لها علاقة باشخاص يقيمون في برزة؟هل تعرف احدا غير الرسام ذاك الذي حدثه صديقه عن جلستها معه في الرواق؟ بدت غريبة له ، كأنه لم يفكر بها كل تلك الشهور ، ايامها ولياليها ، بعيدة تعيش في عالم آخر ، وهو مثل شبح يجلس معها .ود لو يمد يده ويداعب شعرها ، يقبلها ، يطفئ ظمأه اليها ، الا ان ابتعادها الروحي والجسدي عنه جعله يسيطر على هواجسه ورغباته . عادة ما ينتظر اشارة من المرأة لكي يبادر ، لايحب ان يقتحم ، لديه عقدة متأصلة من الرفض . يفسرها بعقدة الأم ، لم يعش عاطفة الامومة ابدا ، ظلت المرأة غريبة عليه حتى بعد ان تزوج تاتا وعاش معها اكثر من سبع سنين .

جلب عددا من القناني وجلس معها على الارض .لم يكن يصدق ان هذه المرأة التي امامه هي نفسها هيام الحلم ، تضحك فتبين اسنانها غير المتناسقة . فكر ان الاسنان تعكس شخصية الانسان كثيرا ، انها دواخله الحقيقية ، حين تكون بشعة تعني ان مايُكنُّه المرء ويعيشه حقيقة هو البشاعة ، وحين تكون جميلة تدل على جمال الروح . هذا ما سماه في دخيلته بفلسفة الاسنان .الفلسفة التي جاءته من الملاحظة الدقيقة للاشخاص الذين عاشرهم وليس عبر قراءاته المتنوعة .ذكرته اسنان هيام بأسنان تاتا ، فهي تملك اسنانا منخورة ايضا ، وربما كانت هي السبب في نفوره من الاستمرار معها .على اية حال احس ان ثمة حذرا نحوه من قبل هيام ، ظن انه حين يلتقيها سيظلان يتكلمان طويلا عن فترة الفراق التي عاشاها ، لكن شيئا من ذلك لم يحصل وهو مافاجأه بحق .فيها شيء لايوحي بالطمأنينة ، كأنها تخفي شيئا ، شيئا غامضا عليه ان يكتشفه ، يفضه مثل ختم سري ، يضيئه ، ينشره على السطح .وتلك رسالته التي

عاش من اجلها : يضيء المعتم ويفك ما استغلق في هذه الحياة .

بالامس حلمت حلما غريبا قالت له بعد ان احتست عددا من كؤوس البيرة :كنت في شقة في شارع بغداد ، وانت معي ، نظرت من الشباك الى السماء . كان ثمة هدوء غريب فوق البيوت والعمارات ، ابراج الكنائس مضيئة ومآذن الجوامع ذات ألَق اخضر ، وفوق ، في الافق البعيد ، كان هناك أجمل قمر رأيته في حيـاتي . قمر العشق والود والفراق ، قمر الاشخاص الذين يلتقون في ساعات غير مواتية وعليهم ان يفترقوا بعدها . القمر نصف مكتمل .الهدوء غافل عنا ، والستائر مسدلة والشجر صانت ، انت القمر حسبت ، ولكنك اعترضت بفجاجة ، وكان الصفاء لاينسى .فوق القمر المضيء انفرشت فجأة ورقة سوداء ، حوافها مسننة ، سوداء وجميلة اضفت حلاوة على المشهد ، وهي المرة الاولى التي ارى فيها المدينة على هذا الجمال والصفاء والخلود ، ورقة من دخان ، لكن كيف؟ خفت ، فالإنسان لايستطيع ان يبدأ من الصفر ، الا في حالة واحدة ؛ حين يقدم على مواجهة الموت . تلك الورقة التي من دخان ستقضي عليَّ ، انها الماضي الذي يطاردني .

احسست نفسي مهرة في برية خضراء . ثمة تلال بعيدة وصوت مغن شجي بعيد يتكلم عن الحبيب والعشق .لكن من يعرف العشق؟لا احد .ماهو العشق ، ماهي الاسرار ، كيف نخون شخصا نحبه؟

لم يفهم حديثها . كان هامسا ، وصوتها راعشا ، وعيناها مثلما رآهما في تلك الحانة ، سوداء فاحمة وعميقة لاتبوحان ولكن توحيان ، العنق ممدود تحت شعرها المسدل الناعم .كيف اتعامل معك؟ سألت نفسها وهي تحدق في الفراغ ، في السرير ، في البرودة المسدلة على الاشياء وتلك الهدية النائمة على سرير من القذيفة .ودَّ لو يسألها عن الفنان والرواق والجلسة الحميمة ، يسألها عما فعلته بعده في دمشق الواسعة الشرسة الاليفة العاهرة النبيلة السادرة تحت جناحَيْ الجبل .في لحظة هائمة بين ابحرة

الخمرة ووجه هيام الطافي بعتمة الليل ، رأى سمارة امامه ، ملفوفة بملابسها الجديدة ، رآها تفتح عينيها ، وثمة حركة خفيفة في الشفتين ، فراشة طائرة ، جناحا موت يرفان على ايامه المتواصلة من برودة الثلج الى حمأة الحصاة التي كوته في سفح قاسيون . كيف يتحول الى طير حب في قفص من اقفاص ساحة المرجة ، او سلحفاة يتيمة تنتظر ورقة خس يمدها صبي بحنان؟ كيف يتوحد مع الارنب والديك والبزاقة والعشبة الصفراء؟

قال لها هيام انت بعيدة عني؟ لا استطيع ان اضع ما احس به في كلمات ، كلمات مثل الحب ، العشق ، الشوق لا تفي بما يعتمل في داخلي .انت اول امرأة تصنع بي هكذا .كانت صامتة ، ذهنها في مكان آخر ، خارج البيت ومساكن برزة ، في سماء ثانية مؤطرة بالخيالات والاحلام .قالت له انت تعشق المرأة التي في ذهنك ، وكثير من الناس يعشقون الورود البلاستيكية رغم انها لاتمتلك رائحة .صنعت مني وردة على هواك وعشقتها ، الذنب ليس ذنبي .لا اعرف مشاعري اتجاهك ، اترك لي وقتا لأعرف نفسي .

– لماذا عدتَ؟ سألته دون مقدمات .

– لم اعد اطيق العيش هناك ، كنت اختنق في ذلك البيت ، احس ان حياتي يجب ان تنتهي هنا ، في هذا المكان الذي احببته منذ الزيارة السابقة .قلت لنفسي هنا عليك ان تعيش .لا اريد ان اقضي حياتي غريبا .

– هل عدتَ من اجلي؟

– كلا .

كان ينظر الى الخارج ، الى الشجرة الغائبة التي سيدون عليها احزانه واوهامه ، اشواقه الطائرة في عالم سري كوّنه منذ الطفولة وتركه كائنا حساسا ناعم الروح ، عاشقا ابديا في هذه الحياة الفظة .

سيدون هفهفات قلبه على الورق والاغصان ، الساق والجذور التي لايراها ، على الانساغ المتخفية هناك حيث يصعد الماء وينزل الى ظلمة

التراب . ستعرف مايحس به ، المسامات المليون والذرات الغبارية .صديقته الشجرة ستكتب في دفترها اللانهائي ما فكر به وما عاشه وما سفحه من دموع ، تمتد من عيني القط بيليه ولاتنتهي في كؤوس قصر البلور على ضفة بردى .وحدها التي شهدت وحدته وهيمانه الليلي حين ينام البشر ، صيفا والسماء ساكنة بنجومها ، وشتاء والريح في الأسطح والمطر على تيجان الشجر .

من مكان خلف القابون كانت اضواء الفجر تتسلل الى الفضاء ، خفيفة غامضة تطلي الاشياء برائحة النهار وضوضائه ، حاملة الى البيت تعب البوح والكلمات والافكار .قالت له ضاجعني .ضاجعها بعنف ووجدها هامدة ، تفصله عنها مسافات لايدرك ما تضم بين حدودها . يدها اليسرى تطوق رأسها ، دلالة اللاتفاعل ، ومثل ومضة حلمية شعر انها تفكر بوجه غامض ، وتعيش في زمن آخر في بيت لايشبه بيته . انفاسها تتدافع من كبت حقيقة ماتحس ، جسدها بعيدعن جسده ، لم تترك سوى بؤرة ضيقة للتواصل .ذلك مادعاه واجب الضيافة الذي تمارسه النساء كما عاش قبلئذ في اكثر من موقف .البرودة سيدة الفجر القادم ، الهواجس غير القابلة للشفاء حارسة الايام القادمة ، ايامه التي قرر ان يعيشها مع هذه البنت ذات الغرة الشبيهة بسنابل القمح .

قبل ان يغمض عينيه سألته عن سلمان . قال لم التقه بعد .قالت قابلته في الصالحية بعد ان رحلت وسلمت عليه وسألته عن رغد وعن زوجته نضال فقال انه سيرحل الى هولندة .قال لها ما الذي جلب سلمان الى ذهنك؟ قالت تذكرت سفرتنا الاولى الى عين الخضرة ، اللقاء الاول بك .كلما رأيت الصور التي بعثتها احس بانني اعيش حلما لا اكثر .ليت الزمن يكر بنا راجعا الى تلك الساعات .كانت حلما حقيقيا .

استنتج ان كثيرا من المياه قد مرت من تحت جسور هيام . الزمن الوحيد الذي كان متوقفا هو زمنه .لابد ان يخرج من طوقها ، ان يرى سلمان

وابوحالوب والشلة ويعيد ما انقطع من خيوط ، وهاهو الفجر يهجم بغتة على الشبابيك . تختفي سمارة من خياله ، يختفي القط ، تختفي الرغبة في التهام الورق والحديد والخشب والقناني الفارغة والزجاج والسيقان والجذور ليعود كي يتوحد مع مساكن برزة ودمشق والمكتب وكل شيء .

٢٦

حين يجلس وحده ، امام مدفأة المازوت ، يفكر كم هو ضائع في هذه المدينة . لا يستطيع مفارقة هيام ، ولا يستطيع ان يمتلكها . يسيران في الشوارع معا . تمد يدها لتلامس اصابعه ، يود لو يعطيها جسده وروحه ، إلا انه خائف . فالاحساس بانها لن تقدّر عشقه لها يتنامى ، هي اللغوب الصامتة الغامضة التي لايمكنه ان يعرف حقيقة ما تفكر به .لا ينتمي الى احد ولا ينتظره احد . ينظر في النار تتأجج بألسنة خفيفة ترسم اشكالا يحاول ان يطلق عليها اسما ما .ربما يرى فيها شارعا من شوارع كوبنهاغن او جبلا من جبال العراق او شجرة على ضفة بردى . حين تغيب المدينة عن حاضره يعود كي يتكلم مع سهير .تقول له :

– بابا ، اين انت الآن ، ماذا تأكل وكيف تعيش؟ البارحة جلبت لنا امنا بتزا من المحل التركي ، بتزا الخضراوات ، لم تحبها مي وفضلت ان تأكل الجبن . مي حمارة ، وهي تسأل عنك دائما .الثلج في الحديقة كثير ، القواقع ماتت ، والقط بيليه تساقط شعره من البرد .انا ومي نذهب كل يوم

الى روضة الاطفال .

- انت لست لي ، رغم انني حمّمتك واطعمتك وسهرت عليك حين كانت تأتيك الحمى ، لكن هذا الشعور لم يزايلني يوما . يفصلنا حاجز اللغة ، حاجز الحياة الاخرى التي عليك ان تعيشيها .اراك ومي وتاتا كل يوم ، لكن هناك اشياء لايمكن البوح بها ، تخص الشخص نفسه .استمتع هنا بالشمس ، الارض الرمادية ، الغيوم التي تنقلني الى ايام القرية ، حيث كان المطر يتطرطش على النخيل ، لكنني محكوم ان لا تشاركنني كل هذه السعادة .علي ان اتقبل الوحدة كقدر لابد منه .لم اعد انتمي الى اي مكان ، صرت انتمي الى كل الكرة الارضية .

يجلس في الغرفة وحيدا ، يتأمل اللون الزهري في الستائر . يرى الشجرة من النافذة وهي تنتصب في كل الفصول ، يتمنى لو يكون شجرة ، ثابتة في مكان واحد .ويؤمن ان امتلاك احاسيس انسان ، صعب بل مستحيل .الاغاني التي كان يطرب لها ملّها . الكتب لا تقدم له مايثير . الخمرة لم تعد تنقله الى سماوات الاحلام والمشاريع كالسابق .ينحشر تفكيره في زاوية واحدة ، يغرق في بحر وجه واحد ، يتعب جسده وينهد فيُسلم روحه للسرير .كل انتظار عذاب ، وكل ظن حريق .

قالت له تاتا في التلفون اعرف انك مولع بأمراة اخرى ، جاءتني الاخبار .اما من اخبرها بذلك فلم يعرف .استعرض اسماء الاصدقاء واحدا واحدا ، لم يصل الى نتيجة .قالت له اكتب لي كيف تعيش وماذا تعمل وصفٌ لي البيت القاطن فيه .كان صوتها حزينا ، منفعلا ، مهدّما .قالت لماذا فعلت بي ذلك ، لماذا تزوجت وانجبت وانت اصغر من تحمل هذه المسؤولية .وفي كل مرة لايستطيع الرد . لايستطيع شرح مايحس ومايعيش ولِمَ اختار هذه الطريق .كان يحس ان ثمة ملايين الاميال تفصل بينهما ، حتى الصوت يأتيه مشوشا وتصعب ملاحقته . صدى ووشوشات تختلط فيها ذبذبات النجوم وموجات البحر وقامات الجبال ، وفترات

الصمت القاتلة التي يخافان ملأها . الكلمات حذرة ولا تعبر عما يجيش في الصدر حقيقة .اجمل اللحظات هي التي يتكلم بها مع مي وسهير .يسأل سهيرا عن القواقع قائلا :

– الا تلعبين معها؟

– كلا ، لايوجد قواقع الآن ، الشجرة عارية والثلج كثير .لابد انها تلعب تحت الثلج .

– هل نسيت العربية؟

– نعم .

– الاتودين المجيء الى هنا؟

– أمي تقول إنك ستسرقنا . انا مشتاقة اليك .

يعود الى البيت ، ينتظر مجيء هيام .ايامه انتظار وخوف . تبتسم حين تكون معه لأشخاص يرى في بشراتهم تعابير غامضة ، تتكلم بتورية والغاز ، ويسمع ردودا مشابهة ، فيزيد ذلك من قلقه .ان امامه قناعا متقنا اسمه هيام ، كلما نزعه يظهر له واحد آخر ، وهو ماض في اللعبة ، لعبة نزع الاقنعة .كل قناع ينزعه يحتفظ به لنفسه ، يتأمله ، يقرأ الاسماء المنقوشة عليه ، الابتسامات الكاذبة ، الرموز ، الخطى الضاربة في عمق الليالي لزيارة بيت او مرافقة رجل غريب ، حتى صار عالمه الداخلي يتسع مع كل قناع .يشعر كما لو انه يمتص هذا الكائن الانثوي ، ويتمثله ، فيجري فيه مختلطا بدمه وافكاره .هذه هي الطريقة الوحيدة التي وجدها ملائمة لامتلاكها .ان يمتص ذكرياتها كلها ، يستحوذ على ماضيها .كل ذكرى ستقودها اليه ، كل اسم يرتبط باسمه ، سيكون كابوسها ومقبرتها وحياتها : الامس واليوم والغد .

٢٧

ركبا الباص في الحادية عشرة والنصف ، جنبا الى جنب . تبدو عليها أمارات التعب واليأس . حاول ان يستفسر عن سر هذا الخمول . ظنها تكون سعيدة بوجوده . ليلة البارحة كانا معا في حديقة تشرين ، قررا ان يقوما برحلة الى مدينة قريبة وكانت فرحة بذلك . تتنفس بضيق ، تدخن ، عيناها قلقتان ، وكأنها ماضية الى النحر .تنبعث من جسدها اشعاعات ضاغطة على روحه ، يحدس المرء منها انها تعيش في مكان آخر . او تتمنى لو ان شخصا آخر برفقتها .هل كانت مع رجل؟ قضت ليلة عاصفة لم تنم خلالها جيدا ، لاحظ الانتفاخات الصغيرة تحت عينيها وتعابير زاويتي الشفتين المعبرتين عن قرف من حالة ما .

- تشاجرت مع أخي .

- لماذا؟

- اراد ان يأخذ غرفتي . باعتبار انني مطلقة وأي زاوية في البيت تكفيها .

شمس الصباح فاترة لكنها لذيذة ، تظهر لها الأشياء من مبان وشجر وتلال كما لو كانت مطلية بالذهب .كانت دمشق تتوارى شيئا فشيئا وراء المرتفعات والأجَمات وانحناءة الافق .تتوغل العين في التلال البعيدة والمسافات النائية .رعاة الاغنام في سفوح الجبال اشبه بنمل ، واشجار اليوكالبتوس على جانبي الطريق ، وثمة سفوح مشجرة بالسنديان ومنشآت تمر ، والطريق يمضي شمالا بين الجبال الخفيضة والمنحدرات والوديان . يحن الى منظر الارض العارية ، التي افتقدها منذ رحيله ، يذكره المنظر بأمكنة مختلطة عليه لم تعد تخطر اسماؤها في الذاكرة . يرتشف السنط والحصى والتراب واليوكالبتوس ، بيوت الشعر والرعاة وامتداد الافق الذي يشف عن قلاع قديمة .تخيل الارض مليئة بجيوش غازية ، سيوف ومنجنيقات ودروع وخيول تثير الغبار ، التاريخ يتراكب مثل طبقات التربة . فينيقيون واغريق وآشوريون ورومان ومسلمون ومغول وسلاجقة ومماليك وصليبيون ، يسمع صهيلهم ، يرى وجوههم ، والارض ثابتة ، ترابها احمر وهواؤها رقراق .

انه فرح لأنه مع هذه المرأة سيكتشف تفاصيل الارض ، والمدن والقلاع والبشر . انها تنتمي الى كل ذلك اكثر منه .ليتها تكون دليله الى حياة اخرى ، كان تائقاً الى عيشها . في هذه الارض ، قال لنفسه ، وجدت مكاني .سينسى من اين جاء والى اين يمضي . سيقلب صفحة ثانية من حياته ، ينسى كرستيانيا وكوبنهاغن وفالبي والقط بيليه وسهير ومي وتاتا ، وشجرة البوص النابتة تحت شباكهم .ما الذي يفعله القط ياترى في هذه الساعة؟ ربما يقرفص على طبق طعامه الذي وضعته تاتا امامه؟ كيف هي القواقع هذا الربيع؟ سهير اصبحت كبيرة كي تضعها في فمها مثل الشوكولاته . أكيد أنهما كبرتا صارتا تلعبان في الحديقة مع القط .قالت له تاتا قبل يومين على التلفون هل تنوي البقاء في سورية؟ لم يعرف كيف يرد ، انه معلق فوق هاويتين .لم يعد يستطيع مفارقة هيام ، ولا المدينة .

عليه ان يمضي بالشوط الى النهاية .

– ماذا فعلت مع الفنان؟

– جلست معه مرة واحدة فقط كما اخبرتك البارحة .

– لا اصدق .

– اسأله .

ثم التفتت الى الطريق والمساحات الفارغة ، ذات اللون الرمادي . شعرت ان عليها ان لا تطلعه على اي اثر من آثار حياتها .تضرب طوقا من الصمت على كل ماعاشته سابقا . يريد حبا فلتمنحه هذا الوهم ، لكنها تحتفظ لنفسها بأسرارها .ماضيها مُلْكُها ، تفتح له صندوقا جديدا من صناديق روحها المليونية ، انها مركومة في مخزن لكنها تتذكر مافيها أجْمع .لا مجال للخلط ، والخطأ هنا قاتل .على ماذا تطلعه ، حياتها الجنسية حين كانت صبية لايتجاوز عمرها عشر سنوات؟ تتذكر اول رجل غرر بها ، كانت تقف في الشارع جنب البيت واشار لها بالاقتراب ثم سألها عن بيت ما .قال سيعطيها فرنكين ان هي دلته فقبلت . اكتشفت انه كان يعرف كل شيء ، لكنه يريد ان يريها اياه وان تمد يدها اليه . تطلعه على قصة بائع الورد في شارع بغداد الذي نالها عنوة ، في الغرفة الخلفية من المحل؟ كلا . تلك قصص حياتها التي تحكيها لنفسها ، تتأملها مثل سجادة تركية حين تجلس وحيدة في الغرفة ، تشعل شموعها وتدخن سجائرها ، او حين تفرط في الشراب فتأخذها الحالة الى تلك الوجوه وحواراتها ومغامرات الليالي الموحشة .

تحدر الشارع من سفح الجبل الى واد عميق ضيق . لاحت البساتين والبيوت ، طلعت المدينة من الارض ، الوان زهرية وخشب مجزع وصلبان ومتسلقات نباتية وعناقيد صخور تكاد تسحق ما نبت تحتها من بيوت .مدينة تتسلق بيوتها الحجرية الى سفح الجبل . هي اقدم مدينة عرفها انسان هذه المنطقة .الكنيسة القديمة تنتصب في اعلى الجبل ، وثمة

كهوف تبين في السفوح ، قالت هيام ان الرهبان فيما مضى كانوا يحتمون فيها من اضطهاد الوثنيين .ففي هذه السهول نشأت معابد واقيمت صلوات وذبحت نذور ، لآلهة عديدة ، توق الانسان للخلاص من ذنوبه وسيئاته .

– هل جئت الى هنا سابقا؟

– كلا .لكنني سمعت كثيرا من القصص والحكايات عن المدينة .

نزلا من الباص ، مضيا الى جزار قريب . اشتريا نصف كيلو من اللحم ، ثم طلبا منه ملحا ، ومن هناك عرّجا الى فرن قريب وطلبا رغيفين ، ثم ابتاعا قنينتي نبيذ بيتي .من بقال مجاور ابتاعا البندورة والخيار ، ووضعا كل شيء في كيس كبير ، ومضيا يتجولان في المدينة .

البيوت يتراكب بعضها فوق البعض الآخر .رأى ذلك في الجبال ، لكن تلك البيوت منسّقة اكثر ، انها ليست بيوت فلاحين كما في الشمال البعيد .ممرات ضيقة وبوابات صخرية وابواب من الخشب ، ووجوه بشر تحمل ملامح قاسية بعض الشيء .اما اللغة فقد ذكّرته بتاريخ طويل مندثر . احس انه يدخل متحفا كل مافيه حي يتحرك امامه .في الكنائس شاهدا ايقونات ورسوم قديسين ذات الوان فاقعة ، ورائحة البخور تنغل في الزوايا وعلى المقاعد الطويلة . المرشدون يشرحون لهم عن عجائب القديسين وحكايات الزوار الذين لا ينقطعون صيفاً وشتاء . شعر انه يتسع ، وبلحظة خاطفة تبدّى وجه تاتا مشرقاً بابتسامة واسعة . ليتها معه ، يريها الايقونات والضوء المقدس الذي اشعل الانسان في هذه البقعة المنزوية من العالم .

صعدا الى قمة الجبل ، وقفا يحدقان في الوادي الفسيح تحتهما . مشهد لم ير مثله في حياته .البساتين تمتد الى عشرات الاميال ، تنتهي بجبال اخرى . الشارع يتلوى في الارض الحمراء مثل افعى ، وبين فترة واخرى تمرق سيارة الى مكان مجهول .بنو البشر يخترعون طرقهم وجهاتهم ، وسائل ركوبهم ومتعهم ، بهم ميل غريب لاكتشاف هذي الارض وشطر

اوصالها .كلما اوغلا في المدينة ينالهما الجوع وتتكدس في اذهانهما المشاهد .

- دعنا ننزل في شق الجبل .

لم يكن حوله اي شق ، عجب كيف تقول له ذلك وهي لم تر المدينة سابقا ، حسب قولها .لا يريد ان يستفسر ، انها تمقت اسئلته ، خاصة ما يكشف تناقض كلامها ويدفعها الى حافة الكذب .

بالأمس رأت ماجداً جالساً خلفهما في الرواق . كانت مرتبكة ، سألها ماذا بك ، قالت لاشيء . كانا اتفقا على المضي الى فِلْم المساء ، في سينما فندق الشام .في الخارج مطر خفيف ، وهي تود البقاء لمرامقة ماجد النظر .احس بتغير احوالها ، سألها هل تعرفين احدا هنا ، اجابت بالنفي .كان الصمت ثقيلا بينهما ، اصبحت تخاف الكلام عن اي شيء كي لا يكتشف حقيقتها .انقذها من الحرج قيامه بغتة وطلبه المضي الى السينما . لم تمانع ، صوته جاء حاسما اكثر مما تستطيع مقاومته .

الى اليمين صخور والى اليسار صخور .

لكن مع من سبق لها المجيء الى هذا المكان؟ مغاور وكهوف ، كتابات تدون اسماء من مروا في هذا الشق ، لغات عديدة ومعان واحدة . ودّ لو يستطيع قراءة اسماء من مروا على هذه المرأة مثل تلك المنقوشة على الصخور . يتطلع في صفحة الوجه ، يلقاه نسيجا صلدا ، متماسك القسمات . تحرسه كتل الشعر المتطايرة مع الريح .اية صخور على الانسان ان يطأها كي يصل الى قرارة نفسه . الى مكامن ضعفه وقوته ، اغواره وعتماته؟ كم من اشجار العفص والجوز عليه ان يرى ويقتطع حتى يلتقي بهيام ويعرف رموزها ، او يعرف كيف تفكر؟ هل استطاع ان يغوص الى اعماق تاتا خلال سنوات معاشرته لها؟ من هي؟ كيف عاشت مراهقتها ، ومن هو اول رجل عرفها؟ هل ان الانسان مصنوع من صناديق؟

نزلا من الجبل نحو السهل الواسع المحيط بالمدينة الصغيرة ، اقدامهما

تسحق الاغصان الجافة والاشواك البرية ، وفي السهل تنمو اشجار زيتون متناثرة ، وفي البعيد تلال رمادية مطلية بأشعة الشمس .وضعا الاغراض تحت شجرة وارفة ، واشعلا النار .اقتطع اغصانا من الشجرة وشكّها في اللحم وفتح قنينة النبيذ الاحمر .سكب سائلا شفيفا في كأسين ابيضين من البلاستك ، عصرته الايادي الخشنة من كروم هذا السهل .سيرتشف معها روح الينبوع والتراب والفطر الربيعي والصخور المتحللة المنقوشة بالعبر والملاحم والاساطير التي دارت تحت هذه السماء .

وهي ترتشف بلذة ، صامتة لا تتكلم الا فيما يقومان به عطرها فاغم وشعرها احصنة .احس انها تحب العمل بيديها ، اصرت انها هي التي ستشرف على الشواء .لابد من استشفاف خبرتها في هكذا اعمال .قامت بها كثيرا قبل هذه اللحظة . تركها ومضى الى البرية ممسكا بكأسه المليء وهو يتملى بالارض حوله ، باشجارها وحصاها وتلالها . هنالك سلام في روحه ، يدخل مع الهواء ، ويفجر في خلاياه روح الانتماء الى هذه الارض .مشاعر جعلته يكبر ويكبر حتى يأخذ جسده حجم الكنيسة وشق الجبل والوادي وتلال السهل .الدخان يتصاعد من الموقد ، وهي هناك تنحني على الجمر لايعرف بماذا تفكر .هل تفكر بنداء ، بالشاعر ، بالفنان الذي رحل كما قالت الى فرنسا حاملا البومه الملون ، وقد اهدى لها نسخة كتب عليها : هذه لوحة الشوك والجسد ، ستتذكرينها ذات يوم . فسر الشوك اصابع الفنان الغليظة ذات الحراشف المتولدة من طول الفترة التي مرت على تعامله مع الفرش والالوان والقماش ، وهي تجوس على جسدها ، تبعث القشعريرة في زواياها واعضائها .اليد اشواك والجسد ارض بكر .لابد ان تكون الامور كذلك ، او هكذا قاده حدسه حين قرأ الاهداء على الالبوم .

ونداء؟ كيف كتب قصته على جسدها؟ حاول بكلمات موحية ان يستدرجها للحديث عنه . جلسته معه في محطة كوبنهاغن لم تكن

مُطَمْئِنةَ على الاطلاق .لم يتعامل معه بتلقائية .كان هناك حاجز غير مرئي ، بينهما . كل ماعرفه منها انهما جلسا مرة واحدة في قصر البلور واحتسيا البيرة ثم رجعت هي الى عملها مساء .نداء لم يخبره بهذا .طلب منها تفسير معنى الهدية فقالت انها لاتعني شيئا ، هدية فقط .لماذا تضلله هذه المرأة؟ لا تريده ان يعرف اي شيء خاص عنها .هل تريد ان تولد من جديد معه؟ وهل تتم الولادة بهذه الطريقة؟كيف يولد الانسان دون ان ينبني عضوا عضوا وذكرى ذكرى ومشهدا مشهدا؟اسئلة ترد في رأسه دون جواب .رأى زهورا برية صفراء وحمراء ، تنمو في الاجراف الصغيرة والحفر ، فقطفها .جمعها باقة مع غصينات وسنابل وعيدان ورجع الى النار .سيعاملها برقة ، فهي انثى اولا وأخيرا ، الا انها ليست انثاه .ليست المرأة التي يمكنه ان يتكئ عليها . لايمكنه التفاعل مع امرأة من صناديق ، يروم جسدا نافرا في الريح وروحا طليقة غير مؤطرة .هل يطمح اكثر مما ينبغي؟

شاهد الفرح في عينيها حين قدم لها باقة الزهور . شاهد ايضا بروقاً من الحب والاستسلام والخوف ، تجمَّع ذلك في اصيل السهل الممتلئ باشعة الشمس الساقطة خلف الجبل لكن رغم ذلك ، شعر ان عليه ان يتخلص من هذه المرأة بأي ثمن . لا يود ان يعيش قصة حب مع امرأة غير مقنعة . سينهي علاقته بها رغم انه يعشقها ، فعشقه مريض وروحه تطمح الى شيء آخر غير هذا .لكن هل التقطت ماكان يفكر به؟ لقد ران عليهما سكون عميق ، ظل متشبثا بهما حتى رجوعهما الى دمشق . لم يستطع احد منهما اجتياز الحاجز اللامرئي ، الذي نسجته بصلابة ، ايام واحداث وقصص ماضية .

٢٨

بدأت نقوده تتضاءل . تستنزف هيام جيبه دون رحمة . سهرات في الف ليلة وليلة والزيتونة والمريديان ووجبات في المطاعم ، وهدايا غير مبررة . حَلَقٌ للآذان ، محابس للاصابع ، البسة داخلية للسرير .لم يبق امامه الا تغيير البيت ، يستأجر مكانا ارخص ، فالقصة معها توشك ان تصل الى النهاية .كان يتلمس طريقه الى دواخلها ببطء ، لكنه كلما توغل في تلك الدهاليز يحس انه يصعب عليه الرجوع .اصبحت كوبنهاغن حلما بعيدا . قلّت اتصالاته مع تاتا ، وراح يقضي نهاره بالتفتيش عن بيت صغير يتابع فيه ايامه مع هيام .

وجد غرفة على السطح ، لاتبعد كثيرا من باب توما .كان حلمه ان يسكن هناك ، في قلب هذه المدينة ذات الاصابع الخشنة المكونة من مآذن وكنائس وجبال وزيتون .هذه المرة اعتمد على نفسه ، لم يطلب مساعدة من ابو حالوب .الغرفة بالقرب من نهر بردى .رافقته هيام الى هناك ، رأت ان من الحكمة جعل حياته اقل كلفة .راحت تحبه من جانبها ، لكن على

طريقتها الخاصة ، طريقة الصناديق . اصبح صندوقه يتوسع قليلا قليلا ، يضغط على الصناديق الاخرى . يخترقها احيانا ، ليصل الى مكنوناتها . تكونت لديها صورة جدية ، غرفة معزولة عن الجيران ، مدخل الحارة حلو ، نهر على طرف والبيوت على الضفة . ثمة بوابة ، البوابة قديمة بالكاد تحصن مدخل البيت ، وكان هناك رائحة عطنة من الطين والعشب والطحالب المتفسخة مع بقايا مايلقيه المارة الى النهر . الباب مكسر ، يستند على بلوكات . بناية لاتشبه البيت .طلعت معه على الدرج ،الدرج طويل عال ، قال لها هنا ستكون لقاءاتنا ، وبالحقيقة عيشتهما ، لانها بدأت تنام عنده اغلب الايام .فوجئت بكل ماتراه ، الناس الموجودين ، والخوف من الخراب ، وظنت انه ربما يمزح ، اذ لايمكن العيش في هذا المكان ، خاصة لرجل محترم مثله جاب اقطار الارض ويملك كثيرا من الدولارات .

غير معقول ، كيف رضي بها . لا تتصور انهما سيقيمان في مكان مثل هذا . لو عرفت ذلك لما كتبت له تلك الرسائل ودبجت تلك الاكاذيب عن احلامها . كثيرا ما اخذتها احلامها قبلئذ الى الدنمارك ، سترى ذلك الطير الاسود المرسوم في الطوابع البريدية . نعم ، سيطير بها الى اوربا ، يخلصها من هذه المدينة التي ساوتها بالأرض ، اما البقاء في غرفة مثل هذه فأمر لم يرد على بالها اطلاقا .قال تتضبط مع لمسات قليلة . تشاءمت ، رغبت بالبكاء ، احست ان النوم صعب فيها .الجيران فوجئوا ايضا . لم يتخيلوا ان مخلوقا يمكن ان يقطن الغرفة .الغرفة وجداها مزبلة بحق ، تتكدس فيها الاكياس والصحف والطناجر العتيقة والكراسي المكسورة وورق الجدران الممزق .على الجدران السنة بنية من بقايا المياه التي انسابت ذات يوم من السقف .اشكال مثل التي كانت تراها في احلامها . جن وشياطين وقبور ومزارات ، تنانين وافاع وقنان ضخمة وعربات صاعدة الى السماء بعجلات من سعف النخيل .لاتدري لم تذكرت رسومات الفنان ، ثم تذكرت وجهه في احدى تلك الاشكال ، وودّت لو تخبره عن كل شيء .

صرفا يومين في تنظيفها . صارت قابلة للسكن . شعرت انها بدأت تحبها . تنتهي من العمل وتأتي اليه مباشرة ، لتجد شيئا جديدا في الغرفة ، كرسيا او طاولة او سجادة او ورق جدران .فوق ذلك رائحتها التي اصبحت مقبولة .كان يؤكد لها انه لن يقيم فيها طويلا ، سيجد غيرها ما ان تتضح النهاية .لكن اي نهاية يقصد ، رجوعه الى الدنمارك ام زواجه منها ام تركه لها؟ كل ذلك كان يؤرقها في العمل والبيت وفي الغرفة حين ينامان سوية . لم تحس بالأمان . في بيت ماجد كانت تحس بامان اكثر ، تحس انها في بيت حقيقي ، اما هنا فهي كما لوكانت تنام في الشارع .

السطح مهدوم يمكن لأي شخص ان يتسلق اليه . بوابة البيت لايصعب كسرها والصعود الى الدرج . الجالس في الغرفة يرى كل الناس العابرين .كان الجيران خليطا من نازحين وعوائل فقيرة . ذكّره ذلك ببيت القابون الذي قطنه سلمان .ترى ماذا يقول سلمان لو رآه اليوم هنا؟ المطبخ غير موجود ، وعليه ان يطبخ في الغرفة . الحمّام غير موجود ايضا ، والتواليت مشترك يقع في منتصف الدرج .هناك حنفية مياه مشتركة ، ليس في المكان استقلالية تذكر . انه مثل قبر ، لكن يمكن للانسان ان يحلم حتى لو كان في قبر .ضجة الاولاد والجيران والطبخ والخناقات التي يحس معها المرء وكأنه يجلس وسط جيش من البشر . اي شخص يدخل اليهما يُصْعَق . كيف لبشر العيشُ هنا . قال لها يوما ، بعد ان هدته انها لن تأتي الى المكان مرة ثانيةً :حاولت ايجاد مكان لكن الايجارات غالية .

ومع الايام خفت الرغبة بالانتقال . الاجرة معقولة ، وجود السطح ميزة في الصيف ، يمكن للانسان الجلوس والتطلع في السماء . النجوم عنفوان يعيدهما الى بداية لم يعودا يتذكرانها الا لماما ، بعدها جاءت حكايات كثيرة واحداث . الكنيسة وشق الجبل والمكتب وضفاف بردى التي اشعلاها بالقبل .قررت ان تمضي معه الى النهاية ، الى ان يغلق الكتاب .لديها احساس انه على وشك الانطباق . فهو يحس بما عاشته

وماتعيشه ، لا يتطلب منه الامر ان يرى بعينيه .يحدس ، يروي لها مشاهد عاشتها حقيقة كما لو كان شاهدا عليها ، وهذا مايرعبها في شخصيته . جلبت نباتات في اصص واثثّت بيتا ، ماتت في البداية بسبب حرارة الشمس وحسبت انها علامة شؤم لأيام قادمة . ثم اشترت زريعة كبيرة ذات ظل وضعتها في وسط الغرفة .اصبحت اليوم تعشق الزريعات الكبيرة والافق البعيد والاحلام .

في الغرفة تنعكس الشمس على الزريعة مع ورق الجدران فتتوهج بلون اصفر .مساء تشغل نفسها بسقي الزريعة ثم تغلي متة وتشطف السطح ، وكان السطح يثير فضولها ، كأنها تعود طفلة في بيت المناخلية .

حين ينام خارجا كانت تخاف . تخاف ان يعود سكران ويضربها .تخشى مباشرته في طرح الاسئلة .وهي لم تعتد الوضوح بالكلام .كان ينتقم منها لشيء غامض في روحه ، احيانا دون سبب . يقول لها : لا احب هذا التعبير في وجهك ، فتود لو انها تعود الى بيتها ، لكنها تأمل برجوعه الى حالة العشق التي عاشتها معه في البداية .وتسأله اين يمضي لياليه فيصمت ولايجيب . اكثر ماكان يرعبها تلك الفتحة في السطح التي يمكن لاي شخص ان يتسلل منها .لكن تلك الفتحة تصير حلوة حين تقف تتفرج على البشر في الشارع وعلى النهر بذبالات الحباحب المتلاصفة في المساء .يخالطها احيانا احساس انها عاشت كل الاحداث التي مرت بها سابقا .مع ماجد او زوجها الاول او مع رجال آخرين .وأحيانا يراودها الوهم بكون هذا الرجل زوجها ، لكن بوجه آخر .الحوارات نفسها تتكرر .الاتهامات ، الظنون ، والغيرة .

تلك الليلة لن تُنسى لكليهما ، اذ كانت الخاتمة . فالكتاب أُطبق والحروف زالت والقصة اكتملت .

شطفت السطح ومدت السجادة الملونة واحضرت كتابا حول الكومبيوتر اشترته من رصيف الصالحية . هيأت نفسها لليلة صافية تعانق فيها سماء

باب توما . رجع سكران جدا ، عيناه مشبوحتان في قمة جبهته ، وطلب منها ان يشربا سوية فرفضت . حالته لا تحتمل مزيدا من الشراب . كانا واقفين جنب فتحة السطح .حاول كما لو كان يمزح ان يدفعها خارج السطح . تركت جسدها في يده وتطلعت اليه خائفة . هل يريد ان يقتلها حقا؟لم تعرف ما الذي يحصل معه . تشك احيانا انه كان يلتقي بأشخاص يعرفونها وقد حدثوه عن كل شيء . عن علاقتها بماجد والفنان والصيدلي والشاعر الكهل الذي لم تعد تراه في الفترة الاخيرة .بدأت تتجاوب معه ، احست بالحب اتجاهه . قادها من حديث الى حديث ، وحدثها عن تاتا ، وبيته في فالبي ، ولماذا ترك الدنمارك . لكنه بدأ يستفزها بأسئلته ، حول لوحات ذلك الالبوم الذي رسمه الفنان . قال لها غرة تلك الفتاة العارية تشبه غرتك ، وحركة يدك فوق الرأس وانت مستلقية في السرير تشبه حركة الصورة . بل واشار لها بالوضعيات الجنسية المألوفة له . كلماته خناجر تغوص في روحها ، ونظراته مثل مسامير تخترق جسدها وذكرياتها وأسرارها .انه يقترب من صناديقها المحرمة ، وهي مستعدة للموت كي لا يفك مغاليقها احد .لايمكن ان تبوح له بشيء لأنها ستفقده ، ولايمكن ان تستمر بالكذب لان الكذب صدأ يأكل الروح ، يجعلها تحتقر نفسها .

بدأت انفاسها تتواتر ، تعابيرها تأخذ هيئة مزرية ، والمرارة تتصاعد الى فمها .بدأ يحدقان بتحد في عيون بعضهما البعض . نحا الحوار منحى عاريا وعنيفا ، وكانت هي واقفة وهو جالس .وجهه قناع بارد التقاطيع ، عيناه سم قاتل .تلك لحظة ليس فيها من طريق ، او حل ما ، لحظة تحد مطلق . قالت له اذا لم توقف هذا النزيف سألقي نفسي من السطح . .ركضت الى الفتحة ، وهو يتطلع مبتسما بنظرة تحد .ثانية واحدة فقط ، احست بالتردد لكن شعرت باحتقار له غير طبيعي ، احتقار اقوى من الموت . تكورت امامها الاسماء واختلطت معا : العابد وبوابة الصالحية

ومصياف ونداء والقابون ومساكن برزة ، شرم الشيخ ومكة وبغداد وكوبنهاغن واللاذقية ، عباد الشمس والبليلة وغزل البنات .مي .سهير .تاتا .عرق .بيرة .بطاطا مقلية بزيت الزيتون المعصور في حمص .المطارات عيون تنفتح على السماء .البخور ارواح اموات تهب من تحت البلاط .

انفتح دهليز هائل امامها . نطت . رأت شارعا بعيدا وخضرة . تطلعت الى النهر في لحظة الطيران ، عليها ان تصل الى هناك . شاهدت شيئا كالذهب ، يشع ، لونه اصفر مثل شمس مشرقة . منظر نقلها الى شموع ذلك الشيخ التي كانت تشعلها له منتظرة قدومه . توسلت الى اذرع بردى كي تحتويها ، تداعبها بأكف من اسفنج وقطن .تحتوي جسدها ذؤابات القصب وعساليج الصفصاف واوراق الحور .سينزل المطر حتما رغم ان الفصل صيف . المطر يأتي من السماء دائما .النجمة اختها والقمر حبيبها .الموت لا يعني لها الا مرحلة تجتازها ، بقناعة . هو سرها الخاص الذي تفاهمت معه . جربته عدة مرات وكان يمنحها خلاصا من احزانها ويأسها . الموت حالة تفصل المرء عن وضعه السابق تماما ليخرج الى اجواء ثانية غريبة . مواجهة الموت قطع مع الماضي .

وصلت الارض . ما انفك جالسا مشلولا من وهج هذا المسرح الدائر امام عينيه .اكتملت حلقة التحدي . لقد اطبق الكتاب بصوت مدو .

ثمة خوف في روحها ، خوف من ان يتركها الى الصبح نائمة في العراء .يمكن ان يخاف ويهرب . لاتريده ان يسافر ، لابد ان يأتي احد من الجيران ويعتدي عليها .سقطت في غيبوبة . كانت تتقدم من البحر ، فينأى ، تخر عليها تيجان السنديان والسرو مقبلة جبهتها ، التي راحت الآلام تفر من غضونها تاركة روحها طليقة حرة تسبح في البراءة .يتنهد شخص قربها ، وتتعاقب الملامح . ماجد والرسام وسعيد وفاطمة ونداء والمدير ، وترتسم امامها حارات طينية متعرجة الازقة .

قال لها سلمان : ستتحولين الى كتاب تخترقه الجذور .تصعدين الى الأنساغ العلوية مصنوعة من كلمات وفواصل وصمت .عليك ان تؤدي دورك كاملا ، ايتها المرأة المصنوعة من كلمات .

يغيب سلمان في نبضات الالم .ترتفع الدالية التي عشقتها صبية في ارض الديار . نداءات باعة البليلة وغزل البنات والفوالين ، وحارس الجنينة يركض وراءها بمنجل مكسور . يقرع جرس كنيسة في جهة ما ، يطغى على رعّاشات الماء واضوية الشوارع وصوت وابور الكاز . انهم يصلّون ، تملأ ارواحهم سكينة الايمان ، تنطرهم ايقونات قديسين ، واسعي العيون .

في مدينة مثل هذه ، سادرة في ليلها ، تحرسها احلامها واوهامها ، تنام امرأة مع الموت ، لكي تنقطع عن ماضيها ، تفتح صفحة جديدة للوجود . الليل موسيقى تتراقص على اوراق البردي وبلاطات الشوارع وعرانيس الذرة . تدوزنها ملايين المجرات والنجوم في عزف خالد لاينقطع . هي وحدها من تسمع ، لقد واتتها الجرأة على افتضاض تخوم الحياة الارضية ، وهذا يكفي . انه امتيازها الكبير .

احست به فوقها . جاء لرؤيتها . ماذا جرى ؟

غابت . الخبطة قوية على الرأس . حملها الى السطح ، كانت نظرة عينيه غريبة .طالعها تائها يحلم بحياة اخرى غير هذه . وضعها في التخت وصار يبكي قائلا :لاشيء يستأهل . ضمها بين يديه ، تمدد معها ، غابت الاصوات من البيت .سكون مطلق وحرارة خانقة ، وظلام . الجدران تقترب من السرير ، الحيوات الكامنة في الغرفة تهجر مكامنها الى الخارج ، تلتم الجدران اكثر ، تضيق المسافة .ثمة جسد غض قربه ، جسد في بدء الولادة . عيناه تأخذانه الى ارض باردة ، ينام هناك ، محتضنا ابنته الصغيرة سمارة .لاتزال الملابس التي البستها اياها تاتا جديدة ، وهناك برودة في التراب . لايسمع طيرا يشدو ولا نسمة تهب . والغربان السود تحلق اعلى من شجر الجوز البري .احس نفسه كائنا صغيرا لاحول له ولاقوة ، يتوحد

بالتراب والخشب والمياه ، بالكائنات المجهرية والديدان والبذور السابتة .
يختلط بالجذور ، يعانق نبض حياة لم تولد بعد . . . . .

موطن الأسرار

«قام من السرير، نظر من الشباك ثم مضى الى الثلاجة في المطبخ. شرب ماء بارداً... ثم رجع إلى الفراش دون ان ينظر الى الساعة. كان يتمنّى ان لا يبدأ مقرىء الجامع انشاده. يريد ان يواصل حياته الأخرى، الغائبة خلف الرموز والمعالم غير الواضحة. يختفي الزمان ويندمج المكان، يريد ان ينام بعمق، ثم يفيق بمزاج مرح ووجه لا تلوح عليه المعاناة. رغم ذلك ظلّت الوجوه تترى على ذهنه. أصدقاء، أعداء، نساء، مشاهد بعيدة، يقفز من مشهد إلى آخر، ومن زمن إلى زمن، والليل يسري على مهاده المصنوع من حكايات وقصص وأشجار ورمال ونساء.

أفاق والشمس تملأ شوارع مساكن برزة. لا بدَّ ان الباص ينتظره هناك، قرب الجامع. ارتدى بأقصى سرعة ملابسه، رتَّب سريره، نظَّف أسنانه، دلق عطراً على ملابسه، دخَّن سيجارة بعد ان تناول قطعة من الشوكولاتة وخرج الى الحارة. واجهته جزرة الثيل ومئذنة جامع ابراهيم الخليل، حيث شاهد الباص واقفاً والناس متجمهرين. كان قاسيون يشبه صخرة هائلة سقطت من كوكب غريب. خلفه سماء زرقاء منسوجة من هواء وطيور ونظرات هائمة».

«من الرواية»

AL MADA BAGHDAD
15980 PRICE:5$

99
المؤسسة العربية للدراسات والنشر